غالب حسن

قضايا إسلامية معاصرة

نظرية العلم في القرآن

ومدخل جديد للتفسير

دار الهادي

نظرية العلم في القرآن

ومدخل جديد للتفسير

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

قضايا اسلامية معاصرة

غالب حسن

نظرية العلم في القرآن

ومدخل جديد للتفسير

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحرر

يحتل الحث على استخدام العقل، والدعوة الى التفكير والتدبر، والنظر، مساحة واسعة من القرآن. فقد جاءت مشتقات العقل في تسع واربعين آية كلها بالصيغة الفعلية، من قبيل: يعقلون، وتعقلون، ونعقل، ويعقلها، وعقلوه، بينما لم ترد كلمة العقل بالصيغة الاسمية في الكتاب الكريم، وان وردت مقارباتها ومرادفاتها بهذه الصيغة، مثل: اللبّ، والعلم، والحجى، والنهى، والفؤاد، والقلب، التي جاءت بمعنى العقل. مضافاً الى ان القرآن يشتمل على أكثر من ثلاثمائة آية تتضمن دعوة الناس الى التفكر أو التذكر، أو التعقل، أو التدليل على اثبات الحق وابطال الباطل. ولم يأمر الله تعالى عباده في كتابه ان يؤمنوا بشيء من دون بصيرة وتدبر، حتى انه ذكر الكثير من الاحكام في سياق التعليل.

كما ان تلبّس العقل في تمام الموارد التي جاء فيها من القرآن بالصيغة الفعلية، يوحي بتوجيه الانسان نحو إعمال العقل وتوظيفه في الحقل الذي أُنيط به، وهو المواظبة على التفكر. والتدبر، والتبصر، والنظر، والتذكر، والتفقه. وهذه كلها مشاغل تتطلب فعالية دؤوبة متوثبة للعقل بنحو متواصل.

كذلك اهتم القرآن اهتماماً بالغاً بالتأكيد على النظر العقلي، وحث على

تحصيل العلم والمعرفة، وتجلى هذا الحث بوضـوح في تكـرار مـادة العلـم ومشتقاته في الآيات الكريمة بما يزيد على تسعمائة مرة. اذ استهل الوحـي خطابه بالأمر ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ واردف هـذا الأمـر بـأمر آخـر بالقراءة ﴿إقرأ وربك الاكرم﴾ فكان هذا الامر ايذاناً بدخول البشرية في عهد جديد، تندمج فيه قراءتان باتساق، وتغدو كل واحدة منهما وجهاً للقـراءة الاخرى، تدل عليها، وتقود اليها، الاولى هي قراءة كتاب الوحـي، والثانيـة هي قراءة كتاب الوجود، أو قراءة الكتاب التدويني والكتاب التكويني.

وبموازاة ذلك نبه القرآن الى منزلقـات العقـل وآفاتـه، فشـدد علـى ذم التقليد الأعمى واتبـاع الآبـاء، والاستسـلام لميراثـهم، مـن دون تمحيـص وغربلة. كذلك حذّرَ من الاعتماد على الظن، واوضح أن الظن لا يغـني مـن الحق شيئاً، وان المعرفة الحقة لا بد ان تستند على اليقـين، واتخـذ القـرآن موقفاً لا لبس فيه حيال اتباع الهوى، فصرّح بأن الهـوى يقـود الى التيـه، ويحجب الفؤاد عن رؤية الحق، ويحول بين العقل وبلوغ الحقيقة.

وعمد القرآن الى استخدام الاستدلال على ما جاء فيه من عقائد واحكام، ولم يطلب من الناس التصديق بمضمونه بلا برهان، واسـتعانت أسـاليب الاستدلال فيه بما هو مشاهد ومحسوس في هذا الكـون الفسـيح، وجـرت الادلة في اطار الامثال والقصص، فاكتست بصور واقعية، منبثقة من حيـاة الانسان وما يكتنفها من تداعيات ومشـاكل. فقـد حكـت الامثـال القرآنيـة الواقع المحسوس، وتحدثت القصص عن تجارب تاريخية عاصرتها الامـم الماضية، وأشارت آيات عديدة الى الارض وما عليها، والكون وما يزخر بـه من أجرام تضبطها مجموعة قوانين صارمة لا تتخلف ولا تختلف.

ويعالج كتاب «نظرية العلم في القرآن ومدخل جديد للتفسير» للاستاذ غالب حسن، قضية العلم والمعرفة في القرآن الكريم في الفصل الاول ويحاول ان يستنطق النص القرآني ويتقصى دلالاته بشأن هذه القضية، بغية اكتشاف نظرية تتجلى فيها سائر أبعاد الموقف القرآني حيال العلم والمعرفة.

يستخلص الباحث في الفصل الاول أبرز طرق المعرفة في القرآن، ابتداءً بالسمع والبصر، ثم التفكر، والرؤية، والتعقل، والنظر، والتبصر. ويؤكد ان كل طريق معرفي من تلك الطرق يؤدي الى علم مطابق في قوته، وشدته، ومستواه، مع عمق الطريق، ودقته، وسعته، ومدى صلاحيته في استحصال المعرفة أو العلم. ومما لا ريب فيه ان «التفكر. والتعقل، والتبصر، والنظر، والرؤية» تعني ان الانسان مزود بجهاز مفكر، وهذا الجهاز هو العقل. والعقل في القرآن قوة درّاكة يمكنها ان تجول في ظواهر الحياة والتاريخ والكون والمجتمع. العقل في القرآن يتجاوز الظواهر الجاهزة من المعرفة، من أجل معرفة السبب والغاية. ومما ينبغي الاشارة اليه، ان الآيات التي تنتهي بـ «يعقلون، يتفكرون، يبصرون...» أو التي تستهل بالنظر والرؤية، انما تدعو الى استعمال العقل في وعي أسرار الظواهر. وليست المسألة هي التأمل الوصفي الساذج، بل الغور في عمق الاشياء، واستكناه البنية الاساسية للحقائق.

وفي السياق ذاته يستقرئ الكتاب مستويات المعرفة في القرآن فيستهلها بالدراية ـ الادراك، والفهم ـ الفقه، والحس ـ الشعور، والبصيرة ـ الرؤية، واليقين، وأخيراً الظن. ويحدد العلاقة التفاعلية العضوية بين هذه

المستويات، وانحاء الارتباط بين كل واحد منها والآخر. وكيف يرتقي وصف القرآن لجماعة من الناس، فيسميهم «أولو الالباب، وأولو الابصار»، ممن يتميزون بمستوى رفيع من الوعي والبصيرة.

بعد ذلك يتابع المؤلف بالدراسة والتحليل ما يتصل بالعلم، والبرهان، والبيان في القرآن، ويستخلص النسيج الموحد الذي تشير اليه الآيات القرآنية،وما يرقد وراء مداليلها التفصيلية، من مداليل مشتركة، تعبر عن بناء منتظم، منبث في الآيات كلها.

اما في الفصل الثاني فيبحث المؤلف ما يصطلح عليه بـ «التفسير المعادلاتي»، وهو منهج في التفسير يهتم باستكشاف ما يسود القرآن من معادلات كونية واقتصادية واخلاقية وسياسية، فكثيراً ما يربط القرآن بين عنصرين على نحو معادلة لها جذرها، وشروطها، ونتائجها، فضلاً عن طرفيها. ويلخص الباحث خمسة معالم لمنهج التفسير المعادلاتي، تبدأ بتشخيص الآية ذات البنية المعادلاتية، تليها عملية اكتشاف ما يعزز ويدعم هذه المعادلة، ويتمثل هذا المعزز بالترابط العضوي بين ضدي طرفي المعادلة مثلما هناك ترابط بين طرفيها، فالقرآن الكريم يبني علاقة اطراد بين الشكر وزيادة النعم مثلاً، فينبغي البحث عن معادلة قرآنية تحكي الاطراد بين كفران النعمة والقحط، وبعد ذلك يجري تعريف قرآني دقيق لكل موضوع من موضوعي المعادلة، لامكان التسلسل المنطقي الصحيح لفهم المعادلة كفضاء وبناء ونتائج. ولا يقف التفسير المعادلاتي عند هذه الخطوة، وانما يرتقي الى مجال اوسع، فيسعى للتعرف على المعادلة الأم، التي تندرج تحتها معادلات متعددة، ولا تكون هذه المعادلة الا أحد افرادها . وفي خطوة

أخيرة يثبت جذر المعادلة باعتباره وعاء انبعاثها وتأسيسها وصيرورتها. ولا يقتصر البحث على تحديد معالم هذا المنهج التفسيري، وانما يتخطى ذلك لتطبيقه من خلال ثلاثة نماذج.

ويشتمل الفصل الثالث على مقاربات في المجال الدلالي والوظيفي للكلمة في القرآن، تجاوزت الأُفق المحدود للاستعمال القاموسي، فرصدت استعمالات الكلمة في نطاق الوحي، وكشفت عن المستويات المتعددة لذلك الاستعمال، والافصاح عن ان المعطى القرآني يشي بكونها صيرورة وحركة وتوكيد وظيفي فائق على الاشياء والحوادث.

ويمضي الكتاب في فصله الختامي في بيان موضوع «ذكر الله في القرآن» واستخراج ما يتصل به من مفاهيم وتوجيهات، في اطار مسعاه لرسم مدخل جديد للتفسير.

ويجيء اصدار هذا المؤلف في سلسلة كتاب مجلة قضايا اسلامية معاصرة، بهدف تعميم وعي سليم بموقف القرآن من العلم والمعرفة، والتعرف على المنحى العقلي في التفكير، الذي حثت عليه الآيات الكريمة، وشدد القرآن في الدعوة اليه، واعتبره نقطة البداية في ايقاظ البشرية، وتحرير وعيها من ظلمات الجهل والخرافة.

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب.

عبد الجبار الرفاعي

الفصل الاول

نظرية العلم في القرآن الكريم

القسم الاول

[١]
من طرق المعرفة في القرآن

١ ـ السمع ـ البصر:

يتحدث القرآن عنهما بلحاظ معرفي، أي كونهما أداتين حسّيتين للتفاعل مع العالم الخارجي، وعلاقتنا بهما في هذا الخصوص، أي بعيداً عن المعاني الباطنية التي تتصل بهما. فالكلام في نطاق الحواس الظاهرة للانسان. ومنها الاذن التي يسمع بها والعين التي يبصر بها. قال تعالى: ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا﴾. ﴿سمّاعون للكذب﴾. ﴿ومنهم من يستمع اليك﴾.

اذن السمع هنا، أي في هذه الآيات يقابل (الصَمَم)... قال تعالى: ﴿وفي آذانهم وقر﴾.

﴿... لا تسمع الصمّ﴾. وهنا ملاحظتان مهمّتان:.

الاولى: يُطلق السمع في القرآن الكريم، ويراد به أحياناً الفهم، أي معرفة معنى الكلام أو الظاهرة الطبيعية أو الاجتماعية... والفهم مستوى من مستويات العلم. قال تعالى: ﴿سمعنا وعصينا﴾، أي فهمنا قولك ولم نأتمر لك. و ﴿سمعنا وأطعنا﴾، اي سمعنا وأتمرنا به.

قال تعالى: ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾. ﴿والله انزل من السماء ماءً فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾.

ان السمع هنا لا علاقة له بسمع الصوت، انه الفهم الذي يتصل بالقوة العاقلة لدى الانسان فيما السمع في الآيتين الأوليين ذو صلة جوهرية وتأسيسيّة بالاذن والصوت أو اللغة بتعبير أدق.

الثانية: ان المعرفة أو الفهم أو الادراك (وكل مفردة تعبر عن مستوى مُعيّن من العلم) قد يكون أو يتحصّل بقوة روحية أو بسبب روحي ﴿إنا سمعنا قرآناً عجبا﴾، وهذا لا يدخل في موضوع المصفوفة المعرفية الحسّية الظاهرة (السمع ـ البصر) الذي اداته (الاذن ـ العين)، امّا البصر فموضوعه حسي ايضا، فهو كالسمع، واما العين الباصرة لدى الانسان فان مهمتها معروفة، فالبصر هنا يقابل العمى. قال تعالى: ﴿ربّنا أبصرنا وسمعنا...﴾. ﴿لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر...﴾. ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها﴾. ﴿وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون﴾.

فالبصر هنا تماماً كالسمع، واسطة بين الانسان والعالم، يرى بعينه الاشياء والموجودات، واذا افتقد الانسان عينه فانه لا يبصر. وليس له علاقة بما يُعرف بـ (البصيرة) والتي يراها البعض بانها الادراك بالقلب على اختلاف في المراد من هذه الكلمة.

ان البصيرة على رأي البعض هي (العلم). ومما لا ريب فيه انّ هذا لا يعنى «البصر» الذي هو الادراك بواسطة العين. فهناك البصر والبصيرة

والابصار والبصائر والباصر والبصير.

قال تعالى: ﴿إنّ الله بما تعملون بصير﴾. ﴿بل الانسان على نفسه بصيرة﴾.

نعود للقول ان البصر الذي نعنيه هنا، ذلك الذي يكمل السمع وبقيّة الحواس الاخرى كواسطة مباشرة بين الانسان والعالم الخارجي.

ان مصفوفة (السمع ـ البصر) تشكل مع العقل آليّة المعرفة لدى الانسان. والقرآن يؤكد على هذه التشكيلة بأسلوب آخر. قال تعالى: ﴿الله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة﴾.

وقال تعالى: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة﴾.

واذا راعينا العلاقة الطبيعية بين كلمة «العقل» و«يعقلون» لوجدنا القرآن الكريم يُولي هذه العلاقة اهتماماً غير عادي ويؤسسها في بُنية جدلية متفاعلة.

قال تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾، ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

فهي علاقة جدلية مطردة متفاعلة، وليس من ريب ان الفكر الفلسفي العتيد يقوم على اعتبار الحس والعقل معاً في تحصيل المعرفة.

وقبل ان نختم هذه الفقرة من البحث ندرج الملاحظات المهمّة التالية:

اولاً: ان المقصود من (السمع ـ البصر) هنا نشاط الحاسّتين المعروفتين

ولا علاقة لهما بالقوّه الروحيّة التي تمارس دور البصيرة والوعي المذكورة في مجالات اخرى.

ثانياً: يأتي السمع في أحيان كثيرة مقترناً بـ (التعقل) على نحو العطف بـ (أو) مما يعطي نوعاً من صلاحيّة البدل.

قال تعالى: ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾. واعتقد ان السمع هنا يعني (الفهم) وهو مستعمل كثيراً في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**﴾. أي انهم قالوا فهمنا وهم لا يفهمون. وقال تعالى: ﴿**فإنك لا تسمع الموتى ولا تُسمع الصمَّ الدعاء**﴾اي لا تُفهمهم لكونهم كالموتى... ومن هذا اللون كثير.

ثالثاً: ان ميدان الحواس هو المحسوسات، وهي احدى وسائط الاتصال بين الانسان والعالم الخارجي، وعلاقتهما مع العقل جدلية متفاعلة.

٢ ـ يتفكرون:

التفكر على ما يقولون هو ترتيب امور معلومة بهدف تحصيل مجهول ما. فاذن هو طريق لتحصيل المعرفة. وهو بهذه المواصفات أرقى من مصفوفة (السمع ـ البصر) وقد ورد (التفكر) في اشتقاقاته المتنوعة اكثر من خمس عشرة مرّة، وهي في اكثر الاستعمالات تعبر عن جولان العقل في جملة مُعطيات متوفرة وجاهزة من أجل الوصول الى نتيجة معقولة ومتناسبة مع تلكم المعطيات. وفي الحقيقة ان النقطة الاساسية المطلوبة هنا، هي وضع الاصبع على مصاديق أو بالاحرى مجالات اعمال الفكر في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع**

للناس واثمهما أكبر من نفعهما وَيسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

﴿... فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾، ﴿ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سُبل ربك ذُللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾. ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.

﴿وهو الذي مدّ الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. ﴿ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. ﴿وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾. ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والارض وما بينهما الاّ بالحق وأجل مُسمّى﴾.

من هذه الآيات نفهم: ان العقل الانساني يستطيع ان يقارن ويوازن، ويمكن ان يستخرج نتائج صحيحة بعد ان تتوفر المعطيات الحسيّة والعلمية.

والآن ما هي مجالات التفكر التي سطرها القرآن؟

اولاً: مواد الاحكام الشرعية التي الزم الله بها الانسان.

ثانياً: مجال الحياة الدنيا للتبصر والاعتبار.

ثالثاً: تنوّع عالم النبات وتسببه عن الماء.

رابعاً: تكيّف العالم لمصلحة الانسان (التسخير).

خامساً: زوجيّة النبات.

سادساً: زوجيّة الكائن البشري.

سابعاً: قيام الوجود بالحق الذي هو تعبير عن انضباط الكون بالقوانين.

ومن هنا نفهم ان مجالات التفكر في القرآن هو هذا الكون الرحيب، كما انها تشمل عالم الاعتبار.

ومما يجب ملاحظته أيضاً ان القرآن لم يستعمل (التفكر) كاسم!! واقتصر على الصيغة الفعليّة (يتفكرون). لماذا؟

ان التفكر في حقيقته القصوى انتقال من المعلوم الى المجهول، وبدون هذه النقلة أو الحركة لا معنى للتفكر أبداً، بل نستطيع ان نقول انه غير موجود، وهذه اشارة مهمة يجب التوكيد عليها. وهي دلالة قوية على النظرة الحيويّة في القرآن الى مسألة التفكر، لانها تتحدث عن هذه الممارسة بروحها؛ بجوهرها، بصميمها، وهي الانتقال الذهني من الظاهر الى الباطن، من المقدمة الى النتيجة، من المعلوم الى المجهول.

الدعوة الى التفكر تستبطن الاشارة الى قوّة درّاكة، تمتلك صلاحية اصابة الحقيقة في عالم الكون والاعتبار، والاشارة الى مثل هذه القوة في سياق من الفعل أولى من الاشارة اليها كذات أو كيان أو جوهر، لانّ اثباتها وبقاءها في واجهة الشك انما بفاعليتها.

القرآن الكريم لا يدعو الى التفكر فحسب، كما يكرر باستمرار الكتاب الاسلاميون، المسألة اعمق واوسع من هذه الاشارة...

القرآن يدعو الى التفكر، ويهيئ الارضيّة لمثل هذه الممارسة، ويرسم الطريق الناجح والمستمر اليها ويثير الاجواء التي تساعد عليها. فالقرآن عندما يضع بين يدي الانسان الآيات ويستعرض امام ناظريه ما يزخر به الوجود من ظواهر واشياء، ثم يطالب باعمال التفكير انما يمارس عمليّة تربويّة في هذا المجال.

٣ ـ يعقلون:

ورد هذا الاستعمال في القرآن الكريم اكثر من أربعين مرّة ولم يرد العقل كاسم في الكتاب المجيد، والسر هنا نفسه في موضوع التفكر الذي سبق وان اشرنا اليه. وقبل ان نلج في صميم الموضوع نطرح الملاحظات التالية.

الاولى: يرد هذا الاستعمال في القرآن الكريم ضمن منظومة الطرق المعرفيّة الاخرى التي يتبناها القرآن الكريم (يتفكرون، يعلمون، يسمعون...).

قال تعالى: **﴿هو الذي انزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم «يتفكرون»، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره إنّ في ذلك لآيات لقوم «يعقلون»، وما ذرأ لكم في الارض مختلفاً الوانه ان في ذلك لآية لقوم «يذكرون» ﴾**.

وعلى هذا المنحى (الروم، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤)، (الرعد ٣، ٤) ومواضع اخرى من القرآن ضمن عرض كوني حاشد بالمشاهد والظواهر الكونية والتاريخيّة والحياتية، حيث نلتقي بنسيج متشابك ومتعاضد من

وظائف ونشاطات وفاعليات جهاز التفكير الخالد، أي العقل الانساني.

الثانية: ويرد هذا الاستعمال في سياق كيانه المتفرد، وفي هذا آيات قرآنية كثيرة نذكر بعض الامثلة السريعة:

قال تعالى: ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى افلا تعقلون﴾ .

وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماءً فأحيا به الارض بعد موتها ليقولَن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون﴾. أي لا يعقلون حق التعقل.

وقال تعالى: ﴿انا انزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾.

الثالثة: ويرد هذا الاستعمال وقد مُهِّد له بذكر الحواس، مما يكشف عن نظرة قرآنيَة متماسكة للعلاقة الجدليّة بين العقل والحواس.

قال تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾، ﴿ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾.

وقبل ان نودع هذه الفقره ندرج الاشارات الضرورية الآتية لفهم الموضوع الذي نحن في صدد بيانه وفهمه.

ملاحظة اولى:

ان (يعقلون) قد يأتي بمعنى يفهمون كما في قوله تعالى: ﴿واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هُزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون﴾.

ملاحظة ثانية:

ان (لا يعقلون) لا تنفي وجود العقل، كما انها لا تنفي عملية التفكير أو التعقل، وانما تشير الى عدم الفهم، أو التفكير بصورة خاطئة أو بطريقة غير سليمة ﴿صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾، والا فهم يسمعون ويتكلمون وينظرون.

ملاحظة ثالثة:

ان التعقل الدقيق والذي يؤدي الى نتائج مضبوطة وناضجة وذات مستوى رفيع على صعيد الفكر يستوجب وعياً بالحقائق والمعطيات، وهذا ما تكشفه الآية الكريمة ﴿... **وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الاّ «العالمون»**﴾.

الرابعة: وكما ان عمليّة التعقل تحتاج أو تمارَس بواسطة العقل والحواس من خلال تفاعل جدلي ومتداخل بين الجانبين، فانها تحتاج الى مادّة جاهزة تتحرك على ساحتها وبدون هذه المادّة تستحيل عمليّة التعقل هذه.

المادّة هذه يعبر عنها القرآن الكريم بـ (الآيات).

قال تعالى: ﴿**يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون**﴾ .

الخامسة: ان عملية التعقل هذه ممارسة اختياريّة، أي منوطة بارادة الانسان واصراره، والانسان مزود بكل الاجهزة والشروط والضرورات التي تمكنه من هذه العمليّة ﴿... **لعلكم تعقلون**﴾.

لو نظرنا في هذه الصفوفة من الملاحظات في خصوص (التعقل) لوجدنا

أنها نشاط عقلي محفوف بكل لوازمه وشروطه، فهو في القرآن عمل عظيم ذو نتاج رائع اذا روعيت الحكمة واتبع في ذلك ميزان دقيق، ولكي تتضح الصورة اكثر نجيب عن السؤال التالي:

ما هي موضوعات التعقل في القرآن؟

أولاً: مظاهر الحياة الدنيا حيث يفيد الوعظ والارشاد والتبصر.

ثانياً: احكام الشريعة ومقاصدها الاجتماعيّة والفردية.

ثالثاً: صلاحيّة الكون للانسان (التسخير).

رابعاً: تنوع الحياة النباتيّة وتسببها عن الماء (يسقى بماء واحد).

خامساً: إحياء الارض بعد موتها بالماء وهو غير انبات الزرع كما هو معلوم. راجع (الروم ٢٤، البقرة ١٦٤، العنكبوت ٦٣، الجاثية ٥) وهناك آية تجعل هذا الموضوع ميدانا لغير التعقل وهي قوله تعالى ﴿والله انزل من السماء ماءً فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾. ولكن نحن نعلم ان السمع والتعقل كثيراً ما يتعاطفان في الآية الواحدة في الوضوع الواحد بواسطة الحرف (او) الامر الذي يفيد التقارب والتماس في المعنى والمهمّة. (الملك ١٠، الفرقان ٤٤، يونس ٤٢).

سادساً: الاجرام العلوية والارض مما تشتمل عليه تراكيبها من بدائع الخلق وعجائب الصنع، من صور تقوم بها أسماؤها ومواد تتألف منها ذواتها وتحوّل بعضها الى بعض . وهو المستفاد من قوله ﴿ان في خلق السماوات والارض﴾.

سابعاً: حركة الخلق الانساني (المخلوق الانساني) وتطوره المذهل البقرة ١٦٤. عبر مقاصد جوهرية في تكوينه العضوي والروحي غافر/٦٧.

اذن التعقل عملية فكريّة تشمل أو يمكن ان تشمل أهم مفردات الوجود، عمليّة فكريّة آلتها الحس والعقل، ميدانها الكون والتاريخ والحياة والأخلاق، تبدأ من امور معلومة واضحة للوصول الى نتائج غائبة. وهو بهذا كالتفكر، ولكن كما يبدو انه أعمق منه، وسنعود الى هذا الموضوع.

٤ ـ ينظرون:

النظر في المعجم اللغوي (في نطاق ما نحن فيه) يتصل بمستويين هما:

الاول: تحريك الفكر لمعرفة الشيء، أي تقليب وفحص الشيء من أجل الاحاطة ببعض خصائصه واجزائه وعلاقته مع الاخر.

الثاني: المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو ما يسمّى بالرويّة.

المستوى الاول هو المطلوب في موضوعنا. قال تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والارض﴾ أي تأمّلوا وافحصوا وقلّبوا الفكر في هذا الوجود الرحيب.

النظام اللغوي لاستعمال هذه المادّه في القرآن الكريم في غاية التنوّع والتشكّل، فقد جاء على سبيل الحث والمطالبة والتشجيع والاستفهام، مما يدلل على الاهميّة الكبيرة التي يوليها كتاب الله للوظيفة المذكورة.

قال تعالى: ﴿فلينظر الانسان ممّ خلق﴾، ﴿أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾. ﴿قل سيروا في الارض فأنظروا كيف بدأ الخلق﴾. ﴿قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾.

و(السير) تعبير عن النشاط الحسّي المكثف وعن الملاحظة الدقيقة، وهو لازمة اولى لاي عملية استنتاج.

اذا دققنا في الآيات التي تتعلّق بالنظر وجدنا أنها تطرق الموضوعات التالية كمواد لممارسة النظر بالذات:

اولاً: التجربة التاريخيّة بكل اشكالها الحضاريّة والسياسيّة والاجتماعيّة المتشعبة، ويكاد (النظر) بالمعنى الذي بيّناه ينفرد أو يغلب على أي استعمال آخر في استيعاب هذه المادّة كموضوع للدراسة والمعالجة والمعاينة.

قال تعالى: ﴿أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوة﴾. قال تعالى: ﴿فهل ينظرون الاّ سُنّة الأولين﴾؟

وقد تعددت آيات القرآن الكريم في هذا المجال .... وهذا النظر لهدفين متلازمين، وهما:

أ ـ الاكتشاف، أي اكتشاف القوانين التي تحرك التاريخ ايجاباً أو سلباً.

ب ـ العبرة، أي اتخاذ الدروس التي تترتب على الاكتشاف المذكور.

ذلك ان العبرة لا تحصل ولا تتحقق إلا من خلال الاكتشاف، اكتشاف قانون الحدث وسنة الحركة.

انها دعوة «تجريبيّة» لمعرفة التاريخ تعتمد فحص آثار السابقين والامم الماضية للوصول الى اسباب البناء والانهيار والتقدم والتأخر والنهوض والسقوط، سواء على صعيد الدول أم الشعوب أم الانظمة أم المجتمعات.

ثانياً: المفردة الكونيّة احدى مجالات النظر العقلي في القرآن الكريم، ومن الجدير بالذكر ان الامثلة هنا ليست للحصر، وانما هي منهج تعليمي يدرب العقل الانساني على خوض غمار هذا الميدان العظيم.

قال تعالى: ﴿أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت، والى السماء كيف رفعت،

والى الجبال كيف نصبت، والى الارض كيف سُطحت﴾.

النظر هنا مصوّب الى المواقع أو الأحوال التي تشكل مدار الاثارة والسؤال لدى العقل. فالسماء وهي على هذا العلو الشاهق، والارض بامتدادها الذي يقصر عنه البصر، والجبال بثباتها وشموخها... كل هذه الامور تثير في الذات الانسانية مكامن التطلّع الى السر الذي يتجسّد فيها ويفسّر صيرورتها.

النقطة المهمة هنا هي: ان النظر في المفردة الكونيّة وان بدا هنا وكأنه نظرة تعتمد العزل، الا ان سياق الآية وصياغتها في فعلها المبني للمجهول، يشيران الى ان المطلوب هو النظر الى المفردة الكونية من خلال حركتها، صيرورتها، أي النظر الى المفردة باعتبارها تاريخاً ﴿كيف خُلقت، كيف رُفعت، كيف نُصبت...﴾، فالكيفية مع الفعل المبني للمجهول هنا تجسّد حركة كونية ذات تاريخ مشحون بالتغير والتبدل.

ثالثاً: الوجود كله محل هذا النظر العقلي... الوجود كله باعتباره حقلاً هائلا من الآيات والدلالات والاشارات. قال تعالى: ﴿**قل انظروا ماذا في السماوات والارض...**﴾.

ومما لا ريب فيه ان الآية تطلق حرية العقل في كل شيء: احتواه الوجود. وذلك من مخلوقات وموجودات حيّة أو جامدة، بسيطة أو معقّده، بعيدة أو قريبة، ظاهرة او مخفية، ومن هنا كان العلم في الاسلام يتسع لكل شيء ومن دون استثناء.

رابعاً: ومما هو موضوع للنظر العقلي في القرآن الكريم ما يصطلح عليه الكتاب الكريم بـ (الملكوت). والملكوت هو القانون الكلي الذي يفسّر

الوجود، فهناك قانون شمولي عام يحكم هذا الكون، والعلم الحديث يسعى الآن لتفسير هذا الوجود بقانون واحد!! وفي لغة السيد الطباطبائي هو جهة اتصال الكون بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والارض...﴾.

خامساً: تكثّر النبات وتنوعه وعلاقته بالماء، (عبس، ٢٤، ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٢٨).

والنظر كالتفكر والتعقل يشير ضمناً الى جهاز التفكير... أي الى العقل، يتضمنه باعتبار ان النظر عملية اكتشاف للقوانين والنواميس التي تحكم العالم والتاريخ والحياة والمجتمع، فلابد من آليّة لهذه المهمة..

يبدو من خلال التدقيق ببعض الآيات الكريمة ان من جملة مجالات النظر في القرآن يتعلّق بجذر الاشياء وأسّها وقوانينها، ولعلّ هذا واضح عندما يطلب القرآن من الانسان ان ينظر، أي يتفحص القانون الوجودي الشامل (الملكوت) وتقليب الفكر في المادّة الانشائية. الاولى للانسان عبر تطوراتها المذهلة (الماء الدافق) وفي النواميس التي تسيّر التاريخ ﴿سنّة الاولين﴾ وفي دواعي هلاك الأمم والشعوب وكل الكيانات الضخمة ﴿عاقبة المجرمين، عاقبة المكذبين﴾، ومن كل هذا يمكننا ان نستنتج ان النظر في القرآن عملية عقلية جريئة، تتناول عمق الاشياء وتجول في أجوائها الرحبة الواسعة، اي دقة في التفكير، أو تفكير على مستوى عال سواء في مجال جريانه وحصوله أو مجال مادّته وموضوعه. ومن الطبيعي ان النظر بهذا المستوى من الكيفية والموضوعات يحتاج الى تصورات وتصديقات ومعارف سابقة. وربما كانت كلمة (سيروا) اشارة الى كل ذلك بشكل

رمزي وفني رائع، لان السير عقلا أو حسّاً يشير الى جمع واختيار وانتخاب معارف لهدف علمي اسمى. قال تعالى: ﴿قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾.

ان اكتشاف كيفيّة نشوء الخلق ليست عملية سهلة أو يسيرة، وتستوجب معلومات سابقة مفصلة والفعل (سيروا) هنا يستوعب هذه المقدمات.

تأسيساً على ما سبق مع ملاحظة موضوعات النظر، خاصّة فيما يتعلق بأُس الأشياء وجذرها، أي أصلها التكويني وصيرورتها، يمكننا ان نقر التعريف الذي يعطي للنظر صفة أو مُهمّة أو دور (البحث). فهو اوسع من القياس ولا يقتصر على المعقولات الصرفة كما يرى بعضهم، ويحتاج الى الملاحظة التجريبيّة في بعض الاحيان بل في كثير من الاحيان.

هذا التصور القرآني لمعنى النظر يقترب من النسق اللغوي وان كان يزيد عليه حيويّة وحركة، فقد قال ابو هلال العسكري (النظر معرفته ـ الشيء ـ من جهته ومن جهة غيره... وحدّ النظر طلب ادراك الشيء من جهة البصر أو الفكر ويُحتاج في ادراك المعنى الى الامرين جميعاً... واصل النظر المقابلة، فالنظر بالبصر الاقبال نحو المبصر، والنظر بالقلب الاقبال بالفكر نحو المفكر فيه... والنظر في الكتاب بالعين والفكر هو الاقبال نحوه بهما..).

وبالاستفادة من هذه الاشارة اللغويّة، فان النظر احياناً يشكل عمليّة (حسيّة ـ عقليّة) في آن واحد، فالانسان قد يرى بعينه ويسمع بأذنه ويلمس بيده ... وهذا نظر حسّي، ثم يتوفر على هذه المعلومات المحسوسة

ليقلب الفكر فيها.. ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿فلينظر الانسان الى طعامه...﴾.

ان الآيات التي تطالب الانسان بالنظر في المفردات الكونية، كالسماء والارض والزرع واعضاء الانسان... هذه الآيات التي من هذا النوع، يأتي فيها النظر وهو يحمل هذا الاستقطاب المزدوج أو هذا الزوج من الادراك (حس + عقل)، كما ان الآيات التي توجّه النظر الى التجربة التاريخية تكون مسبوقة بكلمة (سيروا)، وقد مرّت علينا شواهد كثيرة في القرآن في هذا الصدد. هناك (١٣) موقعاً في القرآن الكريم يسبق (السير) فيها (النظر)، (١٢) موقعاً منها يتناول المسألة أو التجربة التاريخية وهناك آية واحدة فقط تدور حول النظر الكوني وقد سبقت بالفعل (سيروا) وهي قوله تعالى: ﴿قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾.

وهنا ملاحظة مهمّة... انّ للتاريخ دوراً أو بالاحرى موقعاً جذريّاً وبنائياً حتى في هذه الآية، بدلالة الفعل (بدأ)، انها تجربة الخلق، أي تاريخ الخلق، لان اطار النظر مصبوب على التكوّن والتشكّل بالنسبة للمفردة الكونية.

من عرض الآيات السابقة نفهم ان النظر هو (البحث)، ولذا نجد اللغوي المعروف علي بن عيسى يقول (النظر: هو الفكر والتأمل لأحوال الاشياء)، وهو ليس تلك العمليّة الحسيّة الساذجة فحسب، وبمقارنة سريعة مع التعقل والتفكر، نجد انه أرقى منهما كطريق لتحصيل المعارف، كما انه يتناول موضوعات اكثر خطورة واهميّة، فان النظر يستوجب احاطة سابقة أثرى وأوسع وأعمق. فهو نظر، حيث توحي الدلالة اللغوية بسمة الانكشاف، اذ لابد من مراعاة المناسبة بين اللفظ والمعنى في مثل هذه

الاحوال، ولذا يكون طريقه الى اصابة الحقيقة اكثر احتمالا من طريق التعقل أو التفكر.

ان النظر مثل التعقل والتفكر، ليس معرفة ولا درجة من درجاتها، بل عمليّة حسيّة / عقلية - في اغلب الاحيان - حسب ورودها في القرآن - لتحصيل المعرفة على مستوى واف من امكان الاصابة، وسيكون من الرائع جدا تصنيف هذه العمليات على اساس الأدوات والمواضيع والنتائج.

٥ - يرون:

رأى: أصلٌ يدل على نظر وابصار. وهو على ضروب واحوال كما ذكر علماء اللغة والادب والتفسير.

* الرؤية بالعين ﴿فقالوا أرنا الله جهرة...﴾. والرؤية بهذا القياس وسيلة معرفة اولى، حسيّة، شأنها كالسمع والشم والذوق حيث الحواس اداتها وآلتها.

* الرؤية بالوهم والتخيل ﴿فلما رآها تهتزُّ كأنها جان...﴾، ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾.

* الرؤية بالتعقل ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾.

* الرؤية بالشهود الروحي ﴿ربِّ أرني أنظر اليك﴾

* الرؤية بالنوم ﴿أني أرى في المنام أني اذبحك﴾.

يقولون: ان الفعل (رأى) اذا عُدّي الى مفعولين اقتضى معنى (العلم) ومن ثم الادراك بالعقل. ومهما قيل في هذه التقسيمات فان موضوع حوليّات العقل والعلم في القرآن الكريم يستدعي الاهتمام بهذا المعنى الذي

يتصل بطرق المعرفة والتفكير وتحصيل العلم، ولا علاقة لذلك بالشهود الروحي والرؤية في المنام.

ما هو موضوع الرؤية؟

انه موضوع واسع يشمل كل مفردات الكون، وللاختصار، نذكر أهمها مع شاهد واحد:

أولاً: في قضايا الامم والشعوب ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾.

ثانياً: في الارض وعجائبها وآياتها ﴿أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها﴾.؟

ثالثاً: في النبات وحركته ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز﴾.

رابعاً: الطيور وحركتها وحياتها ﴿أولم يروا الى الطير مسخّرات في جو السماء ما يمسكهن الاّ الله﴾.

خامساً: الليل والنهار وعوائدهما ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مُبصرا﴾.

سادساً: حركة الخلق وتاريخها ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده﴾.

سابعاً: تكوّن الامطار وآثارها ﴿ألم ترَ ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما﴾.

ثامناً: تاريخ الكون الاول ﴿اولم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حي﴾.

تاسعاً: حركة الفلك في البحار ﴿ألم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته﴾.

عاشراً: كل الوجود... ﴿أولم يروا الى ما خلق الله من شيء...﴾. وكتطبيق لهذه الآية الكريمة...

قال تعالى: ﴿وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت...﴾. وقال تعالى: ﴿أولم يرَ الانسان أنّا خلقناه من نطفة...﴾. وقال تعالى: ﴿ألم ترَ ان الله انزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض﴾. وقال تعالى: ﴿ألم تر ان الله انزل من السماء ماءً فتصبح الارض مخضرّة﴾.

انها العلاقات المتشابهة بين الماء والارض، الليل والنهار، اصل الانسان وتطوره... هذا هو مدخل أو مدخول خطاب الرؤية في القرآن.

ان الاحاطة بمدلول الرؤية بلحاظ الآيات السابقة يستوجب التدقيق بمدخول ﴿ألم ترَ، ألم يروا، وترى...﴾ وغيرها من هذه الصيغ الاستهلاليّة.

فلو دققنا النظر في مدخول هذه الصيغ لوجدناها مجموعة من الحقائق الكبيرة عن هذا الكون بكل ما يزخر به من الوان الحركة والنشاط والحيويّة، و(الرؤية) دعوة جادّة، هادفة، قاصده، الى تدبر هذه الحقائق - المدخول - لفهمها ووعيها واكتشاف قوانينها ومن ثم الظفر بحكمتها وغايتها التي تقود الى الايمان بالقوّة الخلاّقة!!.

ان كثرة استعمال هذه المادّة في القرآن واتساع وتنوّع الحقائق المذكورة بعدها، يُوحي بان القرآن يهدف الى تربية الانسان على هذا النوع من التفكير المستند الى التجربة والعقل، وان تكديس الشواهد وتجميع مفردات عديدة من موحيات الحس والتجربة مسألة ضروريّة لأي بناء معرفي يتسم بالقوه والمتانة والرصانة والاتقان.

الانسان بعد ممارسة الرؤية كطريق للمعرفة قد يصل الى نتيجة، فهذه النتيجة تُسمّى (رؤية) أيضاً، وهي المعرفة المتيقنة عند صاحبها وليس من ريب في ان ممارسة الرؤية بدقة وحسب شروط العلم وتحصيله الصحيحة ربما توصل الى نتيجة صادقة، وهو اليقين.

في الحقيقة انّ مما يعطي للرؤية هذا المدى الكبير من التفكر والتعقل ان تشتق منها (الرويّة)، وهي آخر النظر واشباع الرأي والاستقصاء في تأمله كما جاء في الفروق اللغويّة لابي هلال العسكري، ومن هنا كانت البديهة والتعقل والتفكر في خدمة الرويّة. ولعل مما يلفت الانتباه هنا، موضوع (الملكوت) وعلاقته بكل من النظر والرؤية...

لقد حث القرآن الانسانَ على ان ينظر بـ (الملكوت) وليس ان يرى!! فيما بالنسبة لابراهيم عليه السلام يقول تعالى ﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والارض...﴾ ذلك ان الرؤية في هذا الميدان تتطلب استعداداً ذهنيا حاداً ذكياً نشطاً، يستوجب اعلى درجات النشاط الذهني، سواء كانت الرؤية كطريق الى العلم أو هي علم. فان الرؤية هنا عقلية وليست حسيّة، أي يدرك ذلك الناموس الشامل الذي يحكم الوجود، وهو القانون الذي يريد علماء اليوم الوصول اليه. وفي الحقيقة ان مثل هذه الموضوعات الدقيقة هي من حق الرؤية مثل غيرها. قال تعالى: ﴿ألم ترَ ان الله يسبح له من في السماوات والارض﴾. ﴿ألم تر ان الله يسجد له من في السماوات ومن في الارض﴾؟

والآيات هنا مسوقة على نحو الاكتشاف وليس المعرفة الجاهزة، أي دعوة الى اكتشاف هذا السجود وهذا التسبيح، بدليل اننا في الوهلة الاولى لا

نعرف شيئاً عن السجود والتسبيح، وقد اختلف في ذلك اختلافا كبيراً، الامر الذي يؤكد ان الرؤية مسوقة هنا على نحو السبيل أو الطريق، وليس على نحو النتيجة المعروضة. ولذا قال بعضهم: ان (رأى) هنا تنصرف الى الرؤية العقليّة أي ذات الاستنتاج واستخراج المعارف الجديدة من المعارف المتوفرة. فالآية تطالبنا باكتشاف هذا السجود وباماطة اللثام عن قوانينه وكيفيته. فكأنما هناك دعوى والمطلوب الرهان عليها بعد الاحاطة بمضمونها واسرارها. وليس هو معرفة نهائيّة. بل هي قضيّة مطروحة للنظر والدراسة والبحث، ولذلك يتولد الاختلاف فيها وحولها ومنها... انها كقوله تعالى ﴿فاعلم أنه لا إله الاّ الله﴾ أي حصّل العلم في ذلك. وهكذا يتسع مجال أو موضوعات الرؤية لادق القضايا الكونيّة والايمانيّة، خاصة اذا قلنا ان سجود الكون لله كذلك تسبيحه يعبّران بشكل وآخر عن انضباط الكون القانوني، ومن ثم علاقة ذلك بالله عزّ وجل.

ان ممارسة هذا المنهج ـ أي الرؤية ـ بما ينطوي عليه من مثابرة في جمع المعلومات ومن جهد لتقليب النظر فيها ومن دقة في تعقلها وتدبرها قد يقرب الانسان من النتيجة وينقله الى تخومها، وفرصة الغنيمة بالصواب تكون اكثر وفرة في نطاق الرؤية من غيرها. ومن هنا انطوت على المعنى الذي يقارب المباشرة الحسيّة كما في النظر واشتقاقاته. وبامكاننا ان نلمس شيئاً من التصاف والتقارب بين الرؤية والنظر في بعض الموضوعات والخصائص والصفات، ولكن الرؤية تختص بفحص هذه العلاقة الروحيّة الخفية بين الكون وخالقه (السجود، التسبيح).

٦ ـ يبصرون:

البصر ـ كما هو معلوم ـ نشاط حاسّة البصر، وقد مر بنا الحديث عن هذا المعنى. وعلى اساسه يقولون: أبصرتُ الشيء: رأيته. ويأتي البصر بمعنى العلم، وعليه فان البصير هو العالم والتّبصُّر: التأمل والتعرّف.

يبصرون قد تأتي بمعنى تحصيل العلم، ولكن بالعقل والتفكر وتقليب جهاز التفكير في الشيء ومآله المترتب عليه هو العلم. فيكون على هذا الاساس طريقاً معرفياً، غايته كسب المعرفة الواضحة بالشيء أو الحالة أو الظاهرة وفي معجم مقاييس اللغة (بَصُرتُ بالشي اذا صرت به عالماً)، فوضوح الشيء هو جوهر البصر هنا. فهناك بصر بالحس ـ قد مرّ بيانه ـ وهناك بصربالعقل أي التأمل والتعرف كما يقول صاحب صحاح اللغة (الجوهري). ومن الواضح ان هذا الطريق المعرفي يتطلب الوقوف طويلا على الشي المراد استحصال العلم به.

قال تعالى: ﴿أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ أي على معرفة وتحقق ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي مضيئة للابصار.

واذا كان البصر كما يقول بعضهم (العلم القوي المضاهي لادراك الرؤية) فان (يبصرون) كطريق معرفي انما هي وسيلة لكسب العلم بالشيء أو الظاهرة على نحو البيان أو الاكتشاف على درجة راقية حيث قالوا: ان العلم بالشيء اذا كان جلياً فهو بصر. كما في الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري.

ومن موضوعاته في القرآن الكريم:

أولاً: الامور المعنوية من الخير والشر والحق والباطل والحسن والقبح، وفيه آيات كثيرة.

ثانياً: دلالة حركة الحياة وعلاقتها بالماء ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه انعامهم وانفسهم أفلا يبصرون﴾؟ وهناك علاقة معرفية قوية بين (يروا) و(يبصرون).

ثالثاً: والبصر طريق الى معرفة الله في داخل الذات ﴿وفي أنفسهم افلا يبصرون﴾.

رابعاً: حركة الليل والنهار ﴿يقلب الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار﴾وأولو الابصار اصحاب النظر الدقيق في الشيء أو الظاهرة أو الحالة...

طالما يحث القرآن الكريم على التبصر في الاشياء ـ أي التأمل واطالة النظر ـ وهو كطريق معرفي يتاخم ويقترب من الرؤية والنظر.

على ضوء المقتربات والمؤثرات السابقة، نستطيع ان نضع تصوراً أولياً أو خارطة مقترحة لمفردات الموضوع.

الحس

وهو بداية العلم. وأداته الحواس والقرآن قد يشير اليها باسمائها أحياناً (العين، الاذن) أو بمجمل نشاطها وهي متفاعلة متداخلة (سيروا) أو بعملها الذي تميز به كوظيفة عضويّة مشخّصة (السمع، البصر...).

التفكر

وهو ترتيب امور معلومة لغاية تهدف تحصيل مجهول، ومما لا ريب

فيه ان هذا الطريق ارقى من سابقه، بل ان الحسّ مقدمة ضروريّة له، تشمل موضوعاته مسائل الاخلاق والمجتمع وتنوع النبات وعالم الزوجيّة الكونية وقيام الوجود بالحق، اي وفق قوانين مضبوطة وتكيّف الوجود لصالح الانسان.

التعقل

يقترب التعقل من التفكر، ولكنه أرقى منه طريقاً لكسب المعرفة ولعل اقترانه اللغوي ضمن دائرة كلمة (العقل) يشير الى هذا، باعتبار ان العقل يطلق على جهاز التفكير لدى الانسان الذي يشكل فصله وحدّه الحقيقي، يشترك مع التفكر بمواد نشاطه ولكنه يغلب استعماله بموضوعة معرفية مهمّة ألا وهي (إحياء الارض بعد موتها)، اما قوله تعالى: ﴿والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾، فان يسمعون قد تعني يعقلون بدلالات قرآنية اخرى ﴿لو كنا نسمع أو نعقل﴾ وقد تعني يفهمون، والفهم مستوى من مستويات المعرفة وليس طريقاً الى المعرفة.

النظر

تقليب العقل في أحوال الاشياء لغرض الظفر المعرفي ببعض خصائصها وآثارها وعلاقاتها، وهو اعمق من التفكر والتعقل، يشترك معها في الكثير من الموضوعات. قال في فروق اللغة (النظر... هو الفكر والتأمل لأحوال الاشياء، الا ترى ان الناظر على هذا الوجه لابد ان يكون مفكراً، والمفكر على هذا الوجه يسمّى ناظراً؟) فالنظر تفكر عميق، وقد انيطت به مطالب

معرفية راقية، فاضافة الى صلاحيته في نطاق المفـردات الكونيـة (السـماء، الارض ، الجبال، الجمال ...) وحركة الحياة النباتيّة. فانه يغلـب اسـتعماله اكثر من غيره في موضوع (سنن التاريخ)، فضلا عن ذلك انه طريق معـرفي لتقليب الفكر في جذور الاشياء وشروطها، ومن ثم ناموس الوجود الشامل (الملكوت)، وربما سُمّي بـ (النظر) لان عمقه ودقته تقود الباحث أو الناظر الى النتيجة على درجة كبيرة من الثقة والاطمئنان، حيث كأنه يراها بعينـه. فأنت عندما تنظر شيئاً يكون يقينك به أكبر من ان تتفكّره أو تتعقّله.

الرؤية

انها اشباع الرأي والاستقصاء في تأمل الاشياء، بل هي آخـر النظـر، أو هي في جوهرها نظر عميق جداً. هـذا لغـة كمـا في (الفـروق اللغويّـة)، وفي القرآن الكريم طريق معرفي دقيق يقـوم علـى البديـهيات وذخـائر الحـس والتجارب والعقل، وهو أرقى من النظر بطبيعة الحال بل هو قمته وسـناه، وكل الوجود يشكل موضوعاً للرؤية، ولكنه يكاد ينفـرد بفحـص العلاقـة الروحيّة الجذريّة بين الكون وخالقه (سجود الكون وتسبيحه).

هذه هي اهم طرق المعرفة في القرآن الكريم (الحس ـ التفكر ـ التعقـل ـ النظر ـ الرؤية) والحس يعتبر بداية ضرورية للجميع، وبامكاننا ان نـوزع هذه الطرق باستثناء الحس .

التبصّر

اطالة النظر في الاشياء والظواهر، وهو قريب من النظر والرؤية، إلاّ انـه في النتيجة علم قوي، يتسم بالتحديد والوضوح.

هذه اهم طرق تحصيل المعرفة في القرآن الكريم (الحس ـ التفكر ـ التعقل ـ التبصّر ـ النظر ـ الرؤية) والحس يعتبر بداية ضروريّة للجميع، وبامكاننا ان نوزع هذه الطرق وفق الصورة التالية:

الاولى: الحس باعتباره رأسمال العلم في البداية.

الثانية: (التعقل ـ التفكر).

الثالثة: (التبصر ـ النظر ـ الرؤية).

وفي هذا التقسيم نلاحظ التقارب والتصاف. فالتفكر والتعقل متقاربان، كذلك التبصر والنظر والرؤية، ولعلّ اللغة تساعد على مثل هذا الاستنتاج.

ان كل طريق معرفي مما سبق يؤدي الى علم مطابق في قوّته وشدّته ومستواه مع عمق الطريق ودقته وسعته، ومدى صلاحيته في استحصال المعرفة أو العلم. فالنتيجة من العلم التي يؤول اليها التفكر ليست بالمستوى الكمي والكيفي التي يؤول اليها التعقل مثلا، كذلك التبصّر والنظر والرؤية، وفيه الحقيقة تحتاج الى ضابط علمي مستقى من القرآن يحدد درجة العلم من خلال الطريق اليه، فما هي خصائص الصورة العلميّة التي تتطابق مع التفكر أو النظر مثلا؟! الذي لا ريب فيه وجود قدر مشترك سار في الجميع، الا وهو العلم، فالنتيجة الحاصلة من التفكر والتعقل والتبصّر والنظر والرؤية انما هي علم، ولكن ما هي مميزات علم عن آخر بلحاظ هذه الطرق المتعدّدة اليه... ام أنه علم واحد وانما الاختلاف في الاساليب؟! هذا غير صحيح واللغة لا تساعد عليه، اذ مرّ علينا ان الناظر لابد ان يكون مفكراً والرؤية آخر النظر. والتبصر علم قوي يتاخم ادراك الرؤية... وفي الحقيقة ان النتيجة العلميّة من حيث عمقها ووضوحها تتوقف على عوامل كثيرة منها:

١ ـ كمية المعلومات والشواهد المستعملة كمادّة اوليّة للوصول الى النتائج.

٢ ـ سعة وطبيعة الموضوعات المتناولة.

٣ ـ القدرة او سعة الطاقة العقلية المبذولة.

٤ ـ الدقة في تطبيق اصول النظر العلمي.

وهناك عوامل اخرى، وسيكون من المفيد جداً استيعاب هذه العوامل في مساعدتنا على وضع مقياس علمي لما نحن فيه... أي لطرح ضابط علمي لكل طريق من الطرق القرآنية لتحصيل المعرفة وطبيعة أو خصائص الصورة العلمية المتأتيّة من استخدامها.

الذي لا ريب فيه أن (التفكر والتعقل والتبصّر والنظر والرؤية) تؤكد على ان الانسان مُزوّد بجهاز مفكّر. هذا الجهاز هو العقل، وانه يتمتع بقابلية فذة على اكتشاف الحقائق الكونيّة، وانه لقدير على الموازنة بين الاحكام والظواهر. يمكنه ان يحلّل ويركب الحقائق... العقل في القرآن اذن قوّة دراكة يمكنها ان تجول في ظواهر الحياة والتاريخ والكون والمجتمع والاعتبارات... وهنا مفارقة مهمة...

العقل في معاجم اللغة العربية يحمل صفة الكبح والالجام!! يحمل صفة الامساك والحبس. فيما في القرآن الكريم العقل يقتحم الاسرار، يتابع المجمل كي يفصله، وينفذ الى الغامض كي يوضحه، ويجمع المعلومات كي يصل الى نتيجة مترتبة. فهو سياحة فكريّة علميّة معرفيّة، وليس وقوفاً عند حد مُعين، مهمته الاضطلاع بتحصيل المعرفة في كل ميدان من ميادين

الوجود وليس مهمته الردع والزجر فحسب وذلك في مجال الاخلاق والاعراف والقيم... العقل في القرآن يتجاوز الظواهر والجاهز من المعرفة... من أجل معرفة السبَب والغاية...

ان تطبيق معنى العقل في اللغة على معناه أو حقيقته في القرآن ليس اسلوباً سليماً، لان للقرآن رؤيته الخاصة عن العقل التي تتخطى حدود الاستعمال المعجمي البحت. وهذا الخطأ وقع فيه كثير من الباحثين المعاصرين، منهم محمّد عابد الجابري.

قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يُتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مُسمّى ولعلكم تعقلون﴾.

﴿قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾. ﴿وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾. ﴿وهو الذي مدّ الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

والنقطة المهمة التي نريد الاشارة إليها ان الآيات التي تنتهي بـ (يعقلون، يتفكرون، يبصرون...) أو التي تستهل بالنظر والرؤية انما تدعو الى استعمال العقل في وعي أسرار الظواهر والاحداث المذكورة في الآية وليس المسألة هي التأمل الوصفي الظاهري الساذج. بل النفاذ الى الجنبة القانونيّة النظميّة لهذه الظواهر والاشياء والعلاقات، أي الى البنية الاساسيّة لهذه الحقائق.

قال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من من كل دابّة وتصريف الرياح والسّحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾.

فالتركيز على الاطراد والتناسق والعلاقات ليس من وظائف العقل القيمي والوجداني، وانما من وظائف العقل المدرك النافذ، ولا ينسجم ابداً مع معنى العقل الذي يعني في اللغة: الامساك والامر والنهي. نعم هناك آيات في القرآن تشير الى هذه المعاني، أي في حدود الالتزام القيمي والامساك عند حالات معينة، ولكن العقل في القرآن على انماط مختلفة من الاستعمال، فكما ان هناك العقل الوازع والمرشد، هناك العقل المدرك الذي يتعامل مع الاشياء لاكتشاف قوانينها الكونية الضابطة.

[٢]
من مستويات المعرفة في القرآن

١ ـ الدراية ـ الادراك:

تشكل هذه المصفوفة ارقى مستويات العلم، فالدراية على ما في كتاب (الفروق اللغوية) تشتمل على المعلوم «من جميع وجوهه» والادراك تناول الشيء في أقصى خصائصه ومعطياته، أو من الملاحظ ان هناك بعض التقارب بين الدراية والادراك.

الدراية من بعض استعمالاتها تفيد المعرفة من دون مقدمات مبذولة في سبيلها او الطريق اليها ليس باعمال العقل أو التجربة اساساً، وانما هي معرفة جاهزة تقدم للانسان ـ بشكل من الاشكال ومن هنا تختلف وتفترق عن العلم بمعناه الطبيعي والمعروف. امّا الادراك فهو في التحليل الاخير احاطة تفيد حدّ النهاية بالشيء!! سواء الاحاطة بشيء مادي أو معنوي، ولا اعتقد ان الحد هنا مكاني أو زماني وان كان بعض الاستخدام يفيد مثل هذا التصور ولكن في غير مجال العلم. وانما الحد هنا يتصل بأفق ماهوي حقيقي...

قال تعالى: ﴿وما ادراك ما سجين، كتاب مرقوم﴾. ﴿ليلة القدر، وما ادراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من الف شهر﴾. ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾. ﴿لا تدرون أيهم اقرب لكم نفعاً﴾.

ومن هذه الشواهد القرآنية وغيرها نفهم ان موضوع الدراية على نوعين:

الاول: طي الغيب المستور لا يعلمه الا الله تبارك وتعالى.

الثاني: يكون في متناول العلم الانساني بعد ان يكشف عن مستوره الله تعالى حيث التوضيح والبيان الذي يعقب «ما ادراك». وعليه فان موضوع الدراية ليس في نطاق المجال المعرفي الطبيعي بالنسبة للانسان.

قلنا: ان الادراك مستوى معرفي يتعلق بحقائق الاشياء الجوهرية (حدّ الاشياء)، ولكن هذا النوع من المعرفة عصي على الانسان.

قال تعالى: ﴿وما اوتيتم من العلم الاّ قليلا﴾.

قال تعالى: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾.

اذن الدراية علم غير ممكن واذا اكتُسب فليس وفق قانون الكسب العلمي الطبيعي المنطقي، والادراك أي اصابة حدّ الشيء (حقيقة) أو حتى خصائصه على نحو مطلق وانكشاف تام، هو الآخر أمر عصي على الانسان.

وهنا نقطة مهمة، وهي ان القرآن الكريم لم يطالب الانسان تحصيل معرفة على مستوى الدراية أو الادراك في مجال الطبيعة أو الحياة أو التاريخ أو المجتمع!! وبهذا نكتشف بكل وضوح تطابق وانسجام الفكر القرآني.

٢ ـ الفهم ـ الفقه:

لم ترد كلمة (الفهم) في القرآن الا مرّة واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿ففهّمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾.

الفهم اساساً هو (العلم بمعاني الكلام عند سماعه خاصّة).اما الفقه فقد

ورد استعماله في القرآن اكثر من (١٥) مرّة على صيغة فعل، قال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين﴾. ﴿قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون﴾. ﴿لا يكادون يفقهون قولا﴾.

الفقه كما في الفروق اللغوية (العلم بمقتضى الكلام على تأمّله)، وهو بذلك زيادة على الفهم، وقد أشار الطباطبائي لكل من الفهم والفقه بما يلي:

الفهم، نوع انفعال للذهن عن الخارج عنه بانتقاش الصورة فيه.

الفقه: التثبت في هذه الصورة المنتقشة في الذهن والاستقرار في التصديق.

وعلى هذا يكون الفقه بعد الفهم... على أننا لو رجعنا الى القرآن الكريم لوجدنا ان مجال الفقه لا ينحصر في معاني الكلام كما هو في القاموس، بل اكثر واعمق.

المستوى الاول: فهم كلام المخاطب وغرضه من الكلام المذكور كما في قوله تعالى ﴿واحلل عقدةً من لساني، يفقهوا قولي﴾.

المستوى الثاني: العلم بأحكام الشريعة على الخصوص، أي الشريعة الاسلامية: يقال: فقه الرجل فقاهة اذا صار فقيهاً. وفقه أي فهم فقهاً وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ليتفقّهوا في الدين﴾. والفقه بهذا الميدان لا يخرج عن المصداق اللغوي.

المستوى الثالث: فهم واستيعاب ووعي الدلالات الكونيّة. وهذا خارج نطاق القاموس، وذلك كما في قوله تعالى ﴿هو الذي انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾.

ومما نلاحظه هنا ان القرآن الكريم يورد (يفقهون) في سياق منظومة

من المعاني المهمّة من خلالها يمكن ان نكتشف بعض خصائص هذا الاستعمال على الصعيد المعرفي. قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون﴾. ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصّلنا الآيات لقوم «يفقهون»﴾. ﴿وهو الذي انزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مُشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ .

فالقرآن في هذه الآيات يورد (يفقهون) وسط حشد من الظواهر الكونية، مما يشير الى انّ من مقاصد هذه الكلمة في الكتاب العزيز وعي هذه الظواهر واكتشاف دلالاتها الكبيرة من الحكمة والتدبير والاتساق.

اداة التفقه هو (العقل). قال تعالى: ﴿وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾. ﴿صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون﴾.

وهو ـ الفقه / التفقه ـ قد يزيد وينقص وينعدم. قال تعالى: ﴿بل كانوا لا يفقهون الاّ قليلا﴾. ﴿لا يكادون يفقهون قولا﴾. ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾.

ومما سبق يمكننا ان نطرح الصورة التالية عن (الفقه) في القرآن على الصعيد المعرفي:

اولاً: ان الفقه درجة متقدمة من العلم يتميز بالفهم والاستيعاب لانّ جوهره التثبّت والتعمق لما حصل عليه الانسان من معرفة. فهو فهم راق واستيعاب ممكن من الظاهرة أو الشيء أو المعنى... انه معرفة معمقة راسخة.

ثانياً: الفقه ذو موضوعات متعدّدة في القرآن:

١ ـ الكلام العادي ﴿يفقهوا قولي﴾.

٢ ـ احكام الدين وقواعده ﴿ليتفقهوا في الدين﴾.

٣ ـ مظاهر الكون والحياة ﴿هو الذي انشأكم من نفس واحدة...﴾ حيث يستوجب الاطلاع عليها وعلى ما عندها من اسرار الخلقة مضافاً الى البحث النظري... تعمقاً شديداً وتثبتاً وارجح الآراء في الآية هو خلق البشر من آدم او كما يقول صاحب الميزان انتهاء الذريّة الانسانية على كثرتها وانتشارها الى آدم.

ثالثاً: ان الفقه، أي الوعي المعمّق بالكون والحياة ومعاني الكلام ممكن وهو ذو درجات، وقد ينعدم.

رابعاً: ان الفقه بعد الفهم، اذ هو ترسيخ وتعميق له.

خامساً: ان العقل اداة الفقه.

٣ ـ الحس ـ الشعور:

تشير المعاجم اللغوية الى ان الحسّ هو الادراك بأحد الحواس الخمسة، فقد كان أصل الاحساس الابصار، ثم استعمل في الوجدان والعلم باي حاسّة كانت، ولذلك يقولون: حواسّ الانسان: مشاعره الخمس، والاحساس بشيء كالإحاطة به، وحسست: علمت وفهمت، ولكن لا يقال ذلك الا فيما كان من جهة الحاسّة. قال تعالى: ﴿هل تحسّ منهم من أحد﴾ أي هل تجدُ بحاسّتك أحداً منهم. ﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفر﴾، أي انه ظهر منهم الكفر ظهوراً، بان للحس، والحس بداية العلم، ويكون بواسطة الحاسّة.

امّا الشعور، ففي الأصل اسم للعلم الدقيق ثم انتقل للموزون المقفّى، وفي نص صاحب الفروق (... علم يُوصَل اليه من وجه دقيق) ولهذا يطلق على الادراك الدقيق، فهو على هذا الأساس مستوى من العلم، مستوى يتم بالدقة، ينطوي على البيان والوضوح وربما شيء من التفصيل حتى تتم صفة (الدقيق)، ولا تكفي الصورة المجملة المبهمة. قال تعالى: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾. ﴿ان حسابهم إلاّ على ربي لو تشعرون﴾.

ففي الآية الاولى يجرّد القرآن الكريم العقليّة المزدوجة من قدرة التشخيص الدقيق، وعلى وزانه قوله تعالى ﴿وما يمكرون الاّ بأنفسهم وما يشعرون﴾. وقوله تعالى: ﴿ومايضلون الاّ أنفسهم وما يشعرون﴾. وفي الآية الثانية تشترط القدرة على العلم الدقيق في ادراك حقيقة معينة أمضاها اولا وهي قوله تعالى: ﴿إنّ حسابهم إلاّ على ربي﴾.

اذن الحس: علم اوّلي، بداية العلم.

اما الشعور: فهو علم دقيق يتسم بالوضوح والتفصيل في المعلوم.

٤ ـ البصيرة ـ الرؤية:

تأتي البصيرة كعلم قوي، ولا أفهم من هذا التعبير الاّ مستوى راقياً من المعرفة متأتياً عن ادراك دقيق وبرهان ساطع ـ وفي بعض المعاجم ان البصيرة هي البرهان، ولذلك يتصف علم كهذا بالوضوح والجلاء والثبوت والتحقيق ﴿ادعو الى الله على بصيرة﴾. ويتصل بكل ذلك (البصر) الذي هو العلم بالشيء على نحو جلي والرؤية هي علم راق يتأتى بعد الفحص النظر والتدبر، ومن المعلوم ان هذا المستوى من المعرفة يحتاج الى الفهم

للزائد ثم الى استقراره في الذهن بعد ان يتأكد بمؤونة متقادمة من النظر والمراجعة.

٥ ـ اليقين:

اليقين كما يستفاد من معاجم اللغة واسفارها مستوى عال من العلم، يَصحبه سكون النفس واطمئنانها، قوامُه الحكم الذي لا يتزعزع، فهو حضور في الذهن لا يقبل الوهن أو الزوال، صفته العلم، أو هو علم ذو خصائص فريدة تفيد التطابق مع الواقع وهو يقابل الظن والوهم والتخمين. قال تعالى: **﴿ان نظنُّ الاّ ظنا وما نحن بمستيقنين﴾**.**﴿كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾**. **﴿وفي الارض آيات للموقنين﴾**.

اذن اليقين هو العلم أو الاعتقاد العلمي الذي تجاوز الشك والظن والتصديق واستقر في الذهن حقيقة مؤكدة موثوقة لا تتزعزع. ويبدو ان هذه الدرجة من العلم تحصل بتفعيل العقل واطلاقه. على ان هذه المرتبة من العلم هي الاخرى قابلة للتطور والترقي، ولذلك قالوا وبالاستفادة من القرآن ذاته ان هناك (علم اليقين، عين اليقين، حق اليقين). والاول هو المعرفة المستقرّة في الذهن بقوّة الدليل وبسبب رصانة البرهان القائم عليها. فيما الثاني هو المعرفة الحاصلة عن مشاهدة وعيان، والثالث هو المعرفة المسببة عن العلم والمشاهدة.

قال تعالى: **﴿كلا لو تعلمون علم اليقين، لترونّ الجحيم، ثم لترونها عين اليقين﴾**، **﴿وانه لحق اليقين﴾**.

يبدو لي ان سكون النفس المصاحب لهذا اليقين تعبير عن وضوح الرؤية

وليس هو حالة نفسيّة شعوريّة كالرضا والفرح والحزن والسرور، أي ان السكون هنا يجسّد أفقاً معرفياً ومستوى علمياً ينطوي على وضوح شديد.

هذا (اليقين) قد لا يملك السيطرة الذاتية على الانسان، اي ليس له صلاحيّة الضغط على حامله بغية الاعلان عنه. قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾.

فالانسان حسب المعادلات الفكريّة والسير العلمي قد يصل الى النتيجة ويشخص بدقة هذه القضيّة أو تلك. ولكن لغاية ما قد يُخفي هذا المحصول، وهذا هو الجحود أو الانكار، انه ظاهري، لا يمتلك أي جذر حقيقي بل الحقيقة هي العكس تماماً.

٦ ـ الظن:

وردت كلمة (الظن) وبعض اشتقاقاتها اكثر من خمس وعشرين مرّة. و لها اكثر من استعمال:

١ ـ فهي قد تعني اليقين كما في قوله تعالى: ﴿وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها﴾، ﴿الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم﴾، ﴿وظنّ انه الفراق﴾. وهي بهذا تعني درجة عالية من التصديق.

٢ ـ والظن قد يحصل عن امارة ولكنها لا تفيد العلم، ولذلك اصبح أحياناً مورد ذم ونهي كما في قوله تعالى ﴿إن يتبعون الاّ الظن﴾، ﴿ان نظن الاّ ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ ﴿ما لهم به من علم الاّ اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾. وعلى هذا الاساس جاء الذم والنهي ﴿ان يتبعون الاّ الظن وان هم الاّ يخرصون﴾، ﴿وما يتبع اكثرهم الاّ ظناً إنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئا﴾.

٧ ـ الخبر:

من الكلمات التي لها صلة بالعلم وحوليّاته في القرآن الكريم، هي (الخبر)، فقد ورد باشتقاقاته المتعدّدة (٥٢) مرّة، والخبر اساساً في اللغة هو (العلم)، وخبرتُ هذا الامر علمته، والخبير هو العالم، ويقول ابو الهلال العسكري: إن الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها. فقولك: خبرتُ الشيء اذا عرفت حقيقة أمره.

ان التدقيق بالمادّة المذكورة ينبئ بأن الخبر طريق الى العلم، ثم يتحول الى علم، ولذا تقول: أخبرتُ أي اعلمتُ بما حصل لي من الخبر.. ولكن الخبر يحملُ علماً صحيحاً وبهذا يختلف عن النبأ، اذ لا يشترط ان يكون مطابقاً للواقع.

قال تعالى: ﴿اذ قال موسى لأهله اني آنستُ ناراً سآتيكم منها بخبر﴾. ﴿يومئذ تحدث أخبارها، بان ربك اوحى لها﴾. والخبير اسم من اسماء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿والله بما تعملون خبير﴾، ﴿وهو الحكيم الخبير﴾، ﴿وهو اللطيف الخبير﴾، ﴿ان الله عليم خبير﴾، ﴿ان الله بعباده لخبير بصير﴾.

من الآيات السابقة يمكننا ان نفهم ان (الخبير) جامع لانواع المعارف العالية كالعلم والحكمة ولكن الخبير دون البصير. كما أن العلم وضوح والحكمة وعي واللطف نفاذ، وكلها خبر عن شيء أو حدث، فيما البصر انكشاف ورؤية.

ان الكلمات التي تدور حول العلم في القرآن الكريم بينها علاقة جدليّة

حيّة، نحاول هنا ان نكشف عن بعض خطوطهاالعريضة.

* النظر يستوجب التفكر.

* الرؤية آخر النظر.

* التعقل مرحلة وسطى بين التفكر والنظر.

* التعقل يتطلب مستوى من العلم ﴿وما يعقلها الاّ العالمون﴾ ولـذا فـهو شرط في كل طريق معرفي ارقى كالنظر والبصر والرؤية...

* الرؤية الصميمة كطريق معرفي تؤول الى اليقين ﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السـماوات والأرض وليكـون مـن الموقنـين﴾. ﴿ثـم لترونـها عـين اليقين﴾. والرؤية الاولى عقلية فيما الثانية حسيّة بحتة. ﴿سنريهم آياتنـا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق﴾.

* الخبر كعلم يحمل على الحكمة والعلم (عليم خبير، حكيم خبير).

* البصر ذو الصبغة العقليّة أرقـى مـن الخـبر ﴿إن الله بعبـاده لخبـير بصير﴾.

* البصر والرؤية يندمجان ببعضهما في الفعاليّة المعرفية ﴿أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وانفسـهم أفلا يبصرون﴾؟

* والنظر مسبوق بالسير الحسي والعقلي، كذلك الرؤية والبصيرة.

* الفقه مسبوق بالفهم.

[٣]
أولو الألباب وأولو الأبصار

يشير القرآن الكريم الى انّ هناك نفراً من الناس على مستويات نابهة من العقل والفكر والنظر في التعامل مع الكون والحياة والتاريخ، يتميزون بقدر جيّد وفائق على تشخيص الواقع ويتمتعون بمهارة متقدمة على التقاط الرقم الموثوق في تضاعيف الوجود وقد أطلق عليهم القرآن عنوان ﴿اولو الالباب﴾. قال تعالى: ﴿ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾. وقال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾.

واللب هو العقل الخالص، لان لباب الشيء خالصه، وهو كناية دقيقة عن العقل الذكي النزيه النابه في التعامل مع الحياة والكون والتاريخ. وكثيراً ما يصف القرآن اولي الالباب على وزان أنّهم ﴿يوفون بالعهد ولا ينقضون ويصلون، ويخشون ويخافون... ويدرؤن﴾ . ومن هنا قد يكتسب معنى ﴿اولو الالباب﴾ صفة العقل الأخلاقي في بعض الأحيان. وهم قطعاً اصحاب هداية أولى فيتولى الله تعالى: مزيداً من هدايتهم ﴿اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب﴾. اذن اولو الالباب اصحاب هداية أولى، توصلوا اليها بعد ان اعملوا عقولهم بطريقة صحيحة في خلق هذا الوجود وآياته المنبثة في الكون، فكل ذلك آيات بالنسبة لأولي الألباب، تؤدي دورها بسبب وضوحها من جهة وبسبب نزاهة التفكير ودقته ونباهته التي يتميز بها هذا الفريق من الناس، وهم يتذكرون، أي راجعون الى آيات الله ويعونها

بقصدها ودلالتها ومعانيها. قال تعالى: ﴿انما يتذكّر اولو الالباب﴾. وقال تعالى: ﴿وما يذكّر الاّ اولو الالباب﴾. اذن ﴿اولو الالباب﴾ مصطلح قرآني يجمع بين العقل الكوني والعقل الأخلاقي، أي العقل الذي يستطيع ان يستنطق الآيات الكونية والحياتية والتاريخية في دلالتها على وجود الله ووحدانيته وصفاته، كما انه عقل ملتزم اخلاقياً، عقل مسؤول، حيث ان ذلك ثمرة الاستنطاق الصحيح ومن هنا يعقد القرآن علاقة قويّة بين الحكمة وذوي الألباب. قال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً وما يذّكر الاّ أولو الالباب﴾.

وبناءً على ما تقدم، وبلحاظ هذه الخصائص التي يمتاز بها ﴿أولو الالباب﴾كانوا أهلا للعبرة والموعظة والاشارة والتنبيه، لان أذهانهم متوقدة ومتهيئة للاستماع الواعي الذكي. قال تعالى: ﴿عبرة لأولي الالباب﴾.

ومن خصائص هذا النفر من الناس ادراك ما يمكن أو يعتبر مفارقة أو تناقضاً لدى البعض. قال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾.

ان النظرة الساذجة أو العقل غير الثاقب يحسب القصاص لوناً من الوان العدم، عدم الحياة، اذ القصاص يستوجب القتل أحيانا، وعليه هناك عمليّة سلب للحياة، ولكن حملة العقول الذكية يكتشفون أمراً آخر، مغايراً تماماً لهذا الاستنتاج. ان القصاص بشرطه وشروطه وحسب معايير الشريعة حماية للحياة... حياة المجتمع الماديّة والمعنويّة. وبهذا يتجاوز ﴿اولو الالباب﴾ التناقض الظاهري الذي يبدو من خلال الآية الكريمة، فهم يجدون الحياة في القصاص. ومن هذا نفهم ان ﴿اولو الالباب﴾ رزقوا قدرة على الاستنتاج من مواطن قد توهم الآخرين فهم أصحاب فطنة ووعي ورقة.

ان اللب الذي يخاطبه القرآن الكريم عقل مُدرك ملتزم، يستنتج ويَعي ويعظ، اي ذو وظائف متكاملة متداخلة، ينطلق من الكون الى المفردة الأخلاقية، عبر التاريخ وحوادثه وقوانينه، ولذلك استحقوا الذكر الجميل والمدح العظيم. ولاصحاب هذا اللب زادُهم المخصوص، ذلك هو التقوى، والله تعالى يُمضي ذلك؛ لان صاحب اللب استوفى موضوع الايمان والالتزام. قال تعالى: ﴿وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى واتقونِ يا أولي الألباب﴾.

والتقوى هنا تجذر المعرفة بالله بالنسبة لهؤلاء... وتقود الى نتيجة كبيرة. قال تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يأولي الالباب لعلكم تفلحون﴾.

وقال تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾.

ان اروع ما في الآيات القرآنية الكريمة التي تتناول موضوع ﴿أولي الألباب﴾هو هذه الوحدة المنسجمة من كل الوجوه، فلأجل ان نعطي لمحة خاطفة عن هذه الوحدة نقترح الصورة التالية

أولاً: ان ﴿أولي الألباب﴾ نفر متميّز من الناس بسبب نفاذ عقولهم وصفاء ضميرهم، يمتلكون قدرة التعرف على كبرى اليقينيات الكونية من خلال التعامل الذكي النزيه مع آيات الكون والحياة ﴿ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب﴾.

ثانياً: وهذا العقل الذكي النزيه النابه ذاته يمكّنهم من اكتشاف قوانين التاريخ من خلال التبصّر في أحداثه ومجرياته، ومن ثم امتصاص وتمثل

التجربة التاريخيّة ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الألباب﴾.

ثالثاً: وهذا العقل الذكي النزيه النابه يؤهل أصحابه لمعرفة كتاب الله وفق معانيه الحقيقية الناصعة ومراميه التي تنسجم مع اسباب نزوله ﴿كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر أولوا الالباب﴾.

رابعاً: ولأن عقولهم تقودهم الى الله تعالى من دراستهم الواعية للكون والحياة، حين تحصل الهداية الاولى، يتولى الله تعالى رعاية هذه الهداية وتنميتها ﴿اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب﴾.

خامساً: تقودهم هذه الهداية المضاعفة الى المزيد من الالتزام بمبادئ الحق وقواعد الخلق الانساني الرفيع التي أمضاها الوحي الكريم ﴿... انما يتذكّر اولو الالباب، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار﴾.

سادساً: زادهم على الطريق في مواجهة فتن الدنيا ومغرياتها يكمن في التقوى، أي الغذاء الذي يتناسب مع مستوى ايمانهم والتزامهم وفطنتهم ﴿وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى واتقونِ يا اولي الالباب﴾.

سابعاً: ومن هذا وذاك كان هذا النفر من عباد الله، أي أولي الالباب أهلا للاشارة والتنبيه لكل ما فيه عبرة واعتبار، عظة واتعاظ، سواء على صعيد الايمان او السلوك، لانهم راجحون عقلا، نافذون بصيرة وارادة ﴿... عبرة لاولي الالباب﴾

الذي نستفيده من هذه (الهيكلية) ان ﴿اولي الالباب﴾ عبارة عن منظومة فكر والتزام ومصير، وان اللب هنا هو العقل الذكي النابه والتعبير بذي الالباب نوع من المجاز عن هذا العقل والى جانب مصطلح ﴿اولو الالباب﴾ نقرأ ﴿أولو الابصار﴾ فما المقصود بذلك؟!

قال تعالى: ﴿... ألم ترَ ان الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجلعه ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزّل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار، يقلب الليل النهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار* والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شي قدير﴾.

هذه الآيات تعرض مشاهد كونية متتابعة متفاعلة، وقد جاءت لإثبات اغراض ومقاصد متعددة منها ربوبية الله لهذا الكون وانه المالك الحقيقي لهذا الوجود الرحب، وهذه مطالب عقلية بحتة. وقد جاءت ﴿أولوا الأبصار﴾ وسط هذا الحشد من الظواهرالكونية المتنوعة، يؤكد القرآن بان هذه المظاهر ﴿لعبرة لأولي الأبصار﴾...

والسؤال الاول .. ما هي العبرة هنا؟

لاريب في أنه ليس هناك أي علاقة بين العبرة الواردة في هذا المقام والحس الاخلاقي أو الحس القيمي؛ لان الموضوع المطروح يتعلق بالادراك العقلي لبعض مقاصد ودلالات هذه الظواهر. والظرف الجامع للمظاهر المعروضة يتسم بالحركة الكونية البحتة وليس هناك أي ملمح وعظي أو

أخلاقي أو ارشادي أو قيمي أو روحي صرف، وعليه فان العبرة المساقة وسط هذه المظاهر تنسجم مع حوليات الظرف وحركته. فهي مادة مقدمة لذوي الابصار لاكتشاف حقائق كبيرة تدل عليها حقائق عقيدية كونية، فالعبرة هنا لها صلة بالعقل المعرفي الكوني وليس لها اي صلة بالمنظومة الأخلاقية المعروفة.

والسؤال الثاني .. من هم اولو الابصار؟!

قد يتبادر الى الذهن ان ﴿أولوا الابصار﴾ هنا تعني صلة العلم القوي الواضح، وفي الحقيقة ان هذا لا ينسجم تماماً مع اجواء الطرح والمطروح في الآيات السابقة.

ان ﴿اولو الابصار﴾ هنا اصحاب طريقة ناجحة في النظر، لان الآيات تدعو الى التأمل والتفكر والتبصر في هذه الظواهر... وهم قد يصلون الى النتيجة المتوخاة ليس لان أحدهم يمتلك ذخيرة من العلم، بل لأن أحدهم يمتلك قدرة على النظر السليم في الاشياء والأمور.

قال تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار﴾.

اذن ﴿اولو الابصار﴾ هنا أصحاب القدرة على التمييز والتشخيص، ومرد هذه القدرة الى مقايسة ومقارنة، فالآية واردة في معركة بدر، فرغم قلة الفئة المؤمنة وعجز عدتها استطاعت ان تغلب القوة الاخرى ـ الكافرة ـ ذات العدة والعدد، وباستعمال المنطق نستنتج ان هذا النصر كان مدعماً

بفضل مصدر آخر، ذلك هو الله تعالى بنص الآية الشريفة. فالأبصار هنا آلية نظر ومقايسة ومقارنة وموازنة...

قال تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ماظننتم ان يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا اولي الأبصار﴾.

نلتقي هنا مرة اخرى بـ ﴿اولي الابصار﴾ حيث تطالبهم الآية أن يقايسوا الممكنات والظروف لدى كلا الطرفين، ومن ثم احتساب النتائج، فالآية شبيهة بسابقتها على نحو التقريب، فالاعتبار هنا نحو اكتشاف من خلال النظر والمحاكمة في جملة حقائق مطروحة لإخراج أو تحصيل حقيقة ما، وليس للاعتبار أي علاقة بذلك النظم الاخلاقي المعروف.

قال تعالى: ﴿واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولي الايدي والأبصار﴾.

الأيدي آلية عمل... الأبصار آلية نظر...

اعتقد ان ﴿اولي الأبصار﴾ هم أصحاب المنهج الموضوعي في النظر الى الاشياء ومن ثم الحكم عليها أو بتعبير أدق أصحاب الطريقة الصحيحة في هذه المجالات. ان المصطلح لا يشير الى كم معرفي وانما الى كيف معرفي.

[٤]
حوليّات البرهان

البرهان

يحتل البرهان مكانة مهمّة في موضوعة العلم في القرآن الكريم، فقد شدّد عليه في القضايا العقيديّة والمصيرية من حياة الانسان والمجتمع، وهو ـ البرهان ـ مصدر الاقناع والاحالة. ولذلك جاء نقطة مركزيّة في بُنية النظرية القرآنية عن العلم. وللكتاب المجيد اسلوبه المباشر وغير المباشر في الحديث عن هذه المسألة الحسّاسة في مسيرة العلم.

البرهان في اللغة بيان الحجة وايضاحها، وفي بعض المعاجم هو الحجة الفاصلة البينة، وبلحاظ هذه الانسقة في اللغة كما طرحتها المعاجم، نفهم ان البرهان هو الدليل ولكن بشرط ان يكون واضحاً. على ان البرهان قد يأتي بمعنى الهداية والرشاد. أي لوضوح في المعاني والأفكار وقد يأتي بمعنى العلامات الهادية والاشارات الصارفة عن الباطل الى الحق. قال تعالى: ﴿قد جاءكم برهان من ربكم﴾.

﴿... وهمّ بها لولا ان رأى برهان ربّه﴾.

فالبرهان هنا ينصرف الى الحكم والبيّن من الآيات والتصورات والأفكار.

* ان أولى خطوات الصياغة القرآنية للبرهان تتمثل في موقفه من التقليد، اقصد التقليد بمعنى الاتباع من غير علم أو بصيرة. قال تعالى: ﴿ولا تقف

ما ليس لك بــه علـم ان السـمع والبصـر والفـؤاد كـل اولئـك كـان عنـه مسؤولا﴾.

فالآية تنهى عن الاتباع الاعمى، انها موجّهة الى التقليد غير المســؤول في مجال العقيدة أو السلوك... وبناء على هذا لابد من تحصيل المعرفة في كـل مسلك عقائدي وفي كل اتجاه عملي وفي هذا السياق جاء موقف القرآن مــن الموروث الديني والاجتماعي. قال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ ابراهيـم، اذ قـال لأبيه وقومه ما تعبدون، قالوا نعبد أصناماً فنظـل لهـا عـاكفين، قـال هـل يسمعونكم اذ تدعون، أو ينفعونكم او يضرون، قالوا بل وجدنا اباءنا كذلك يفعلون﴾.

وقال تعالى: ﴿واذا قيل لهم اتّبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبــع مـا ألفينـا عليه اباءنا أولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾.

القرآن يرفض هذا المنطق لأن (منهجه) عقيم، غير منتج... انهم يفكـرون بطريقة خاطئة ﴿لا يعقلون﴾.

* يستمر القرآن في تصوير حقيقة التقليد ومساره وخطره علــى العلـم والتاريخ والانسان فيطرح اسبابه وعلله...

انّ للتقليد أنصاره وأشياعه ... وهؤلاء ـ بشكل عام ـ على نمطين:

الأول: عامّة الناس وجمهورهم من ذوي الثقافة المحدودة والفكر العـابر، أي الذين حُرموا نعمة التفكر والنظر بجديّة. هؤلاء الذين ركنوا الى السكون المميت والحكمة الجافة. إذ استأنست أذهانهم لمثل هذه الحياة الرتيبة. قــال تعالى: ﴿قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾. وقال تعالى: ﴿... بـل نتبـع مـا وجدنا عليه آباءنا﴾.

ان التعبير في الآيتين يوحي بتواصل طاغي استبدادي بين الماضي والحاضر، الحاضر هنا سلك للماضي ﴿... ما ألفينا عليه «آباءنا» ﴾. حيث ان الضمير «نا» في آباءنا يؤكد وحدة المنشأ والمصير والعقل والسلوك والتصور، فالخروج من هذه الدائرة يسبّب خللا في الانتماء الى الحياة ويخلق شرخاً بين الكائن والوجود.

الثاني: أصحاب المطامح والمصالح السياسيّة والاقتصاديّة السائدة، وكثيراً ما يكون القرار السياسي بيد هؤلاء ... هذا النمط يرتبط بالقيم الحاكمة ليس حباً بها ولاايماناً، بل هو يُدرك جيداً بانها بالية، ميتة، مستهلكة، بل هي علّة التقهقر والاستعباد ولكن يدافع عنها لانها تبرّر سلطانه الغاشم ولأنه عامل تخديري يقاوم التجدد. قال تعالى: ﴿قالوا: أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين﴾.

القائلون هم فرعون وملؤه ـ رمز القوة الغاشمة ـ، قالوها لموسى وهارون ـ رمز الخير والجمال والتجديد والأمل ـ. إنَّ فرعون هنا يدافع عن هذه القيم لأنها كفيلة بقتل الطموح المشروع لدى الآخر، الطموح في حياة وافرة بالقوة والجمال والرحمة. فالموقف هنا ذرائعي مدروس.

اذن هناك نوعان من التبرير:

أ ـ ساذج، سببُهُ ﴿لايعقلون﴾.

ب ـ مقصود، سببُهُ المصالح المدروسة.

* ولكن أي تقليد يذمّه القرآن الكريم؟

الجواب واضح في ضوء الآيات التي تتعرض الى هذه القضيّة، إنه التقليد

الأعمى، ومن عجائب الامور ان سلسلة هذا النوع من التقليد تبقى سائدة الى ضمير أصحابه حتى إذا كان البديل المطروح أفضل وأعمق وأرحب. قال تعالى: ﴿... بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنا على آثارهم مُهتدون، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنّا على آثارهم مقتدون، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون﴾.

هذا هو التقليد الأعمى، تعصب ذميم يحول دون انبعاث الخير وانتشار النور، ويصل الى ذروته القصوى عندما يرفض البديل بلا علم ولا رويّة رغم انّه الأفضل والأحسن.

* ويرتقي النظر القرآني الى الاوج عندما يؤكد بأنّ هناك اتجاهين في التقليد المذموم.

الأول ـ التقليد في المنهج.

الثاني ـ التقليد في المضمون.

ان تقديس الماضي يعبّر عن منهج في التفكير والحياة، لأنّه طريقة تعامل، ولكن عبادة الأصنام عبارة عن مضمون ومحتوى.

القرآن الكريم يهاجم كلا الاتجاهين. قال تعالى: ﴿إنهُم ألفوا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون، ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين﴾.

على آثارهم يهرعون: على طريقهم يسيرون، والضلال اسلوب حياة وتفكر، والآيات التي تنقد المضمون مرّ بعضها ... والكتاب العزيز عندما يقول (... لايعقلون، لايعلمون، لايفقهون) انما يركز على المنهج حيث تُسبق الكلمات أو المصطلحات المذكورة بمضمون ما.

هذه لمحة سريعة عن موضوع التقليد الأعمى في القرآن وهو يحتاج الى مزيد بيان وتوضيح.

* المرتكز الآخر في نظرية البرهان القرآنية: المطالبة بالدليل وهو يحاكم الخصم، والقرآن في هذا المنحى لايريد أن يسجِّل نقطة التضاد، أو يهدف الى حرب سجاليَّة، وانما ينطلق من نداء الحق في عالم الفكر. قال تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنَّة إلاَّ من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. وقال تعالى: ﴿أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. وقال تعالى: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

ونظرة بسيطة الى الآيات تكشف عن مبدإ قرآني فريد، إن مبدأ القبول والرفض في العقيدة هو البرهان؛ ولذا نجد في الآيتين الاولى والثانية تعليق الصدق في الدعوى على حضور البرهان، وصيغة القرآن ليست تحدِّياً بقدر ما هي حوار حول فكرة، بل هي تأسيس قاعدة في هذا المجال.

* على أن القرآن لايكتفي بمثل هذا، بل لايطرح ادِّعاءً إلاَّ وبرهن عليه بطريقته الخاصَّة، وهذه بعض الامثلة. قال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا﴾. ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً﴾. ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾.

فالقرآن يطرح متبنياته على أساس البرهان، ولعل استعراضه للآيات الكونية والحياتية والتاريخية يندرج في هذا الإطار.

الآن نضع التصور التالي عن البرهان في القرآن الكريم:

اولا: البرهان هو الحجة أو الدليل ويجب أن يتم بالقوة والوضوح.

ثانياً: التقليد الأعمى مذموم في أي مجال، سواء كان منهجاً أو مضموناً.

ثالثاً: النفي أو الإثبات يحتاج الى برهان.

الافتراض

ومما له علاقة وطيدة وتأسيسيَّة بعليَّة العلم وحركة الفكر هُو الافتراض، فهو يدخل في صميم الدراسات التي تهتم باشكاليَّة العلم ومنهجيته وموضوعه.

القرآن الكريم يحتوي على أمثلة كثيرة ومتنوّعة من الافتراضات. وهو يعرض قضاياه على العقل الإنساني. قال تعالى: ﴿أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾. ﴿أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾. ﴿أفرأيتم النار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئُون﴾.

﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾.

هكذا يطرح القرآن الافتراض بالطريقة التي يوفر فيها للعقل حرية الحركة بين الاحتمالات المفترضة، الأمر الذي يكشف عن صيرورة الفكر الحر في القرآن الكريم.

التذكّر

التذكّر الذي نتحدث عنه هنا ذلك الذي يعني استحضار المعلومات والمعارف والأخبار التي سبق وان اقتناها الإنسان أو العقل ثم غفل عنها أو نسيها، وفي لغة صاحب الميزان (... استحضار الصورة المخزونة في الذهن بعد غيبة عن الإدراك أو حفظه من أن يغيب عن الإدراك) وهو بهذا يقابل

النسيان والغفلة، ومنه قوله تعالى ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ على أنَّ التذكُّر قد يأتي وَهو يشير الى عملية عقلية: قال تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكَّرون﴾. ﴿وسع ربي كلَّ شيء علماً أفلا تتذكَّرون﴾.

﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلَّت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميِّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾. ﴿هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكَّر إلاَّ من ينيب﴾. ﴿وسع ربي كل شيء علماً افلا تتذكرون﴾.

ان التذكّر هنا وكما يبدو من إيحاءات وايماءات الآيات الشريفة هو نوع من المراجعة الفكريّة والتأمليُّة الجادّة لحقائق ومعادلات ومعارف مطروحة من أجل اكتشاف حقيقة أعمق.

وهذه المراجعة ضرورة للبرهان على أي قضية علمية أو فكرية جديدة.

الشك

قال في المصباح (قال أئمة اللغة: الشك خلاف اليقين، وهو التردّد بين شيئين، سواء استوى طرفاه أو رجح أحدهما على الآخر) فيما يذهب صاحب المفردات الى ان الشك هو (اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما وذلك قد يكون لوجود امارتين متساويتين عند النقيضين أو لعدم الامارة فيهما) أمّا الجرجاني فيرى ان الشك (ما استوى طرفاه وهو الوقوف بين شيئين لا يميلُ القلب الى أحدهما)، والذي يمكن أن نستفيده من هذه التعريفات ان الشك يتجسَّد في التردّد، هذا هو جوهر المعنى، وذلك

يحول دون اليقين قال تعالى: ﴿بل هم في شك منها﴾،﴿هو منها في شك﴾،﴿فما زلتم في شك مما جاءكم به﴾. فالشك هنا ما يقابل القطع الذي يتأتى من العلم، وهو قد يكون في وجود شيء وعدمه، وقد يكون في حكم أو عقيدة، وقد يكون في صفات شيء ما أو نوعه أو جهته ... قال تعالى: ﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض﴾. ﴿إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾. ﴿وإنّا لفي شك مما تدعوننا اليه﴾.

واعتقد ان الشك في القرآن الكريم ينزل منزلة الجهل وان لم يكن هو الجهل في المعنى الحقيقي، ويبدو من القرآن أيضاً، أنَّ الشك يمكن ان يتسرَّب الى أبسط الأشياء وأوضحها، ومن هذا اللون الشك بالله والعياذ بالله تعالى.

يستنكر القرآن الكريم مبدأ التوقف بسبب الشك، أي يطالب الإنسان بأن يسعى حثيثاً لرفعه بالأدلّة والبراهين، ومن هنا شدَّد في الهجوم على قوم صالح، فالقرآن يعالج الشك كموضوع ذي آثار، فالشك ليس مذموماً بحد ذاته، ولكن الجمود عليه وعدم حث الذات على تحديه هو الأمر المذموم. قال تعالى: ﴿بل هم في شك يلعبون﴾.

هذه هي الآثار الوخيمة للشك، ولذلك يلح القرآن على رفعه بالاسباب الطبيعيَّة الوجيهة، وهي الفكر الدؤوب والعلم الرصين. قال تعالى: ﴿بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾. ولذلك فان العلم والشك يرفع أحدهما الآخر، يلغيه من صفحة الفكر والذهن ويستقر مكانه، يطرده ويمثل مكانه.

اذا كان الشك ضرورياً في البداية من أجل الوصول الى الحقيقة، فانه

خطر على الحقيقية ذاتها اذا استمر سلطانه على العقل ومنهجه، سواء كان هذا الشك صادراً عن ذات تعاني حقاً من هذه الحالة أو كان اسلوباً منهجياً.

يقرن القرآن الكريم بين الشك والريب. قال تعالى: ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب﴾. ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾. ﴿إنهم كانوا في شك مريب﴾.

لقد وردت كلمة (الشك) في كتاب الله تعالى خمس عشرة مرّة، اقترن بها الريب بصيغة المبالغة أي (مريب) ست مرّات، مما يدلل أحياناً على العلاقة بين الأمرين، علاقة قويّة، و(شك مريب) تعني شكاً مُوهماً!!، مخيفاً، مفزعاً، يعرض النفس الانسانية الى الهمّ والقلق.

إن الشك قد لايكون عمليّة فرديّة خاصة، بل قد تبتلى بهذا المرض الوبيل شعوب وقبائل وأمم ومجتمعات كما هو الحال مع قوم موسى وصالح وغيرهما. ويبدو أن الشك يساور الجماعات فيما يستجدُّ من حوادث وأمور، خاصّة ما هو عظيم الشأن، جليل الاثر، يصدم الموروث، وفي مقدمتها النبوات، وهو مسألة جليّة كما يخبرنا التاريخ.

تأسيساً على ما سبق يمكننا أن نلخّص موضوع الشك في القرآن بالنقاط التالية:

اولاً: أن الشك هو التردّد، وهو يقابل اليقين المسبّب عن العلم.

ثانياً: يتسع الشك لكل مجالات الكون والحياة والتاريخ.

ثالثاً: يؤدي الشك الى القلق والعبث والضياع.

رابعاً: لابد من اعمال الفكر لرفع الشك.

خامساً: الشك ظاهرة فرديّة وجماعيّة.

سادساً: طالما يداهم الشك الجماعات والأمم في القضايا المستجدة الصادمة للموروث، ومسألة النبوة تمثل نموذجاً على هذا الصَعيد.

الزعم

الزعم في اللغة هو (القول) وفي المفردات هو القول من غير صحّة ولا يقين. قال تعالى: ﴿زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا﴾ .

ومن هنا يستعمل هذه المفردة للإشارة الى الكذب، أو الى الاعتقاد الذي لا يطابق الواقع، أو الفكرة التي تفتقر الى البرهان. قال تعالى: ﴿بل زعمتم ألن نجعل لكم موعداً﴾. ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾. ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم﴾.

يطلق الزعم ويراد به أحياناً (الادّعاء) كقوله تعالى: ﴿أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ ولكن ما يتصل منه بمشكلة المعرفة وشروطها وقيمها الفكرة المفتقرة الى دليل أو التصور الذى لا يستند الى برهان أو الادّعاء المجرّد. قال تعالى:﴿ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما انزل اليك﴾. ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾.

فإذن الزعم في المنظومة المعرفية القرآنية قيمة شبه سالبة من المعرفة.

[٥]
القلب .... الفؤاد

(القلب) كلمة كثيراً ما تتردّد في القرآن الكريم وضمن فضاء مشحون بالإيحاءات والمداليل. ولا تكتمل نظرتنا عن العلم في القرآن اذا لم نحط ولو الماماً بحوليات القلب في الذكر الحكيم. ومثل كل شيء فان القلب في (معناه) الحقيقي لا يتعدّى ذلك العضو الصنوبري الشكل الموجود في التجويف الأيسر من الصدر، وفيه تكمن بعض أسباب الحياة، اذ هو العضو الصغير الذي يتولى تنظيم حركة الدم وتوزيعه بشكل دقيق على كل أجزاء الجسم بما فيها مركز التفكير (المخ) وسائر المجموعة العصبيّة وعليه يكون القلب والمخ من أهم اعضاء الجنس البشري.يوعز القرآن الكريم الى القلب فعّاليات جمّة ذات صبغة حيوية ونشاط يتّسم بالوعي والمسؤولية نستعرض هنا بعضها. قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك...﴾. ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾. ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾. ﴿ثم قست قلوبكم﴾. ﴿ولهم قلوب لا يفقهون بها﴾. ﴿إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما﴾. ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم﴾. ﴿فإنه آثم قلبه﴾. ﴿ختم الله على قلوبهم﴾. ﴿وليربط على قلوبكم﴾.

بهذه الآيات وغيرها يكون القلب موضوعاً لشتّى الانفعالات والاحاسيس والفعّاليات الروحيّة والفكريّة والوجدانيّة، ولو استعرضنا الآيات في هذا الصدد لوجدنا أن من ذلك ﴿الحب والكره، الرأفة والقسوة،

اليقين والشك، والإقدام والجبن، الإقرار والنفاق، الهداية والضلال، العزم والخور، الطهر والدنس، الفهم والوعي...) ولكن القلب يطلق في القرآن ويراد به العقل كما في قوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون﴾.

ان التدبر في هذه الآية يفيد المعطيات التالية:

١ ـ ان القلب هنا عضو مشخَّص بدلالة اقترانه بالعين والاذن.

٢ ـ ان هذا العضو يمارس عملية التفكير بل التفكير المعمّق وذلك بدلالة (يفقهون).

٣ ـ ان القلب يتكامل في وجوده وعمله مع حاسّتي السمع والبصر أي الاذن والعين.

٤ ـ ان هذا (القلب) قد يخفق في ممارسة التفكير. أي قد يمارس العمليّة بشكل خاطئ الأمر الذي يقود الى نتائج خاطئة.

من هذه الملاحظات الأربع يمكننا أن نستفيد أن القلب في هذه الآية هو، العقل المدرك، وعلى وزانها قوله تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

وردت كلمة الفؤاد مفرداً وجمعاً (١٦) مرّة أكثرها واضح الدلالة على العقل. قال تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾. ﴿وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾. ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم، السمع والأبصار والأفئدة﴾. قال في الميزان في تفسير قوله تعالى ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما

تشكرون﴾ (ثم ذكر سبحانه الفؤاد والمراد به المبدأ الذي يعقل من الإنسان وهو نعمة خاصَّة بالإنسان من بين سائر الحيوان ومرحلة حصول الفؤاد مرحلة وجوديَّة جديدة هي أرفع درجة وأعلى منزلة وأوسع مجالا من عالم الحيوان الذي هو عالم الحواس فيتَّسع به أولا شعاع عمل الحواس ممَّا كان عليه في عامَّة الحيوان بما لا يتقدر بقدر، فإذا الإنسان يدرك بهما ما غاب وحضر وما مضى وما غبر من أخبار الأشياء وآثارها وأوصافها بعلاج وغير علاج، ثم يرقى بفؤاده أي بتعقله الى ما فوق المحسوسات والجزئيات فيتعقل الكليات. فيحصل القوانين الكلية. ويغور متفكراً في العلوم النظرية والمعارف الحقيقية، وينفذ بسلطان التدبر في أقطار السماوات والأرض).

اذن الفؤاد هنا هو العقل، وليس من ريب ان سياق الآيات يدل على ذلك بوضوح ويبدو هذا المعنى بكل جلاء من قوله تعالى: ﴿ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾.

ان الإصغاء ممارسة فكريَّة، وآلته من النوع ذاته، خاصة ان الإصغاء لا يعني الاستماع المجرَّد، بل هو الفهم والوعي والتثبّت. ومن ناحية أخرى نجد أن العلم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفؤاد ... هذا الارتباط هو المسؤوليَّة. قال تعالى: ﴿ولا تقفُ ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾.

فهذه دلالة على انسياق الفؤاد الى العقل، نعم يستخدم الفؤاد في بعض الأحيان ويراد به الحالة النفسية للانسان، وفي هذا الاستعمال يكون مورداً لحالات متناقضة. قال تعالى: ﴿وكلا نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به

فؤادك﴾. ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾.

وهنا يطرح سؤال ... ما هو وجه تسمية العقل بالقلب تارة والفؤاد تارة أخرى؟

قد يتصور البعض ان هذا الاستعمال متأت من اكتساب العقل معنىً وجدانياً في الاساس في اللغة العربيَّة. أو أنَّ معناه يصيب جوهراً وحقيقة في السياق القيمي والأخلاقي ولا علاقة له بالخلق والاكتشاف. والواقع لا مجال لمثل هذا الحكم في ضوء الآيات التي استعرضناها. ان القلب يطلق أحياناً ويراد به القوَّة الدرّاكة، ويسَمى (قلباً) لأنَه يمثل منزلة الجوهر من حقيقة الإنسان، أي به يتميز ويتشخص، فقلب الشيء ومائزهُ ومشخصه عن غيره، وعليه فان استعمال القلب وارادة العقل من باب المجاز. وهناك أكثر من تشابه بين الاثنين يسوغ مثل هذا الاستعمال، فاضافة الى ما سبق، فان كلا من العضوين له دور رئيسي بل لهما الدور الجوهري في حياة الانسان. كما ان إطلاق كلمة الفؤاد على العقل لا يخلو من وَجه وسبب، ذلك ان التفوؤد يعني التوقد، واعمال العقل توقد فكري .

[٦]
الآية والعقل

معنى الآية:

الآية في اللغة: العلامة الثابتة الظاهرة، وكما يقول الراغب انها مشتقّة من (التأييّ) الذي هُوَ التثبّت والاقامة على الشيء، ومن هنا كانت آية الرجل مشخصة وآية الشمس ضوؤها. أي علامتها الدالّة عليها، وقال آخرون: إن عين آية (واو)، ولذا فان كلمة (آية) في الأخير مأخوذة من أوى يأوى، مما يعطيها معنى أو وظيفة السير بناظرها وأخذها الى مقصد أو نتيجة، ومهما قيل في هذا الصدد فيغلب على كلمة (آية) صفة الإشارة أو وظيفة العلامة التي تدل على شيء، فآية الشيء ما يشير اليه، وعلى هذا الأساس يرد في القرآن (من آياته) أي من العلامات التي تبرهن على وجوده أو وحدانيته أو رحمته ... ولذا تكون الآيات هنا براهين وأدلّة. قال تعالى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض﴾. ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾. ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر﴾.

وبهذا الاستعمال يكون كل شيء في هذا الوجود هو آية تدل على شأن من شؤون الله عزَّ وجل، والقرآن حافل بهذا المعنى.

الآية والفكر:

القرآن الكريم يطرح الكون وما فيه آية أو آيات، يطرحها بين يدي الانسان باعتبارها دلالات على وجود الله أو وحدانيته أو رحمته... ولكن

هذه الآية أو الآيات تحتاج أو تتطلب في دلالتها هـذه الى إعمال الفكر، أي لابد من تقليب الفكر في جهاتها وشؤونها وتضاعيفها لأجل ان تؤدي هـذا الدور، والاسلوب لابد أن يكون سليماً متقناً، يعتمد الدقة والضبط والحساب، فهي اذن آيات للتفكير الذي يقود بالأخير الى معرفة خالقها ومصوّرها، وليس من ريب ان أي محاولة استنتاجية تستوجب مادّة تفكير، والآيات هنا هي المادّة. قال تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾. ﴿ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. ﴿ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾.

الآيات هنا مادّة تفكير وتعقل ونظر وتأمّل، والغاية القصوى هي معرفة الله جلّ وعلا، والعقل بطاقته الجبّارة يشكل آلة العمل المطلوب. وهي ليست برهاناً جاهزاً، بل لابد من الجهد العقلي، ولذا قد يجمد البعض إمّا لتقصير في التفكير وإما لعدم التوسّل بالمنهج الصحيح.

مواصفات الآية:

لما كانت الآية هي ميدان النظر والعقل والتفكر، أي مادّة البحث لغرض الوصول الى الله، فلابد أن تكون واضحة، بيّنة، منيرة، وأي غموض وإبهام في هذا المجال يعقد الغاية ويفصل بينها وبين أهل الفكر مساحات طويلة وصعبة، ومن هنا يعرض القرآن حشداً من الآيات بالاعتماد على الظواهر والحقائق والأمور التي هي في متناول الحس، ولكل انسان القدرة الكافية بل والقدرة المتيسرة على التعامل مع هذه الآيات؛ لأنها ليست من الأمور الخافية والمستورة بل الظاهرة المعلومة للجميع دونما حدود أو قيود، فالسماء والأرض والماء والهواء والليل والنهار والنبات والحيوان

والانسان. كلها مفردات كونيّة على مستوى الظهور الذي لا يحتاج الى محاولة للإثبات الوجودي ومن الخصائص المطلوبة في هذا المجال (التنوّع)، خاصّة ان القضيّة تتعلق في التحليل الأخير بكبرى اليقينيّات الكونية (الله)، وليس من ريب ان تنوّع الآيات يعطي فرصة أكبر لمزيد من حركة العقل ونشاطه وحريته في تأسيس الحقيقة وصياغة النظرية، ومما يتفق عليه المسلمون وغيرهم ان القرآن مساحة مزدحمة بالشواهد الكونية المتنوّعة، ويستطيع الانسان وهو يطالع كتاب الله ان يلتقط ما يشاء من ظواهر الوجود التي تلامس كل قدرات الإنسانية الحسيّة الحيويّة، وقد آل هذا الأمر الى أن تكون آيات الله في القرآن (مفصّلة)، وقد أشار القرآن نفسه الى أن آياته مفصّلة. قال تعالى: ﴿كذلك يبيّن الله لكم الآيات﴾. ﴿ويبين الله لكم آياته...﴾.

والبيان هو التوضيح، توضيح من أجل إعمال العقل. قال تعالى: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾. ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾. ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾.

فالتوضيح والتفصيل لغرض تيسير عمليّة التعقل والتفكّر، وهما من أبرز شروط العمل الفكري في أي مادّة من أجل الوصول الى نتيجة ما.

تفصيل الآيات في كتاب الله يتفاوت في السعة من شاهد لآخر، وطالما نجد تفصيلا لمجمل سابق، ونضرب هنا مثلا سريعاً:

(١) قال تعالى: ﴿ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾.

(٢) قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه

نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

ان التفاوت في التفصيل مسألة قرآنيّة عميقة تحتاج الى المزيد من المراجعة والنظر، ولها علاقة معينة بموضوع العلم، ونحن لو دققنا النظر في الآيتين السابقتين لوجدنا أن الآية الثانية قد فصّلت ما أجملته الآية الاولى، وعلى نحو متلاحق من الحقائق والأسرار التي تخصّ صيرورة الانسان عبر نشأته منذ البداية (التراب) وحتى الاكتمال الجوهري ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾. أي صار إنساناً يستحق سجود الملائكة.

جوهر الآية:

لو تأمّل الإنسان في الآيات الكونيّة والحياتيّة والتاريخية والاجتماعية التي يعرضها القرآن الكريم، بغرض تعقلها وإمعان الفكر فيها، لاكتشف بوضوح أن النظر المطلوب مُنصَبٌّ على العلاقات بين الأشياء وعلى الأشياء من خلال حركتها، في سياق الصيرورة، في مجرى تكوّنها، ... لم يستعرض شيئاً ما بصورة قرآنيّة جامدة، فان أي شيء تحقق هويته من خلال هذه العلاقة وهذه الحركة، ولا أقصد بالهويّة هنا الكنه والحقيقة والماهية، بل الخصائص والأبعاد.

ومنهج القرآن على هذا الأساس يتجاوز النظر البدائي والنظر العابر، وينقل الإنسان الى افق التعامل العلمي والحيوي مع الكون، وعلى هذا الأساس أيضاً ليس هناك طبيعة، وانما هناك مخلوقات وكائنات في تفاعل وحركة. وهذا هو جوهر الآية...

جهة الخطاب:

تتعدَّد جهات الخطاب في القرآن الكريم علـى صعيـد النظـر في آيـات الله وذلك حسب تفاوت الاستعدادات الفكريَّة والإيمانية بالنسبة لهذا الإنســان أو ذاك، ونحن هنا ندرج نموذجاً لهذا التعدّد.

١ ـ الخطاب العام: وهو لكل انسان. والقرآن الكريم يحوي علـى آيـات كثيرة من هذا القبيل .

٢ ـ خطاب المؤمنين: موجَّه الى الذين آمنوا فعلا ﴿ان في خلق الســماوات والأرض ...لآيات لأولي الألباب﴾. والهدف تصعيد وتيرة الإيمان هذه. لأنهم ظفروا بهذه النعمة قبل الخطاب.

٣ ـ خطاب أهل العلم: موجَّه لحملة العلم ﴿ومن آياتـه خلـق الســماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين﴾.

٤ ـ خطاب المتقين: أي اولئك الذيـن يحرصـون علـى تنفيـذ أحكـام الله ويعملون على تجنب الشبهات أي الأتقياء ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾.

٥ ـ خطاب أهل اليقين: إنهم صفوة من أهـل الإيمـان، أهـل تصديـق لا يتزعزع ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾. ومهمتها تعميق هذا اليقين.

التفاوت في عمق الدلالة:

وفي الحقيقة ان الآيات بحد ذاتها متفاوتة في قيمة وعمق وسعة دلالتــها على القدرة المطلقة، فليس من شك ان الحياة وما تنطوي عليه مــن اســرار الخلقة أكثر دلالة من الجماد، وان خلق الإنسان آية الآيات في نطاق الحيــاة

وعجائبها. واصرار القرآن على تنويع الآيات وتفصيلها ينطلق من هذا الأساس، خاصّة وان استعدادات الناس في التعامل العقلي مع آيات الوجود متفاوتة، كما ان هذا الاستعداد يتفاوت أيضاً تبعاً للموقف العقيدي المسبق، ولذا خصّ القرآن أصحاب اليقين وحملة العلم وأهل التقوى في كثير من خطاباته الموجّهة في هذا الصدد.

الإعراض عن الآيات:

ويشير القرآن الى فئة من الناس لا تؤثر فيهم الآيات مهما كان بيانها وعمقها، أولئك الذين توسّلوا بالمناهج الخاطئة في التعامل مع أشياء الكون وحوادث التاريخ وظاهرات الحياة، أو لأنّ العناد تمكن من ضمائرهم الى حدّ التعامل السلبي المطلق مع الحقائق من الوهلة الاولى، وممن ينزع الى هذا الدرب المظلم أولئك الذين طغت على قلوبهم نزعة الشر، ومن سقط أمام مغريات الحياة الرفيعة، فتحوّلت في حسابه الى إله يعبد، فهو منصرف بكُلّه الى هذه الجهة. الأمر الذي حجبه عن أي مراجعة أو التفاتة ولو بسيطة لما يجري حوله ويحيط به من دلائل ظاهرة على وجود الله وصفاته العظيمة. وهذا النمط من الناس يعرف لله عند آياته عقاباً له على عناده واصراره. قال تعالى: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها مُعرضون﴾. هذا الإعراض يتخذ صيغة اخرى. قال تعالى: ﴿اتخذوا آياتي وما أُنذروا هزواً﴾.

ومن النتائج التي تترتب على هذا الموقف. قوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾.

الآية التاريخية:

الآيات التي كانت محل الحديث السابق هي الآيات الكونية، التي مجالها الإيمان بالله وما يتعلق بهذه القضية الكبيرة، ولكن هناك أيضاً الآيات التاريخية، وسوقها يهدف الى اكتشاف قوانين التاريخ، والغاية البعيدة الإلمام بكيفية صنع التاريخ، وما يقال عن الموعظة والاتعاظ والعبرة والاعتبار يُدخل في هذا الإطار الضخم. قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾. ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾.

والحقيقة أن القصص التي يتلوها القرآن على المسامع كقصّة نوح وقومه وابراهيم وقومه... انما هي نماذج سيقت لكيفيّة التعامل مع التجربة التاريخية، وإلاّ فإن المطلوب من الإنسان أن يتوغل في دراسة التاريخ عبر أحداثه الجسام للغرض المذكور... ولعل كلمة (سيروا) دلالة قصوى على هذا المنحى؛ لأنّ (السير) عمليّة طويلة تستوجب تقليب حوادث التاريخ باستمرار ودونما توقف، والماضي الذي يضع القرآن جملة من حوادثه للهدف السالف انما هو درس سريع.

القسم الثاني

(١)
ما هو العلم؟

(١)

بعد هذا السرد الطويل ينطرح سؤال مهم وهو: ما معنى العلم في القرآن الكريم؟

لقد تحدثنا عن طرائق الوصول الى العلم وعن درجاته ومستوياته وعن آلياته وشروطه وعن أهله وخصائصهم... ولكن ماهو العلم؟

لقد قالوا كثيراً عن العلم:

العلم: إدراك الشيء بحقيقته.

العلم: هو الإدراك المطلق.

العلم: مرادف للمعرفة، وقيل إن المعرفة أخصّ من العلم، وقال آخرون المعرفة للمحسوس والعلم للمعقول.

العلم: اعتقاد الشيء على ماهو به على سبيل الثقة.

هذا غيض من فيض في تعريف العلم، ومن المؤكد أن أكثر من عامل وعامل يساهم في صياغة التعريف، فهناك الجذر اللّغوي، فيما نلاحظ التأثير الفلسفي والمنطقي.

العلم في القرآن برأي العقاد هو (جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السماوات والارض وما خلق من شيء... ويشمل الخلق هنا كل موجود في هذا الكون ذي حياة أو غير ذي حياة).

والواقع أنّ العلم في القرآن أوسع من هذا:

أولاً:

تصنيف وتنظيم الخبرات والأحاسيس الإنسانيّة المستقاة من عالم الطبيعة الخارجي، فالقرآن عندما يستعرض بين يدي الإنسان الأشياء والظواهر وهي متتابعة إنما ينشئ في النظر الإنساني خبرات منظّمة وأحاسيس مرتبة تتعلق بتلكم الأشياء والظواهر، كما في قوله مثلا ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين، وان من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ بقدر معلوم، وأرسلنا الرياح لواقح...﴾.

وقوله تعالى: ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾.

وكقوله تعالى: ﴿ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً، وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً، وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً لنُحييَ به بلدة ميتاً

ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً، ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً، ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً، فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً، وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فـرات وهـذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً، وهو الذي خلق مـن المـاء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربـك قديـراً،ويعبـدون مـن دون الله مـا لاينفعهم ولايضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾.

هذه المشاهد المتنوّعة المتتالية في قسم كثير منها، المتفاعلة فيما بينها إنمـا هي خبرات حسيّة منظّمة، وهي بالتالي علم، والآيات الـتي طرحـها القـرآن الكريم بين يدي الإنسان لإعمال العقـل في تضاعيفـها إنمـا هـي مـن هـذا الغرار... وهذه هي بداية العلم...

ثانياً:

وبعد هذه الخبرات يتوجه العلم في القرآن الكريم الى شبكة القوانين الـتي تضبط علاقة وحركة وتفاعل هذه الأشياء والظواهر، أي النفـاذ الى البُنيـة الجوهريّة الداخليّة لهذه الحشود من الظواهر والأشياء، وهـذه هـي مهمّـة العلم الأساسية بعد تنظيم وترتيب الخبرات الحسـيّة والمعلومـات الأوليّـة.

ونحن نقول ذلك لأن من مبادئ القرآن الكونيـة ان هـذا الوجـود محكـوم بقوانين دقيقة... قال تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾. ﴿ولن تجد لسـنة الله تحويلا﴾. ﴿الذي خلق فسوّى والـذي قـدّر فـهدى﴾. ﴿وأوحـى في كـل سماء أمرها﴾.

اذن هذه الظواهر محكومة بخلفيّة قانونية محكمة، دقيقـة، مضبوطـة... وهذه القوانين يعبِّر عنها بطريقتين:

الطريقة الأولى: صياغة قانونيّة لغوية ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾، ﴿ماترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾، ﴿ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. فنحن هنا بين يدي ترجمة لقوانين مُرتبة بلغة عاديّة.

الطريقة الثانية: الصياغة الرياضيّة، وهي أرقى من سابقتها، لا لأنها غاية في التجريد فحسب، بل لأنّ الترجمة الرياضية لقوانين الكون والحياة والمجتمع تتيح للعقل حركة خلاَّقة في رحاب هذا الوجود العظيم. ونحن نقول هذا لأنّ القرآن يؤكد أن كل شيء في هذا الوجود خاضع لضبط عددي صارم. قال تعالى: ﴿واحصى كل شيء عدداً﴾. ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾.

(٢)

وهنا يثار أكثر من موضوع...

* لقد اهتمّ القرآن الكريم بـ (خصائص) الأشياء، منها على سبيل المثال:

١ ـ الوزن: ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾.

٢ ـ اللون: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾.

﴿فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾.

٣ ـ الطعم: ﴿هو الذي أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات والنخيل والزرع مختلفاً أُكُلُهُ...﴾.

والسؤال .. ماهو موقع هذا الوصف من عمليّة العلم؟!

في الحقيقة ان القرآن الكريم يطرح هذا العرض ضمن شبكة العلاقات، ولم يركز على الخصائص بذاتها المجرَّدة، فالخصائص مثل الوزن واللون والطعم والرائحة والحجم وغيرها انما تظهر أهميتها ودورها من خلال شبكة العلاقة بين الأشياء، والقرآن جعلها من موضوعات العلم في هذا النطاق.

وقد اهتمَّ القرآن بموضوع أو مبدأ السببيَّة: قال تعالى: ﴿... لنخــرج بــه حبًّا﴾. ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت...﴾.

ونظرة دقيقة في طرح القرآن لهذا المبــدإ ســوف تكتشــف انــه منــدرج في السببيّة القانونية ـ أي هو جزء من البناء القانوني بــل لا أُبــالغ اذا قلــت ان طابع القانون أمتصَّ مبدأ السببيَّة في سيطرته على الطبيعة والحياة والتاريخ، فنحن عندما نطالع السفر الكونــي أو التــاريخي ـ مثــلا ـ نصــادف صيغــة قانونيَّة يمكــن وضعــها ورصدهــا وحســابها ـ أي يتجــاوز مبــدأ الســببيَّة البسيطة ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكـل في فلك يسبحون﴾، ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سمــاوات طباقــاً، وجعــل القمر فيهنَّ نوراً..﴾ ، ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾.

هذه الصياغات ليست علامة سببيَّة أو تعاصر علَّة ومعلول، وانمــا هــي صياغة قانونية تنظم العلاقات بين الأشياء في حركتها وتفاعلها. وكما قلنــا إن للسببيَّة موقعها في تفسير الكون وتشكيل الحصيلــة العلميــة للإنســان، ولكن السببيَّة مندمجة أو منصهرة في إطار التفسير القانوني للوجود... هذا التفسير أوسع وأعمق من التفســير الســببي الــذي يتخــذ طــابع الصرامــة الساذجة، ويفرض نظرة احادية مســتقيمة ذات اتجــاه طــولي صــرف!! ان التفسير القانوني يقرِّب الى الأذهان وحــدة الكــون وترابطــه المنبســط مــن جميع الجهات وعلى كل الأصعدة، واعتقد أن الانغمــاس المفــرط في تحليــل وفهم مبدإ العليَّة يصرف العقل عن اكتشــاف القــانون العلــي الكونــي. ان التفسير القانوني يمكن تحويله الى صياغة رمزيَّة محسوبة رياضياً، بــل في هذه المرحلة يكون العلم قد وصل الذروة.

ويركّز القرآن الكريم على غاية الحدث أو الظاهرة أو الشيء والآيات في هذا المضمار كثيرة، وخاصّة على صعيد تيسير الحياة للإنسان، ولكن النقطة الجوهريّة في هذا الموضوع ان (الغاية) لا تدخل في التفسير العلمي للكون وأحداثه، وإنما تدخل في بيان الحكمة، فالغاية ضمن الملكة الفلسفيّة هنا، وعليه فانّ استخدام الغائية يأتي في مرحلة متأخرة من النظر، أي بعد استكمال حق العلم.

(٣)

والعلم ـ كعمليّة ـ ينطوي وفق المنطق القرآني على الأبعاد التالية:

١ ـ الوحدة.

٢ ـ إمكان التعميم.

٣ ـ التنبؤ.

وهي شروط أساسيّة ورئيسيّة في أي محاولة علميّة، بل لا وجود للعلم بدون الوحدة والتعميم والتنبؤ... والمنطق القرآني يستبطن هذه الشروط من خلال إمضاء القانون الكوني. قال تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾. ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾.

كذلك من خلال إمضاء حقيقة التقدير ﴿إنّا كل شيء خلقناه بقدر﴾، ﴿الذي خلق فسوى والذي قدّر فهدى﴾. فما دام كل شيء محسوباً، ويمتلك مسيرة كونية فإن بإمكان العقل أن يكتشف قوانين هذه المسيرة، ويستطيع أن يتنبأ بمستقبلها وظروفها، ويمكنه أن يعمّم سننها مستفيداً من عامل التشابه والتماثل، ومن الطبيعي ان هذا التنبؤ والتعميم قد يخطئ وقد يصيب. قال تعالى: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾.

وتأسيساً على هذه الآية العظيمة نستنتج مبدأ جوهرياً في صياغة العلم، فان أي حصيلة علميَّة لا تعدّ نهائية إطلاقاً، ليس لأنها لا تحمل هذه الخصيصة ذاتياً، بل لأنها قد لا تكون مطابقة للواقع فعلاً، أو لأن مصاديقها الفعليّة لا تملك صفة الامتداد المكاني والزماني، ولذلك ينبغي التعبير عن هذه الحصيلة بلغة تشير الى هذا الاحتمال الممكن والخطير في آن واحد، وأحسن صياغة هي التي تشير الى احتمال العكس في الوقت نفسه، فالمعدن يتمدّد بالحرارة الى أن يثبت العكس، ذلك ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾!!

(٤)

العلم في القرآن وعلى ضوء ما سبق بيانه يحملُ معنى (التفسير) وتصنيف الخبرة الحسيَّة يدخل في هذا الإطار كمقدَمة ضروريَّة، فهو ليس كميّة أو نوعيّة المعلومات التي يختزنها العقل عن الوجود، ولا هو الصور المعقولة للأشياء الخارجيَّة، ولا هو إدراك الشيء بحقيقته، انما هو تفسير الكون بظواهره وأشيائه، وذروته القصوى تكمن في الترميز العددي لشبكة العلاقات القانونية الحاكمة، أي يتجاوز العلم الوميض الذي يتعلق بعرض الخصائص، ويتخطى مبدأ السببيَّة الذي يركز على الصلة التوليدية البحتة الصرفة بين سابق ولاحق، ولا علاقة له بالغاية ولا بكل مقولات أرسطو المعروفة أو أي مقولات فلسفيّة كأطر وأنماط مثالية لصب الحقائق العلمية بين أقواسها المحكمة.

(٥)

واذا كان العلم هو تفسير الكون في النظرية القرآنية، فما هو غرض هذا التفسير...؟

في الحقيقة ان الإنسان يمتلك نزعة ذاتية أصلية لمعرفة العالم الخارجي، فهو يتطلع الى تفسير ما حوله. هذه حقيقة محسوسة. ويساعد على تحذير هذه النزعة وتفعيلها ما يواجه الإنسان من مشكلات طبيعية وحياتية تهدد حياته ومستقبله، وطموحات الإنسان نحو حياة أفضل هي الاخرى تشكل أسباباً مهمة في صرف الإنسان الى طلب العلم بمعنى تفسير العالم... ولكنْ الإنسان كثيراً ما توسل بهذا العلم أهدافاً مدمّرة، خاصةً عندما خضع العلم لاعتبارات ايديولوجية أو حسابات سياسيّة هادفة!!... ومهما يكن من أمر فان الاسلام طرح جملة أهداف إنسانيّة ازاء العلم، لم يطرح مضموناً علمياً. وإنما تبنى منهجاً في تحصيل العلم، واقترح رسالة للعلم، وقد مرّت بنا بعض معالم المنهج، أمّا رساليّة العلم في الإسلام فيمكن أن نصوّرها في النقاط التالية:

أولاً: إشباع الرغبة الذاتيّة للإنسان في التطلّع الى فهم وادراك ما حوله!! ولعل نفس توجيه النظر الإنساني الى تضاعيف الوجود وأسراره وخفاياه، وتمثل تجربة ابراهيم عليه السلام أرقى نموذج لإشباع هذه الرغبة، حيث تجاوزت السؤال عن الأسباب القريبة الى سرّ الوجود الأوّل... كما أن بعض الإجابات القرآنية عن هدف بعض الظواهر الطبيعيّة وبعض الأسئلة الحائرة عن سرّ الحياة والموت انما تصبّ بغرض مراعاة هذه الرغبة الجوهرية الصميميّة.

ثانياً: تغير صورة العالم نحو الأحسن والأفضل، أو بعبارة أخرى صياغة الكون من جديد ـ فالقرآن الكريم يقر مبدأ القانون الكوني ويؤسّس فكرة التسخير، ويشرّع صلاحية الكون للحياة، ويؤكد دور العقل

في اكتشاف طاقات الطبيعة، والجمع بين هذه الإمضاءات يؤدي الى صياغة العالم من جديد ـ يؤدي الى إضافة الى الوجود. والعلم يشكل ردع كل واحد من هذه الإمضاءات بطريقة واخرى . فالكون نهائي ولكن في استعداده للافضل، والكون على أحسن ما يكون ولكن باعتبار استعداده للاحسن، وتفاعل الامضاءات السابقة هو الذي يخرج هذا الاستعداد من مرحلة القوّة الى مرحلة الفعل.

ثالثاً: معرفة المبدأ الأوّل الذي هو سبب هذا العالم العظيم، أي الوصول الى الله تبارك وتعالى، وجوداً وصفات!! وهذه مرحلة متأخرة. تقوم على تفسير العطاء العلمي وتأويله. العلم يوفر لنا أو يطرح بين أيدينا تفسيراً للعلاقات الكونية ـ باعتبار انها موضوع العلم الحقيقي ـ وذلك على ضوء القانون أو بواسطة القوانين. ولكن هذه التشكيلة من القوانين لا تكفي لأن تكون تفسيراً نهائياً وهي بحاجة الى تفسير أعمق من طبيعتها...

نحن لا نريد هنا أن نبرهن على صحّة النظرة القرآنية بهذه النقطة بالذات، وانما غرضنا تسطير أهداف أو أغراض العلم في القرآن ليس أكثر.

(٦)

ويرتبط العلم في القرآن بالوضوح والبرهان والبيان. هناك وحدة أو تماسك قوي بين كل هذه المفردات. قال تعالى: ﴿الرحمن علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان الشمس والقمر بحسبان﴾. وقال تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون﴾. وقال تعالى: ﴿انبؤني بعلم إن كنتم صادقين﴾. ﴿ولئن إتّبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالكَ من الله من وليّ ولانصير﴾.

وهذا الترابط بين هذه المفردات تفرضه طبيعة العلم وفلسفته إضافة الى الحس الأخلاقي المسؤول. ومن هنا يمكننا ان نفتش عن نقطة التلاقي بين العلم والأخلاق. قال تعالى: ﴿ولا تقفُ ماليس لك به علم إنَّ السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا﴾.

فالعلم لابُد له من برهان، ولابدَّ له أن يكون واضحاً؛ لأنَّ الحياة تقوم عليه، ولأنه يساهم في تحديد المصير وتوثيق المستقبل، وعليه، فإنَّ مثل هذا التقرير ليس بعيداً عن فلسفة الأخلاق ومجالها وغاياتها الانسانية العظيمة. يقول تعالى: ﴿وان كثيراً ليضلّون بأهوائهم بغير علم﴾. ﴿ان يتبعون إلاّ الظن وما تهوى الأنفس﴾.

فالهوى يقابل العلم لأن الهوى بجانب البرهان والموضوع ويعتمد التخرّص والتبريرات الواهية والتعلية التي تفتقر الى المتانة والرصانة.

(٧)

قال تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك﴾. ﴿اتقوا الله ويعلمكم الله﴾.

والعلم في الآية الاولى غيره في الثانية، انه في الآية الاولى جهة وكسب مثل العقيدة، انه دعوى الى اثبات الوحدانية، ممارسة عقلية بحتة، أما في الثانية فهو فضل من الله بعد الإيمان.

(٢)
ما هو العلم؟
تعريف تطبيقي

(١)
هوية العلم (ماهو؟)

مضى بنا سابقاً، انَّ الباحث الاسلامي عباس محمود العقاد وضع الخطوة الاولى في تعريف «العلم» في القرآن الكريم. وقد أشار الى انَّ العلم في الكتاب المجيد هو مجموعة المعارف التي يستحصل عليها الانسان من خلال الممارسة العلميَّة في الوجود. والعقَّاد انما يطرح هذا التأسيس انطلاقاً من توجيهات القرآن للفكر البشري الداعية الى اعمال هذه الطاقة الجبَّارة في الكون. ولكن من الواضح ان المفكر العقاد متأثر جداً بالجانب الكمي من المعرفة، فهو يتحدث عن العلم باعتباره معارف ومعلومات عن الحياة والتاريخ والانسان وشتى المجالات الاخرى، وهي نظرة مغرمة بالموسوعية، مشبعة برغبة الاقتناء المعرفي المعلوماتي، وفي تقديري ان هذا التصور لا يعبِّر عن المعنى النهائي للعلم في كتاب الله تعالى، انه تعريف اولي، بداية موفقة للوصول الى معنى او معاني العلم في الكتاب العظيم. وفي سياق حديثنا عن العلم في القرآن قلنا: انه ترتيب المعلومات المستحصلة من الرصد والمتابعة بغية الوصول الى نتيجة، وهذه الرؤية مستلة من طريقة القرآن في عرض المشاهد الكونيَّة، تلكم الطريقة التي تعتمد الوصف، والجنبة الاجرائية تتجلى بوضوح في التصور هذا، وليس من ريب ان هذا

التعريف للعلم اقرب الى روح العلم وجوهره، لانه يستبطن حركة العقل، من المعلوم الى المجهول، ولانه يعتمد تقدير الوصف للظواهر التي هي مسألة جوهرية في حقيقة العلم. وفي الحقيقة، ان اطالة النظر في آيات الكتاب الكريم تكشف عن روى اعمق في مشكلة او قضيّة العلم. فالعلم ليس هذا الكم الهائل من المعلومات ولا تنظيم المعلومات، بل اكثر من هذا وذاك، ونحن ننطلق في تشخيص هذه الرؤى من الجوانب التطبيقية للآيات، أي من خلال استشراف الميدان الاستعمالي لكلمة العلم ومقاربتها مثل: الفكر، النظر، والرؤية، الخبرة، البصر والبصيرة، العقل، الفقه، الدراية، الادراك، الوعي، اولو الالباب، اولو الابصار وغيرها من المفردات الاخرى .

الأفق الأوّل:

مجموعة المعارف والعلوم والتصورات التي يحوز عليها الفكر البشري من النظر الى الكون بمجالاته الكثيرة، اي الى الجماد والنبات والحيوان والانسان. الى كل شيء في هذا الوجود الرحيب، حيث كل شيء فيه يمكن ان يتحول الى معلومة بشكل وآخر .

وهذه المعارف قد تكون عميقة، تتصل بأسرار الوجود الخفيّة، وقد تكون سطحيّة بسيطة، وهذه القياسات نسبيّة من عصر لآخر ومن مجموعة لغيرها. ولهذا الافق استحقاقات كثيرة نستطيع ان نستخلصها من القرآن، اقصد: أن هذا التعريف للعلم يشتبك بمنظومة من المقاربات المتواصلة والمتحدة مع طبيعة التعريف على ضوء القرآن بالذات... منها:

١ ـ ان العقل الانساني قادر على تحصيل العلم بل اكثر من ذلك، انه مهيأ ومَعدَ ومصممّ لمثل هذه الغاية. وبامكاننا ان نقع على هذه الحقيقة

القرآنية من متابعة السؤال الحيوي العملاق ﴿أفلا يتفكرون﴾ ومن الامنية الخالدة ﴿لعلهم يعقلون﴾

٢ـ ليس لهذه المعلومات حد فهي خزين مفتوح، رحب وثر، متحرك ومتوالد، وفي الكتاب العزيز آيات كثيرة تشخص هذه الخصيصة المعرفية المهمة.

قال تعالى: ﴿ولو أنّ ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾.

ونصادف آيات كريمة لا توحي بهذه الحقيقة، بل تجسدها على شكل عملي ملموس جاهز، ولعلّ المقارنة بين الآيات المجملة والمفصلة مما يعطي مثالا رائعاً على هذه القضية، ولك ان تقارن بين الآيات الثلاث التالية:

(أ) قال تعالى: ﴿ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون﴾.

(ب) قال تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون﴾.

(ج) قال تعالى: ﴿يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثمّ من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلّقة لنبين لكم ونقر في الارحام مانشاء الى أجل مسمّى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً...﴾ .

ان مقارنة بسيطة بين هذه الآيات الثلاث من كتاب الله العزيز تؤدي بنا الى مجموعة نتائج مهمّة وأساسيّة في نظرية العلم في القرآن، منها: «ان

المعرفة نظام مفتوح» وان عملية تكثير المعرفة من آيــة «أ» الى «ب» الى «ج» دالّة على هذه المسألة وليست سقفاً، فالنظـام المعـرفي المفتـوح مـن بُنيـات النظرية القرآنيّة الاساسيّة.

٣ ـ وهذه المعلومات قابلة للتغيــير والتبـدل، وذلـك تبعـاً للجـهد المبـذول في تحصيلها وكسبها، فليس كلّ ماتعرف صحيحـاً أو سـليماً، اذ كثـيراً مـا يكـون مخالفاً للواقع ومضاداً للمنطق وقيم التفكير الرصينة. وكل الآيات الكريمة الـتي تطالب الطرف المقابل بتغيير رؤيته في شأن ما، انما تصب في هذه القضية.

إن التفاتة سريعة الى هــذه المسـتحقات الثلاثـة تطلعنـا بوضـوح علـى اواصر التفاعل الحي بين فقراتها.

الأفق الثاني:

الاحاطة بالسر الكبير الذي يكمن خلف هــذا الوجـود وحركتـه الهائلـة ونظامة الدقيق، اي (التوحيد). فان الوصول الى مبدإ التوحيد مــن دراسـة مظاهر معالم ومشاهد الكون يعتبر من مصاديق (العلم)، والذي يؤكد هـذه الملاحظة انَّ القـرآن جعـل التوحيـد نتيجـة مترتبـة علـى التفكـر والتدبـر والتبصر بالوجود، فالتوحيد معرفة أو علم مستحصل، وآلته الفكر ومادته الكون والحياة. قال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الألباب﴾. وقال تعالى: ﴿ان في خلق السـماوات والإرض لآيات لقوم يعقلون﴾. وقال تعالى: ﴿ألم تــر ان الله انـزل مـن السـماء مـاءً فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً الوانه ثـم يـهيج فـتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ان في ذلك لذكرى لاولي الالباب﴾.

ومن ابرز ملامح هــذه الرؤيـة أو التصـور هـو: ان الكـون يمكـن تفسـيره

ايديولوجياً، وان الدعوة الرافضة للنظر الفلسفي الذي يمتد الى ما وراء الظواهر الطبيعية غير مستساغة أو مقبولة في الكتاب الكريم، بل العكس هو الصحيح، والقرآن حاشد بالآيات التي تربط ميتافيزياً بين هذه الظواهر والحكمة الالهية، وهو من المقاصد الفكرية والعبادية التأسيسيَّة في كتاب الله عزوجل، بل هو رأس المطالب وأسسّ البناء الحضاري الشامل في الخطاب الالهي الشريف. ومن الطبيعي ان هذا المستحق لا ينفصل عن المستحقات الثلاثة التي ترتبت على الافق الاول الذي استهللنا به الكلام، اي كون العلم في القرآن هو مجموع المعارف المستحصلة من النظر في اعطاف الوجود وانحائه واشيائه.

الأفق الثالث:

استثمار الطبيعة واستيعاب قوانينها لصالح الحياة يشكل احد معاني «العلم» في القرآن الكريم، نحن هنا بين يدي الجانب التطبيقي من العلم، وهو من أبرز واهم مشخصات القضيَّة العلمية او قضيَّة العلم بالفكر الحديث.

يقول تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عددالسنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

والآية بطبيعة الحال نموذج الى اقرار هذا المنحى او تأسيس هذا اللون من «العلم» الذي يتصل بمستقبل الانسان فرداً وجماعة، اليوم وغداً، بغض النظر عن أي معلم، خارج العنوان الانساني العام. ومن الضروري ان لا تحصر الرؤية في نطاق العلم النظري ونحن نتمعن آفاق الآية، وذلك انطلاقاً من هوية العلم بالعدد الذي توحي به الآية الشريفة خاصة وأن تلتحم بدون اي فاصل بالشمس وضوئها والقمر ونوره، مما يوسع رؤية

«مدار» العلم الوارد في السياق، ويدخل الجانب التطبيقي منه في مجال الاستفادة من طاقات الكون .

قال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور﴾.

والمشي في المناكب تعبير مجازي جميل عن استثمار أقصى الامكانات وأصعبها وأحمزها، والكلمة تكثف كل الجهود الممكنة في ميدان الاستفادة المذكورة، يقول تعالى: ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

ونحن ننطلق من هذه الآية ونظائرها لإثبات المراد لايماننا بأن النص ـ أي نص ـ مجال وليس مضموناً وحسب، فالتسخير وابتغاء الفضل وجريان الفلك وغيرها من فقرات الخطاب مجالات من المعنى والايحاء والايماء، وهي تترابط وتتراصف مع ضروراتها ولوازمها وشروطها، وتتألف على نحو الاستدعاء الضروري والمنطقي مع نظائرها في المفهوم فضلا عن روافد المعنى وافرازاته. ان التفسير على ضوء المضمون المحسوب اختزال للنص عبر قتل العناصر الحقيقيّة في تكوينه، ولنكن على وعي أنّ الهدف من النص قد يكون في بعض الاحيان هو المجال وليس المحتوى الحرفي. ولنسأل: ترى ماذا سيتولد داخل الذهن الانساني وهو يؤمن بأن الكون يحمل رسالة التكيف مع الجهد الانساني؟!

ان العلم التطبيقي محروز داخل الاتجاه العملي في النظر الى الكون، ولطالما اعطى القرآن للاشياء وظائفها العملية، بل طالما حدد التعريف بالوظيفة العملية ﴿ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾.

اعتماداً على ماسلف أن كل الآيات التي تدعو الى استثمار الطاقة الكونية انما تؤسس مقولة العلم التطبيقي.

ان فهم الآيات يجب أن يتجاوز المحتوى المحصور في الكلمة، ويتجاوز المجمل، ليتصل بقضائه الممتد، وهذا ليس تفسيراً وانما معرفة. وقد قاد التفسير بالاسلوب السابق الى تحجيم الرؤية القرآنية وعزلها عن آفاقها الرحبة الواسعة الناشطة الفاعلة، اي مثل فضائها المفتوح. يقول تعالى: ﴿وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾.

والآية الكريمة دعوة صريحة الى العلم التطبيقي في أحد ابرز ميادينه في العصر الحديث.

الأفق الرابع:

الافق الآخر في رحاب العلم أو نظرية العلم في الكتاب المجيد هو «الفكر النقدي» القائم على مراعاة المنطق السليم والضرورات الموضوعية والامانة الدقيقة، فان «العملية النقديَّة» بشروطها إنما هي علم بل من أسمى ما يمكن ان يقال عن (علم) في الفكر الحديث، والغالب على النقد (كعلم) تصحيح المعرفة وتقييمها، وفي القرآن قواعد ناقدة لم يلتفت اليها طائفة من المفسرين ولعلَّ منها قوله تعالى ﴿كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾.

وهي المعادل الموضوعي للقاعدة التي تقول (عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود)، اذ تقوم هذه القاعدة على تصحيح عملية التفكير والاستنتاج في بعض مساراتها، وتنقذ الموقف العلمي من احدى حالات الارتجال أو التسرّع، ومما نلتقي به هنا نقد القرآن لمحاولة نسب الخطاب الالهي الى عنصر مسمًى ﴿لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾.

حيث اعتمد على ابراز التناقض الحاد بين الدعوة والواقع!! وبلا شك هو منهج نقدي يقوم ويقيِّم الفكر...

ان اخطر استحقاق يترتب على هذا العلم هو انَّ العلم خاضع للنقد ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾. ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾. وهو ـ أي العلم ـ ليس الهاً.

الأفق الخامس:

والأفق الجديد هو البرهان، وأقصد بالبرهان هنا الدليل أوبيان الحجة كما في مفردات الراغب الاصفهاني، ويولي القرآن الكريم قضية البرهان اهمية مثيرة للنظر، فان القرآن الكريم ادخل البرهان في صميم جوهر (القضية العلمية)، سواء بمبدئها أو تطبيقاتها.

والبرهان اقوى الحجج ويفيد الصدق ولذلك كان مطلباً قرآنياً في الحجاج ﴿قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾ وهو علم ولذلك اقترن بالابانة والوضوح في سياق واحد ﴿ياايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً﴾، والبرهان يتضاد في حقيقته وهويته مع هوى النفس الذي طالما يحرف العملية العلمية عن مسارها لأغراض شتى ﴿تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾، وفي المقابل يرتبط بأواصر ووشائج اللحمة الشديدة العصب مع الحق، اي مطابقة الواقع وكل ما في دائرة الوضوح ﴿ونزعنا من كل امة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كان يفترون﴾. فالبرهان في هذه الآية الكريمة يتوسط موضوع النبوة باعتبارها ارقى شهادة انسانية في طريق المعرفة والحق الذي هو الواقع بعينه وضلال اهل الهوى بسبب اعيائهم عن اتيان البرهان، وكل هذه المقتربات

تؤدي بنا الى نتيجة مهمة ألا وهي: ان البرهان علم، ويأتي بمعنى الدليل بشكل دقيق ومباشر ﴿أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾.

اذن وفي لحاظ ماسبق، من معاني العلم هو البرهان:

ولكن ماهي ألمع المستحقات المترتبة على كل هذا البيان في خصوص البرهان بالخطاب القرآني؟

(١) ان الجدل الفكري أو الجدل بحد ذاته يؤسس روح الحركة العلميّة ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾. وبدون هذا الجدل لا يتطهر الكون من اضافات الوهم وادعاءات الهوى وغرور العقل، والبرهان جدل ضمني، جدل داخلي فهو الاخذ والرد، والرفض والقبول، على ان يكون محكوماً بقواعد الحوار المسؤول على جميع الاصعدة وفي كل المستويات.

(٢) ليست كل معلومة خالدة وتتمتع بميزة التحدي، فهناك المعلومة الصحيحة وهناك المعلومة الخاطئة، والاثبات الى البرهان وفي الوقت نفسه السلب هو الآخر يحتاج الى برهان.

(٣) ان قضيّة العلم مسؤولية تقع على صاحبها فهي ليست ارتجالا أو هوى أو تشهياً بل هي موقف برهاني نقدي.

الأفق السادس:

واذا كان البرهان علماً، فان مايؤدي اليه هو علم أيضاً، خاصة اذا أخذنا بنظر الاعتبار والتقدير: ان البرهان هو اقوى حجة وأبين دليل وأمضى بيان، اذ مؤداه الصدق المنطقي والتوافق الواقعي، وهو علم صحيح نافذ مشرق بالحقيقة، وماذاك إلاّ لوجود البرهان. واعتقد ان هذا التأسيس طبيعي ولا يحتاج مزيداً من إعمال العقل والفكر.

الأفق السابع:

وما يُستنتج من مقدمات أو مواد سابقة أو معارف أولية هو الآخر علم في الخطاب القرآني الكريم. قال تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به ولو ردوه الى الرسول وإلى اولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾.

ففي الآية الكريمة نستوحي ما يلي:

* مادة أوليَّة هي الاشاعة أو الخبر.
* اجراء عمل عقلي في المادة الاولية (الاستنباط).
* نتيجة مستخرجة بالاستنباط السالف.

ونلاحظ هذا القرن الجميل بين (علم) من جهة و(الاستنباط) من جهة اخرى كما سيمر علينا لاحقاً.

الأفق الثامن:

والافق الآخر هو رصد الطبيعة ووصفها، واظهار خصائصها بالكلمة الواضحة الدقيقة، وذلك من حجوم والوان وطعوم واوزان وتطورات وحالات متتالية على الشيء أو الظاهرة. والقرآن الكريم زاخر بهذا اللون من العلم الدقيق المعطاء، وهناك رأي مفاده آن العلم إن هو إلاّ وصف الظواهر والاشياء والعلاقات، انه ميدان العلم بل العلم بالذات. قال تعالى: ﴿ألم تر أنَّ الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب الابصار﴾. وقال تعالى:

﴿خلق السماوات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾. وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الارض ثمَّ يخرج به زرعاً مختلفاً الوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ان في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾.

والآيات من هذا النظير كثيرة جداً.

هذا الرصد هو مايعرف في نقد النهج العلمي بـ (الملاحظة الحسيَّة) أو في الواقع: ان مثل هذا التوجيه يربي العقل البشري على ادخال تغييرات على الظاهرة أو الشيء من أجل فحص الفروض والاحتمالات! فالقرآن في توكيده على الملاحظة الحسيّة انما يشرّع مبدأ الملاحظة المختبريّة، ونحن نسمح بطرح هذا التصور انسجاماً مع الفكرة التي تقول: إن النص يتوالد ويتناسل ويتكاثر، وان النص يخلق أكثر من امكاناته الذاتية. وهذه الناحية أهملت في فهم القرآن الكريم.

الملاحظة بشقيها أو رصد الطبيعة ليس هدفاً في ذاته، وانما من أجل هدف، والقرآن يجسد هذا المبدأ العلمي المنهجي بكل وضوح.

ترى ماهي استحقاقات هذا الافق؟!.

(١) إنَّ الطبيعة ميدان نظر وفحص وليست هي لغزاً عصياً على الحل والوصف والتعليل والتفسير، ويمكن اختراقها وتحديها وتشخيصها.

(٢) إنَّ العقل الانساني مهيمن على الكون، وليس العكس، ولو لم تكن هذه الهيمنة متوفرة لما يطالب القرآن العقل باقتحام الوجود.

الأفق التاسع:

تكميم الاشياء والظواهر والعلاقات علم، فانَّ تحويل أو أنَّ التعبير عن

المعلومة بصيغ رياضية انما هو علم، ومن المعروف ان الاتجاه العلمي ينحو الى تكميم الاشياء والظواهر بما فيها تلكم التي تنتمي ظاهرياً الى طابع النوع مثل الذكاء والحزن والفرح وغيرها. قال تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه كتابا﴾. وقال تعالى: ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾.

الأفق العاشر:

استيعاب القيم والمعارف الاخلاقية والروحية والوجدانية علم، وطالما يشير القرآن الكريم الى هذه الناحية. قال تعالى : ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾. وقال تعالى: ﴿يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾.

الأفق الحادي عشر:

والافق الآخر يتعلق بتمييز الاشياء والقيم والفصل بين الاحكام والتقييمات، فان هذه الممارسة عبارة عن علم. قال تعالى: ﴿لاجرم ان الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون﴾. ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾. ﴿وماجعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول﴾. ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين ... وليعلمنَّ الله الذين امنوا وليعلمنَّ المنافقين﴾.

وفي الحقيقة؛ من الصعب احصاء كل آفاق العلم كما وردت في القرآن الكريم ونحتاج الى تدقيق في تضاعيف الآيات التي وردت فيها كلمة «علم» ومقارباتها من فكر وعقل وشعور ودراية واحساس ووعي وخبرة وبصر وسمع... لتكتشف هذه الآفاق الرحبة والأهم والأخطر من الوان المعرفة أو العلم هو أنواع التفكير وسيأتي فيها بيان.

(٢)

لا نريد القول ان كل افق من تلكم الآفاق حالة قائمة بذاتها ومتميزة تماماً فهي بلا ريب آفاق متداخلة في حدود متفاصلة في حدود، والذي أراه ان الطرح القائم على التشخيص الحاد والفاصل بين هذه الآفاق صعب عسير، كما أنه يحجم انطلاقة العقل وانسياب المعرفة وامتداد العلم، ويتعهد داخل العقل الانساني قانون الحذر الذي يقيد الحركة ويكبح مغارة المعرفة ويكبل سياحة الفكر وقدراته على الخلق والإيجاد والإنشاء.

ان (العلم) في القرآن الكريم نظام مفتوح، يتمتع بقابلية الانسياب الحر على صعيد المصاديق والحالات والآفاق فها هو يعتبر السحر علماً رغم أنه معدود من ايهام الخيال في آيات اخرى. قال تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾. ﴿انه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾.

فالسحر بموجب هاتين الآيتين علم. ولكن ليس كل علم صحيح، هو علم لانه مجموعة قواعد وفنون، وربما يدخل ضمنها قانون السببية باستخدام مغلوط، ولذا نجد الكتاب الكريم يرتب نتائج وهمية على السحر. يقول تعالى: ﴿فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى﴾.

اذن هناك حقيقة وهناك سحر ﴿فلما القوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾.

ان العلم في القرآن الكريم نظام مفتوح.

(٣)

وكثيراً ما يقال: ان القرآن كتاب هداية وارشاد وايمان وليس كتاب علم في التأريخ او الفيزياء أو اللاهوت.

والواقع ان القرآن ليس كتاباً علمياً بالمعنى المذكور، أي هو ليس مجموعة نظريات في الفلك والكيمياء والرياضيات، ولكن هو كتاب «علم» كطريق وبيان وفلسفة الى معرفة الطبيعة والحياة والتأريخ ومن ثم للوصول الى الله سبحانه وتعالى، فالقرآن كتاب علم أولا وكتاب هداية ثانياً، والهداية الى الله والحق تتأتى من سلوك طرائق المعرفة والتفكير التي طرحها القرآن على شكل رؤى وتطبيقات من خلال آياته الشريفة من هنا وهناك.

إن القول: بأن القرآن كتاب يهدف الى تعبيد الانسان لله وتحكيم الهدف الإلهي في صناعة التأريخ وبناء المجتمع كلام صحيح وسليم ورصين، ولكن من اين يأتي تحصيل وتفعيل هذه الاهداف الانسانية النبيلة؟

هناك طرائق علمية يتوسل بها الى ذلك - فهي لا تأتي من فراغ، ولا تنزل من السماء، ولا تحدث فجأة أو صدفة.

وهنا ننوه الى مسألة مهمة جداً...

ان طرائق التفكير هي الاخرى علم، فالتفكير المنطقي المجرد او التجريبي الحسي المعاش او الخيالي التأملي... كلها علم. وسنأتي على سرد قائمة بانواع التفكير ان شاء الله تعالى.

(٣)
المقتربات العامة

ان دراسة القرآن للوجود والانسان تكشف عن تأسيس جوهري على صعيد العلم، هذا التأسيس يفيد أن العلم خاضع للتطور والنمو، أي زيادة الخبرة وامتدادها وتصاعد أرقامها في كل ما يحيطنا، ونحاول هنا ان نضع مخططاً بسيطاً لهيكل نظري يتصل بقضية (نمو العلم).

أولاً: ان هذا الوجود/ الكون منظم فضلا عن كونه حقيقة خارج مملكة الحس والادراك البشري، وذلك بغض النظر عن هوية هذا الواقع الموجود. مادة او روحاً أو طاقة أو أي شيء آخر تسفر عنه الحركة العلميّة عبر مسيرتها التي لاتقف عند حد معين بنص القرآن ذاته. ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾.

ثانياً: ان اسرار هذا الوجود / الكون نظام مفتوح، خزين من القوانين والانسقة والانظمة والسنن، وان محل اكتشافه يقود الى ما هو اعمق واخطر منه، فالعلم لايعرف سقفاً محدوداً ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾.

ثالثاً: ان العقل الانساني مزوّد بقدرات هائلة لاكتشاف الكون واسراره وطاقاته وقواه، وهذه القدرات شبكة هي الاخرى هائلة من وحدات ومكوّنات ملكة الفكر (الدراية، الرأي، العقل، الفكر، البصر، السمع، الوعي، الخبرة، الشعور، الاحساس...)، وان كل ملكة تشكل مستوى خاصاً من مستويات التفاعل مع هذا الكون.

رابعاً: ان العقل الانساني غير مسؤول عن التعرف على ماهيات الاشياء، وانما على خصائصها وابعادها وعلاقاتها وآثارها ووظائفها ونتائجها (ستأتي دراسة هذا الجانب..)، أي دراسة الموجود كظاهرة معطاة وليس كجوهر ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما اوتيتم من العلم الاّ قليلا﴾.

خامساً: ان البرهان عماد العمليّة العلميّة على اي صعيد وفي أي مجال وفي كل مضمار معرفي، وهو ضرورة عند الاثبات أو النفي ﴿قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾.

سادساً: ان العلم ليس خبرة أو معرفة في ميدان أو ميدانين من رحاب هذا الوجود. بل هو ميادين كثيرة تشمل كل امكانيات الظفر المعرفي (مجموعة المعارف عن النظر الكوني، الدين، الممارسة التطبيقة التقنية، البرهان، نتائج البرهان، الاستنباط وآثاره، النقد، طرائق التفكير، القيم والمعايير...) .

سابعاً: ان التفكير العلمي لايرتبط بلون واحد من الوان التفكير كأن يكون ذلك الذي يسمى بالتجريبي أو التأملي، وانما ينبسط هذا التفكير على كل مامن شأنه تحقيق موضوعية العلم (التأمل، الاستقراء، التجريب، التحليل، النقد، التركيب، البناء...).

ثامناً: ان العلم والمعلومات والمعرفة بشكل عام تنمي باطراد حركة الطبيعة وامتداد ظهوراتها المستمرة وتنوع خصائصها ﴿وهو الذي انزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون

والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾.

تاسعاً: ليس للعلم تعريف ضيّق بل تعريف يتسع طبق ممارساته التي تتمتع بخاصيّة الزحف والتشعب والتكثر أُفقاً وعرضاً، فهو مثلا:

(١) مطابقة الواقع ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾. ﴿ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾.

(٢) العلم: هو ما يحل المشكل!! ﴿فاسالوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون﴾.

(٣) العلم هو نفس الميادين التطبيقية للمارسة العلميّة، وفي اعتقادي انه التعريف الأوثق على الصعيد التربوي.

(٤) ما يمكن اثباته بالبرهان/ أمّا ما ينقضه البرهان فانه يدخل في مملكة اللا علم (Non ـ scieace). ﴿قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾.

(٥) العلم هو الكشف.

(٦) هو صورة الشيء المنطبعة في الذهن، وهذا تعريف منطقي بحت ويحتمل الكثير من النقاش.

عاشراً: لا شرط على العلم الاّ العلم نفسه وذلك في الدرجة الاولى وقبل كل شيء أو قبل كل شرط ﴿... لو كانوا يعلمون﴾.

حادي عشر: ان هناك تطابقاً بين العقل والطبيعة، وهذا التطابق المشترك هو الذي يسمح بامكانية المعرفة، وهو يتملى من خلال جملة من المقتربات المهمة نذكر بعضها:

(١) ان الكون منظم كما مرَّ بنا سابقاً، والعقل الانساني بحد ذاته منظم

أيضاً، كلاهما لا يطيق الفوضى، وهناك وشائج صلة بين النظامين، نظام الكون من جهة ونظام العقل من جهة اخرى.

(٢) ان العقل الانساني ميال الى تجسيم الحقائق حتى اذا كانت مجردة وتجربة الانسان شاهد شاخص على ذلك، والطبيعة في مستواها الاول هي هذه الاشياء، اوكد في مستواها الاول، لأن الطبيعة أرقى من هذا التصور البسيط.

(٣) ان العقل يميل الى تفسير الاشياء وبيان اسبابها وعلائقها او الكون قابل للتفسير وقابل للتحليل، وقابل للفهم والادراك.

(٤) ان العقل يحاول ـ تحت ضغط نظام ـ استشراف المستقبل، يهوى التنبؤ، والكون حركة متجددة ﴿كل يوم هو في شأن﴾، بل الكون بلحاظ بعض المقتربات القرآنية حاضر نحو مستقبل. ولذا فان العقل على امتداد الكون.

وهناك معالم تطابق اخرى نرجئ الكلام حولها. وهذه مجرد تصورات تحتاج الى شرح مطول.

ثاني عشر: ان التكميم هو آخر مرحلة للتعبير عن صرامة العلم وتجرده الرمزي الحاد. ﴿وكل شيء أحصيناه كتابا﴾.

ثالث عشر: والعلم مستويات تبعاً لقوله تعالى ﴿والذين اوتوا العلم درجات﴾ يبدأ بالحس العادي والصادق وينتهي بالدراية المستحيلة وبينهما درجات يستقرئ القرآن الكريم العقل بمجموعة هائلة ومتنوعة من المثيرات الكونيّة، ويسردهما امام عين الانسان بطريقة متلاحقه، متدافعة، والقرآن بهذه الطريقة ينظر الى الاستجابة التي تكون بمستوى المثيرات، وهو وان

كان في بعض الاحيان يضع الجواب أو يلوّح به، فانه في أحيان كثيرة ينتظر العقل يمارس هذه الوظيفة ﴿ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون﴾؟ والكتاب الكريم بهذا الاسلوب الفذ يحاول ترتيب علامة مسؤولة بين العقل والكون، وبالتالي ينظم العقل بالذات، أو بالاحرى يملأ نظام العقل بغذائه المناسب، اي العلم. على ان الكون رغم ثبات قوانينه هو متغير على الدوام، التغيّر أصل أصيل في هذا الوجود ﴿كل يوم هو في شأن﴾.

﴿والسماء بنيناها بايد وإنا لموسعون﴾، ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾، فاذا جمعنا الى هذه الحقيقة ضرورة التفكير الدائم كفريضة، ينتج لنا عقل متجدد من خلال اعادة ترتيب العلاقة بهذا الكون على ضوء الجديد، بل ان هذه المعادلة تتحقق طالما ان اسرار الكون خزين مفتوح. ويترتب على هذه العملية الواعية المتبصرة تغير فيه طعم العلاقة مع المحيط. وذلك باتجاه النكهة الفرحة والمسرورة، فان نمو العلم داخل العقل يولد سعادة وافرة.

ان القرآن الكريم يسعى وفق خطة تربوية ودقيقة الى تحويل العلم الى ثقافة، أي ان يكون العلم علاقته مع الواقع لا من اجل الفهم المجرد بل من أجل التغيير، تنسيق السلوك اليومي مع معطيات الناتج العلمي، تنشيط حاسة التلقي رغبة في الاضافة النوعية على مسرى الحياة، توثيق العلاقة المتوثبة بالواقع ليس باعتباره فلك الاشياء التي نراها ونسمعها فحسب، بل الواقع الذي يأتي دائما بالجديد.

ان نظرية العلم في القرآن تنشئ قلقاً وجودياً في داخل الانسان، ولكن هذا القلق يقود الى الاطمئنان الحي ﴿كذلك نُري ابراهيم ملكوت السماوات والارض .. فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا

أحب الافلين، فلما راى القمر بازغاً قــال هــذا ربــي ... فلمــا رأى الشــمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض...﴾.

ان نظرية العلم في كتاب الله تعتمد الوضوح كرسالة مهمة واساســية في مملكة المعرفة، ولذلك فان علائق العلم في طيــات الكتــاب العظيــم تتخطــى وتتجاوز ذلك المعطــى الحســي أو المجــرد ذا المعنــى المضمونــي وحســب، لتتواصل بــالنور والبيــان والاحاطــة والحــق والعــدل كــل معــاني الخــير والجمال.

(٤)
البيان كمدخل تحليلي

(١) يعتبر (البيان) من القضايا الرئيسية التي أولاها القرآن الكريم اهمية ظاهرة، فهو يشغل مساحة واسعة من بنية الكتاب العزيز. وقد وردت الكلمة باشتقاقاتها المختلفة المتنوعة في تضاعيف الخطاب القرآني اكثر من (٢٤٠) مرة الامر الذي يؤيد اهمية الموضوع وخطورته.

المعنى اللغوي الحقيقي للمادة هو الايضاح والانكشاف والافصاح والظهور، وذلك بعد الغموض والاجمال والابهام. هذا ما يمكن ان يستجمعه الدارس من مراجعة المادة في أمهات القواميس العربيّة. قال تعالى: ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾، أي اتضح وظهر. وقال تعالى: ﴿ثم انّ علينا بيانه﴾ اي شرح مجمله وايضاح مبهمه. وقال تعالى: ﴿... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر﴾ بمعنى يتضح ويظهر.

والبيان: الايضاح والكشف... ويسمى الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود. قال تعالى: ﴿هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين﴾ أي ايضاح وكشف.

(٢) العمدة في (البيان) الكشف والايضاح. هذا ماتفيده المعاجم اللغويّة.

ولكن في اي مجال يا ترى؟ وما هي آليّة هذا الكشف وهذا الايضاح؟

لقد جاءت كلمة (مبين) في القرآن الكريم وصفاً لأشياء كثيرة وفي ميادين

عدّة وذلك مثل (كتاب مبين، بلاغ مبين، اثم مبين، افق مبين، ضلال مبين، ثعبان مبين، نذير مبين، سحر مبين، لسان عربي مبين، عدو مبين، دخان مبين...) وهي تارة من (أبان) اللازم وذلك في كل ماهو واضح بنفسه ظاهر بذاته لسبب من الاسباب، كما في قوله تعالى ﴿ولاتتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين﴾، وذلك من الشيطان كتلة من الشر والعدوان، انه كائن جهنمي صرف.

وتارة من (أبان) المتعدي وبهذا فهو يقوم بعملية الابانة والتوضيح والكشف، كما في قوله سبحانه ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾. باعتبار ان القرآن يطرح بين يدي الانسان حقائق كثيرة عن الوجود والحياة والانسان والتأريخ ويرسم للبشر صورة في منتهى البيان والجلاء على صعيد السلوك المطلوب والعقيدة المثلى. وفي الحقيقة ان عملية البيان التي نصادفها في القرآن الكريم نجدها في مجالات عدة، مما يعني صلاحية استعمالها الواسع الفعال. والذي يهمنا هنا هو البيان في صيغته المتعدية لسبب سوف نذكره بعد حين.

(٣) يقول الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

ويقول جل وعلا ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾.

ويقول سبحانه: ﴿ماالمسيح بن مريم الاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وامّه صديقة كانا ياكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظـر انّـى يؤفكون﴾.

وقال تعالى: ﴿اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها قد بينا لكم الآيـات لعلكم تعقلون﴾.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانّا خلقناكم مـن تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقـة وغـير مخلقـة لنبـين لكم﴾.

والآن... ماذا نفهم من البيان على ضوء معطيات ومديـات هـذه الآيـات القرآنية الكريمة؟

أولا: ان البيان كما هو في معاجم اللغة يعني الشرح او بالأحرى الكشف والايضاح والاظهار. ويؤتى به لغرض ازالة الابهام والجهل والغموض .

ثانياً: ان هذه العمليّة التي يضطلع بها البيان، أي رفع الحجـاب المعـرفي عن المخفي أو المبهم أو الغامض انما تتم بواسطة آليـة مهمـة. انـهاالتفريق والتفريع والتفصيل والتفكيك، وبالتالي (التحليل). ومن هنـا جـاءت كلمـة (البينة) فيما يكشف عن الشيء ويوضحه، حسـياً كـان الشـيء او عقليـاً، والتبيان هو الشرح الكامل.

إنَّ مراجعة بسيطة لهذه المادة في تضاعيف الخطاب الالهي، سنرى أنـها تأتي ضمن أو في سياق حقائق وامور ومعلومات على مستوى الاحكـام أو التأريخ أو الكون أو الحياة أو الانسان أو الاخلاق أو الدنيا أو الآخرة. وان المادة تقع منها موقع الافادة والاكتشاف، ولذا كثيراً ماترد في نهايـة الآيـة

﴿كذلك يبين الله آياته للناس﴾. ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾.﴿ويبين آياته للناس﴾. ذلك ان ما قبلها أو اثناءها ارقام لاتقبل الشك. واضحة، نيرة، ظاهرة.

(٤) يقول تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾. ويقول: ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾. ويقول: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾.

ومن الواضح جداً ان (البيان) هنا ينصب على شيء مجمل أو مختصر أو عام أومبهم، وعمليّة البيان تهدف الى تفصيل هذا المجمل المبهم الغامض المختصر، وذلك امّا ببيان واعلان مصاديقه وافراده كما في حدود الله أو الخصائص والمواصفات كما في موضوع البقرة، أي بقرة بني اسرائيل... وهكذا.. فموضوع البيان هنا التوضيح والرد والكشف. وهو بالتالي عمل تحليلي تعريفي. قال تعالى: ﴿قد جئتكم بالحكمة ولابيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون﴾. وقال تعالى: ﴿وما انزلنا عليك الكتاب الاّ لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه﴾.

وقال تعالى: ﴿ليبين لهم الذي يختلفون فيه﴾.

والذي نستفيده من هذه الآيات المباركة انّ مهمة ﴿البيان) رفع الخلاف او بالاحرى تمييز الحقيقة من الباطل وفرز الصحيح من الخطإ الذي قد يؤول الى رفع الخلاف وتبديده، فالبيان هنا توضيح وابانة فاصلة قاطعة، الامر الذي يعطي البيان صفة العلم؛ لان العلم في التحليل الاخير لا يخرج عن دور الكاشف. قال تعالى: ﴿يا ايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير

مخلقة لنبين لكم﴾. وقال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحق﴾.

ان غاية البيان هنا اثبات (حقيقة) والبرهنة على (امكان) ما. وذلك من خلال سرد الشواهد التي توصل الى هذه النتيجة فنحن بين يدي عمليّة تحايل.

(٥) في الحقيقة ان عملية البيان، اي محاولة الكشف والايضاح والاظهار بواسطة التحليل والتفريق تحتاج الى أمرين أساسيين هما:

الاول: العقل والفكر.

الثاني: اللسان.

فنحن نتوسل بقوة الادراك (العقل) ومبادئه ومعارفه الى تحليل الشيء الغامض المبهم الى أجزائه أو جزئياته، خصائصه أو أفراده. وبدون هذا الجهاز الجبار لا يمكن ان نمارس هذا النشاط الفعال. ثم نحن بحاجة الى اللسان الذي من شأنه ترجمة هذه المعرفة الى كلام. وبدون اللغة تبقى عملية التحليل ناقصة، مبتورة، بل ميتة، وبالتالي فان (البيان) حصيلة تفاعل حي بين الفكر واللغة .

قال تعالى: ﴿الرحمن خلق الانسان علمه البيان﴾.

والبيان هنا هو المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير، وقد وصف القرآن الانسان بانه ﴿خصيم مبين﴾ ودلالة على قابليته اللغوية الفذة في اظهار الاشياء وايضاحها وشرحها.

(٦) ولأن البيان يتصل بهذه العملية العرضية الفخمة، نجد القرآن الكريم يعقد علاقة قوية وجوهرية بين البيان وبين المفردات الاخرى ذات

الصلة بهذا الافق الكبير. قال تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾. وقال تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾. وقال تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾. وقال تعالى: ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾. وقال تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾.

فالبيان والتعقل والتفكر والذكر والهداية والشكر والتقوى... شبكة مترابطة في المعنى والتأثير، ومن هنا يشدد القرآن النكير على اولئك الذين يجحدون الله ونعماءه وعلى اولئك الذين يخالفون شرائع الله وقوانين الفطرة وذلك بعد ان جاءتهم البينات؛ لان العلاقة بين البيان والهداية قوية متينة. قال تعالى: ﴿ولقد انزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلاّ الفاسقون﴾. قال تعالى: ﴿ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله﴾ .

(٧) ان اهم ما في (البيان) في الخطاب القرآني هو الجانب العرفي الذي يعتمد على الاستخراج والاستنتاج المستفادين من تحليل الامور والوقائع والظواهر سواء في مجال الحياة أو الكون أو التأريخ... ولذلك يشكل البيان مفردة مهمة واساسية في النظام العرفي القرآني، وطالما يأتي البيان ضمن شبكة من المفردات ذات الصلة بالافق الفكري والنظري للانسان كالعقل والفكر، ومن ثم بتلك المفردات التي تتصل بعالم السلوك، لان البيان يورث العلم والعلم يحدد الطريق ويشخص السبيل. ويبدو ان الآيات التي يأتي بها الانبياء ذات قوة هائلة على البيان والامر الذي يدفع اهل العقل الى اعتبارها (سحراً). ان هذا الوصف يستبطن اعترافاً بالقوة البيانية لهذه

الآيات. قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾. وقال تعالى: ﴿ان هذا إلاّ سحر﴾. وقال تعالى: ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر﴾. وقال تعالى: ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا الاّ سحر مفترى﴾.

ما الذي يدعو هؤلاء الى توصيف هذه الآيات بالسحر؟! لم يكن ذلك بدافع التشويه المقصود أو الحرب الاعلامية؛ لان الآيات المذكورة قوة من البيان الظاهر، قوة من البيان الذي يتمتع بقابلية فذة من الإقناع واشباع العقل والضمير، وبسبب هذه الخاصيّة، قالوا عنها سحراً. فيما الآيات نفسها مدعاة ايمان زائد ويقين لا يتزعزع عند الآخرين. قال تعالى: ﴿... هم بأياتنا يؤمنون﴾.

(٨) الذي لاريب فيه ان موضوع (البيان) في القرآن الكريم يزودنا بدرس تربوي عميق يتصل بصميم المعرفة، ان كلامنا ينبغي ان يتسم بالوضوح. وان حديثنا عن اي قضية يجب أن يكون سهلا يسير الفهم قدر الامكان، وان تحليل الاشياء والظواهر والوقائع مدخل اساسي ورئيسي لفهمها ووعيها ومدخل منطقي لإثبات الكثير من الحقائق والمطالب.

ان (البيان) في القرآن الكريم ليس رصفاً للكلمات الجميلة أوتنسيقاً بلاغياً أو صورة مشرقة من التعبير اللغوي بل هو عملية تحليل ناجحة وصحيحة للامور المبهمة، تحليل بنيوي، عضوي. يستطيع الانسان من خلالها الالمام بخصائص الشيء أو صفاته أو علاقاته، وهي سرد للحقائق التي من شأنها أن تقود لإثبات مطلب محدّد. فالوضوح المستفاد من البيان يستند الى اللغة من طرف ولكنه يتصل بالواقع من طرف آخر، انه ذلك

التفريع الذي يجلّي المبهم المخفي، تلك المحاولة لرصد الارقام التي تســاهم بشكل وافي في اثبات قضية مطروحة أو مسألة ذات نظر.

ان كلمة (البيان) في القرآن تمثل موقعاً ريادياً مــن صميـم الآيـة. انــها ليست تعبيراً جمالياً أو تزويقياً بقدر ماهي اشارة الى عملية فكريّة ضخمة، ولذلك كثيراً ماتقع في قلب القصد من الآية والهدف منها. ولذلك لاغــرو ان تنعقد بينها وبين العقل والفكر والهدى والضلال أواصر عميقة.

الفصل الثاني

التفسير المعادلاتي

(١)
(الفكرة)

تَسود القرآن الكريم مجموعة كبيرة من المعادلات، هـــذه المعــادلات ذات طبائع متعدّدة متكثرة، فهناك المعادلـــة الكونيّـة والاقتصاديّـة والأخلاقيّـة والسياسيّة، فالقرآن كثيراً ما يربط بين عنصرين على نحو مـا. وهــذا هــو مقصودنا بالمعادلة.

قال تعــالى: ﴿لئـن شـكرتم لأزيدنّكـم﴾. قـال تعـالى: ﴿إن تنصـروا الله ينصركم﴾. قال تعالى: ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾.

فنحن هنا امام علاقة ما بين موضوعين (الشكر وزيادة النعم، الركـــون الى الطغاة والمصير الجهنمي...)، اي اننا في مواجهة معادلة. وتتحدّد هويّـــة المعادلة من الطبيعة العامّة للعناصر المكوّنة لها. كما ان طبيعة العلاقــة لهـا دور في تحديد هذه الهويّة او الصيغة.

المفسرون القدامى والمحدثون كثيراً ما يلتقطـون هـذه المعادلـة او تلـك، وكثيراً ما يعملون مشكورين على تشخيص العلاقة بين الشقين، سـببيّة ام شرطيّة ام.. ام..، وقد قرّبوا بذلك فهم كتاب الله تعالى للناس وزوّدوا الفكر الانساني بمادّة قرآنيّة غزيرة رائعة. ولكن في الحقيقة ان هذا لا يكفي، ذلك ان المحاولة هذه تعبر عن جهد منصب على المعادلـة كهيئـة قائمـة بذاتـها،

تتجسد بين شقين، والجهد المذكور يتردّد في فضاء معادلة مُسمّاة بموضوعيها في حين ان القضية يجب ان تتخذ طابع المنهج ثم نفسّر المعادلة على ضوء هذا المنهج ذلك ان كل معادلة مجموعة من المقتربات والنقاط والاشارات. للمعادلة طرفاها، وللمعادلة جذرها، وللمعادلة شروطها، وللمعادلة نتائجها. كذلك للمعادلة معاملها. والمعادلة قد ترجع الى ما هو اوسع منها... وهكذا... وعليه: يمكن ان نقول: ان هناك ما نستطيع ان نعنونه بـ (التفسير المعادلاتي للقرآن الكريم).

(٢)
(المنهج)

نحاول الآن ان نطرح بعض معالم هذا المنهج عبر نقاط متسلسلة، وهي:

أولاً: تحديد المعادلة بطرحها الاوّلي، اي تشخيص الآية ذات البنية المعادلتية المثبتة بطرفيها او شقيها او عنصريها... او كما قلنا: ان هذه المعادلة قد تكون ذات منحى عقيدي او ذات رؤية اجتماعيّة او طرح اقتصادي... وفي الواقع ان اكثر من معادلة ومعادلة في الخطاب القرآني قد تتجسّد في اكثر من آية واخرى، ومن المستحسن هنا اختيار الآية الواضحة البيّنة. ولا مانع بطبيعة الحال من درج الآيات الاخرى حَسب تسلسل درجة الصراحة وعمق الانكشاف.

ثانياً: نحاول جهد امكاننا اكتشاف (مُعزِّز) للمعادلة المثبتة، وذلك مثلاً - اذا وجدت آية تعقد علاقة اثبات بين ضدي موضوعي المعادلة (الآية) التي هي محل التجربة والدراسة والنظر، فالقرآن الكريم يبني علاقة اطراد

بين الشكر وزيادة النعم، فهل هناك نص قرآني يوضح هذا الاطراد بين كفران النعمة والقحط مثلا؟.

ثالثاً: لابد ان نقوم بعملية تعريف قرآني دقيق لكل موضوع من موضوعي المعادلة القرآنيّة. بل هو الخطوة الثانية بعد تشخيص المعادلة. وفي اعتقادي ان هذه الخطوة في غاية الضرورة لامكان التسلسل المنطقي الصحيح لفهم المعادلة كفضاء وبناء ونتائج.

ورابعاً: العودة بالمعادلة الى معادلة اوسع، اي نحاول ان نجعل منها مصداقاً او فرداً لبُنية معادلاتيّة ذات مجال اشمل ومضمار اكثر مَدىً.

خامساً: تثبيت جذر المعادلة المسؤول الحقيقي عن انبعاثها وتأسيسها وصيرورتها، ومتابعة حركة المعادلة على ضوء الجذر المؤسّس.

هذه اهم خطوات المنهج. وهي خطوات عامّة. وقد لا تجد كل فقراته موقعاً تطبيقياً في العمليّه. اي في تفسير المعادلة منذ طرحها وحتى اكتشاف جذرها المكوِّن.

(٣)
(نموذج تطبيقي ـ ١)
معادلة اخلاقية

قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

هذه الآية الشريفة عبارة عن معادلة واضحة. لها طرفان مشخصّان بصراحة، هما على الترتيب:

١ ـ الشكر. ٢ ـ زيادة النعم.

وتقرير المعادلة هو:

ان الشكر يؤدي الى زيادة النعم، وبعبارة اكثر انسجاماً مع فكرة المعادلة، ان هناك علاقة اطرادية بين الشكر وزيادة النعم. وهو ما يعرف بلغة الرياضيات (المعادلة الأُسيّة)، ومفادها ان اي تغيير طفيف في احد طرفي المعادلة يستتبعه ازدياد مطّرد في الطرف الثاني.

اذن، هذه المعادلة تتقوم بطرفيها من جهة وبطبيعة العلاقة المنعقدة بين هذين الطرفين من جهة اخرى.

وقبل ان نلج في تتبع خطوات العمل. علينا ان نعرف أمرين:

اولا: ما هو الشكر؟

ثانياً: ما هي النعمة؟

الشكر في نطاق الفكر الاخلاقي الاسلامي تصور النعمة واظهارها، ويعود في الأساس الى اصله اللغوي الذي هو (الثناء) باللّسان على انسان بمعروف يُوليه كما في معجم مقايس اللغه. وكما في فروق اللغه: الشكر: هو الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم. وعلى هذا الاساس وبلحاظ مجموعة مقتربات لا مجال لبيانها هنا، فان الشكر في فكرنا الاسلامي على ثلاثة مستويات:

المستوى الأوّل:

الثناء القولي، المدح والإطراء وربما الاعتراف باللّسان، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿اشكر لي ولوالديك﴾.

المستوى الثاني:

ابراز النعمة واظهارها للعيان بالمستوى الذي يُبدي نعمة الله للخارج والعيان ﴿واما بنعمة ربك فحدّث﴾.

المستوى الثالث:

العمل بتعاليم واوامر المنعم، طاعته والسير في فلك ارادته التشريعيّة والاخلاقية والقانونية، وهو ـ كما يبدو ـ مفاد قوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾.

هذه صورة موجزة مكثفة عن معنى الشكر في القرآن الكريم. شكر الله تعالى، ونكتفي بهذا المقدار السريع لانه كمدخل وليس كموضوع.

اما النعمة فهي الحالة الحسنة في اللغة، والنْعماء بازاء الضرّاء. والنْعمى نقيض البؤس، والنّعمة في القرآن الكريم وبلحاظ نسبتها الى الله هي هذه الخيرات والبركات التي يزخر بها الوجود، ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾. ومنها نعمة الايجاد والحياة بكل ما تعنيانه من مفردات ودلالات. ومنها نعمة الايمان والاسلام. ومنها نعمة العقل والبصر والسمع... الخ. وهي كلها من الله وبفضله ورحمته جلّ وعلا.

والى هنا استفدنا مايلي:

انّ شكر الله تعالى، لساناً او اظهاراً او عملا... يؤدي الى اطّراد النعم واتساعها وتكثرها وتولّدها، وبطبيعة الحال، ان هذا الاطراد يتأثر بمستوى الشكر وبسعته وكمّه وعمقه، فالشكر على مستوى الاظهار أدعى في مدى التأثير من الشكر على مستوى اللّسان، مثلا، والشكر الذي هو افراز المستويات الثلاثة في آن واحد... اكثر فاعليّة في تحقيق النتائج المترتبة من الشكر الذي هو على مستوى واحد. وهكذا.

اعتقد من هذا العرض السريع المتلاحق الموجز تكون المعادلة قد اكتسبت

شيئاً من الوضوح النسبي الذي يؤهلنا للدخول في المرحلة التالية.

هل هناك ما يعزّز هذه المعادلة في القرآن الكريم؟

في الحقيقة: من السهل جداً العثور على مثل هذا الدليل المعضِّد او هذا المعزّز من تضاعيف الخطاب القرآني الكريم.

قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾.

والكفر بنعم الله. هو عدم اضافتها لله جلّ وعلا بالشكر لساناً او طاعة او اظهاراً كل على انفراد او معاً، باي صورة كان ذلك. ومن الواضح جداً العلاقة القوية المتينة بين موضوعي المعادلة المطروحة.

* الكفر بالنعمة.

* الجوع والخوف.

وكما هو معروف ان كفران النعمة ضد شكرها او بالأحرى الشكر عليها، كما ان زيادة النعم على الضد تماماً من الجوع والخوف.

اذن هناك ما يُعزز المعادلة التي هي موضوع النموذج (الشكر ⇦ اطراد النعمة)

وذلك من خلال العلاقة الثابتة بين نفي العنصرين او الشقين (الكفر ⇦ الجوع والخوف). ويمكننا ان نعثر على اكثر من آية في سياق هذا التعزيز.

هنا سؤال... ولماذا لا نجعل من معادلة هذه الآية هي المشروع، وقوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ هي المعزّز؟. وهو سؤال مُسوّغ ومبرّر ومعقول. ولا يوجد اي مانع من القيام بهذه المحاولة كما انها لا تضرُّ

بالفكرة على الاطلاق، والموقف متروك لذوق الباحث والدارس، ولكن اعتماد الايجاب أولى من السلب في مثل هذه المجالات.

اذن الى هذه اللحظة نكون قد انجزنا الخطوات التالية:

* تشخيص مشروع المعادلة: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾. (الشكر ⇦ الزيادة في النعم).

* تعريف شقي المعادلة: (الشكر: الثناء، الاظهار، الطاعة النعمة: الخير والبركة...)

* العثور على المعزّز: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾. (كفران النعمة ⇦ الجوع والخوف).

وجاء الآن طرح السؤال التالي:-

هل هناك معادلة اوسع بحيث تحتضن وتتضمّن معادلة المشروع؟!

وفيه الواقع على مستوى قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾

والمتمثل بالرسم (الشكر ⇦ الزيادة) يمكن ان يندرج في اطار قوله تعالى في محكم كتابه: ﴿الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

كيف؟ ان الشكر وبأيِّ مستوى من المستويات فردٌ من افراد الذكر، او هو ذكرٌ على ايِّ حال، ذكر لساني او عقلي، بل لعلّه من افضل واشرف انواع الذكر الواردة في الشرع الاسلامي او الفكر الفلسفي.

وانّ اطمئنان القلوب يتجسّد في قضايا كثيرة، ولعلَ من هذه القضايا هو زيادة او اطراد النعم. قال تعالى: ﴿وانّه لحب الخير لشديد﴾. وقال تعالى: ﴿وتحبون المال حبّاً جما﴾. وقال تعالى: ﴿... فليعبدوا ربّ هذا البيت، الذي

اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.

فان وفرة النعمة وتناميـها وتكثرهـا يَسـرّ القلـوب ويبعـث الاطمئنـان في صميـم الـذات الانسـانيّة. وهـي مسـألة حسـيّة متوفـرة في داخـل سـلوكنا وتصرّفاتنا، كما ان تراجع النعم وانحسارها يبعث القلق والهم والاضطراب.

اذن وتأسيساً على ما مضى يمكـن ان نتصـور انـدراج المعادلـة (لئـن شكرتم لأزيدنّكم﴾ضمن اطار اشمل واوسع وارحب، هذا هو قولـه تعـالى: ﴿الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

لنقرأ:

قال تعالى: ﴿الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

وبهذا نكون قد انجزنا اربع خطوات...

الخطوة الاولى: طرح المعادلة.

الخطوة الثانية: التعريف بالشقين.

الخطوة الثالثة: عنصر التعزيز.

الخطوة الرابعة: الاطار الاوسع ﴿الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

ولكل معادلة جذرها الذي تنشأ منه اساس تكويني وتأسيس تنبع مـن داخله وتستمد منه حيويتها وزادهـا. فالمعادلـة المطروحـة ﴿لئـن شـكرتم لأزيدنّكم﴾ترتكن الى جذر تأسيسي حيوي ناشط فاعل، لـه القابليّـة علـى ترسيم وصياغة سلسلة من المعادلات الضخمة.

قال تعالى: ﴿فاذكروني اذكركم﴾. هذا هو المنشـأ الاولي، الجـذر البعيـد، القاعدة القصيّة، المنبع الحيوي، انه ذكر الله تبارك وتعالى.

ومن تقدير الرحمة ان تقترن المعادلة المشروع بالجذر على نحو لاصق وتابع ومتفرّع.

قال تعالى: ﴿فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾.

قال الطبرسي: الذكر: حضور المعنى للنفس وقد يكون بالقلب وقد يكون بالقول، وكلاهما يحضر به المعنى للنفس.

وقال ايضاً: قيل معناه: اذكروني بطاعتي اذكركم برحمتي...عن سعيد ابن جبير رحمه الله.

وقيل معناه: اذكروني بطاعتي اذكركم بمعونتي... عن ابن عباس.

ومهما قيل، فان مدى الجذر اوسع ممّا قاله سعيد ومما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: اذكروني بالاستغفار اذكركم بالتوبة. اذكروني بالشكر اذكركم بالاستزادة. اذكروني بالدعاء اذكركم بالاستجابة... هذا هو مدى الجذر.

نحن هنا نقوم بعمليّة هي اشبه بعمليّة الاشتقاق الرياضي. معرفة معادلاتيّة تتولد بعضها من بعض. لنقرأ هذا المسلسل القرآني الرائع:

﴿اذكروني اذكركم......﴾. ﴿الاّ بذكر الله تطمئن القلوب....﴾. ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم.....﴾.

واذا اردنا ان نوزّع هذه الآيات ضمن عناوين نظميّة مؤسّسة. يمكن ان نطرحها وفق التصور التالي:

اولا: الجذر: فاذكروني اذكركم.... المفسّر.

ثانياً: المجال: الا بذكر الله تطمئن القلوب... الاطار الاوسع.

ثالثاً: المصداق: لئن شكرتم لأزيدنّكم... المعادلة المشتّقة.

وبهذا نكون قد انجزنا الخطوة الخامسة التي هي: (تعيين الجذر المؤسِّس).

وفي الواقع لم يكشف الجذر المذكور بعمليّة تفسير اوّلي سريع، بل امتدّت صلاحيته لمعالجة اقصى اطراف المعادلة / المشروع. اقصد طرف الاستزادة، فان الجذر قد احتاط لها بمبرر ميتافيزيقي يرتبط بالغيب ارتباطاً سببياً وثيقاً. قال تعالى: ﴿... ولذكر الله اكبر﴾.

ان انعكاسات ذكر الله تعالى على الذاكر في مدياتها وَموجها تتجاوز الى حد كبير كل مُعطيات الذاكر بحق الله جلّ وعلا، بل لا توجد هناك مناسبة للمقارنة او الموازنة بين العطاءين أو الأثرين، بل المقارنة منتفية، لأن معطيات اي عبادة انسانية تعود على العابد نفسه وليس لها ايُّ عائد على الله تبارك وتعالى... وبهذا نقتنص نقطة التفسير في الجذر للمعادلة المشروع في اقصى طرفيها، ذلك انّ ذكر الله تعالى يتجاوز في استدعاء رحماته وعطائه ما ينتفي معه كل عطاء من جهد الذاكر الى جانب الله سبحانه. فالانسان عندما يشكر الله انما يذكره. وجزاء من الله على ذلك يذكر هذا الشاكر برحمته على مديات غير محسوبه ولا محدودة. قال تعالى: ﴿ عطاءً غير مجذوذ﴾.

ترى هل هناك معادلة بلا شروط؟

بطبيعة الحال... لا.

كل معادلة تتحقق على متن الفعل بشروطها. والمعادلة / المشروع لها شروطها الخاصّة التي تنعدم بانعدامها. ويبدو ان اهم شرط في هذا الصدد هو الوعي، ان يعي الانسان الشكر. ان يفقهه بسرّه العميق وبجوهره الذي يتميز به، ثم ان يكون على دراية راقية بمفهوم النعمة، ودراية مداها

وانواعها. وقد صوّر أهل البيت عليهم السلام العلاقة الواعية بين الشكر والنعمة في اطار رائع من المعرفة الدقيقة الواعية.

يقول الامام العسكري عليه السلام: (لا يعرف النعمة الاّ الشاكر ولا يشكر النعمة الاّ العارف).

وقبل ان اختم هذا البحث السريع يحلو لي ان ادرج هنا المسلسل السابق على لسان أهل البيت عليهم افضل الصلوات:

* شكر النعمة اجتناب المحارم وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين. الصادق عليه السلام.

* من شكر النعم بجنانه استحق المزيد قبل ان يظهر على لسانه. امير المؤمنين عليه السلام.

* انّ الله منّ على قوم بالمواهب فلم يشكروا فصارت عليهم وبالا.

* لا يعرف النّعمة الاّ الشاكر ولا يشكر النعمة الاّ العارف. الامام العسكري عليه السلام.

﴿واذ تأذّن ربُكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم انّ عذابي لشديد﴾

(٤)
(نموذج تطبيقي - ٢)
معادلة اجتماعية.

قال الله تعالى: ﴿ذلك بان الله لم يك مغيّراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وانّ الله سميع عليم﴾. والمعادلة واضحة، علاقة بين مصير النّعمة من جهة وحقيقة المحتوى الداخلي للانسان من جهة اخرى. علاقة تأثير متبادل.

قال الطبرسي: معناه: بان الله لم يكن يزيل نعمةً انعمها على قوم حتى يتغيروا هم عن أحوالهم المُرضية الى احوال لا يجوز لهم ان يتغيروا اليها. وهو ان يستبدلواالمعصية بالطاعة وكفران النعمة بشكرها.

هذه هي المعادلة اذن... طرفان والعلاقة... معادلة كاملة، متوازنة، متعادلة.

* ترى هل هناك ما يعزّز هذه المعادلة؟.

قال تعالى: ﴿لقد كذبت رُسُل من قَبلك فصبروا على ما كُذبوا وأُوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾.

الصبر تعبير عن هيئة ذاتية نفسيّة تجسّد الايمان والصدق مع الله والمبادئ، اي عبارة عن محتوى داخلي ذي سياق عقيدي وفكري مشخص. وذي اتجاه مبدئي حازم وحاسم لا يتزعزع، واذا كان هذا هو المحتوى الداخلي، فان نصر الله هو النعمة التي ترتبت كجزاء على تلك المقدّمة. وبذلك تتحقق معادلة واضحة، وهي بلا ريب تعزّز المعادلة / المشروع. ولو انّ هذا الصبر تحوّل الى جزع وملل وضجر، لتغيّرت النتيجة، واتجهت اتجاهاً مُغايراً.

* ترى هل هناك اطار اوسع؟

قال تعالى: ﴿انّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. فنحن بين يدي معادلة عريضة جداً، فان طرفيها يمكن التعبير عنهما برموز جبريّة كدوال، ولك ان تدرج تحت كل رمز ما تشاء من افتراض، سواء هذا الافتراض ينتمي الى الطرف الاول او الثاني.

* ترى هل هناك جذر مُفسِّر لهذه المعادلة عبر حركتها؟

قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورَها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها﴾.

* ما هي ظروف واجواء تحقق المعادلة؟

الإصرار على الخطأ وعدم التبصّر وغلق الاسماع عن آيات الهدى والرشاد، فان مثل هذه الاجواء المشحونة بالعداء للحق والحقيقة توفر عوامل تحقق المعادلة في صميم الواقع. ولعل قوم نوح يجسّدون مثلا تطبيقياً حيّاً في هذا المجال. وكل قوم يقتفون ذات السلوك وذات السيرة. قال تعالى: ﴿فدمدم عليهم ربّهم بذنبهم فسوّاها﴾.

(٥)
(نموذج تطبيقي ـ ٣)
معادلة حضارية

من المعادلات الماضية الراسخة في تركيبة وذاتيّة الفكر الاسلامي المستوحى من كتاب الله تلك العلاقة الضروريّة بين نوع الكلمة والوجود، لأن الكلمة في قاموس القرآن وبالتحليل الدقيق عبارة عن (فعل)، عبارة عن ممارسة حيّة تحملُ في طيّها البعيد صبغة قائلها او بالأحرى فاعلها، فالكلمة ليست كياناً لغوياً مجرّداً، وانما هي تجسّد ارادة. والارادة تفرز اثراً. والاثر يخلق نظيرهُ على امتداد طاقته وحيويته وقدراته.

تأسيساً على ما مضى تتكون لدينا معادلة. تكون فيها (الكلمة) المعادل الموضوعي (للفعل) وهو ما نقرؤه في كتاب الله عزّ وجل. يقول تعالى: ﴿كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي اكلها كل حين...﴾.

وفي الحقيقة ان المعادلة واضحة في الآية الى درجة الاشراق. وبودي ان اقول ان (ك) هنا ليست للتشبيه المجازي بقدر ما هي لتجسيد الواقع او لتجسيد الكلمة كواقع، هذا الواقع يتمثل في النهاية فعلا سارياً ماضياً منساباً على مدى استعداده الفذ المستمد من نوع الكلمة وهويتها.

انّ الكلمة الطيبة كفؤ الفعل الخيّر.

هذه هي المعادلة في صورتها الاولى...

الآية الشريفة التي تطرح هذه المعادلة تلحقها بالمعزّز الذي من شأنه أن يفعّل المعادلة في تضاعيف الاعتقاد وبُنيات التصور. يقول تعالى: ﴿كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي اكلها كل حين باذن ربّها ويضرب الله الامثال للناس لعلّهم يتذكرون * ومثلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار﴾.

والمثل المضروب هنا ليس وسيلة تعليمية ولا توضيحيَة بل هو مثل يرتبط بالتجسُّد الفعلي، المثل الشاخص الحاضر الملموس المتوثب.

اذن وبمتابعة السرد السابق نكون قد طوينا مرحلتين بنجاح، تأسيس المعادلة واكتشاف الداعم المؤكدّ او المعزّز... ولكن اين يكمن الإطار الاوسع؟ اين هي المعادلة الكبرى؟

قال تعالى: ﴿فأمّا الزبد فيذهب جُفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض...﴾... حقاً، انها المجال الذي تجد فيه المعادلة السابقة مكمنها المناسب وحاضنها الحقيقي وراعيها الصادق. فالكلمة الطيبة باعتبارها فعلا خيراً انما هو من مصاديق ما ينفع الناس، ولنا ان نستوعب هذا التجاذب الحق بين (الاصل الثابت في الارض والفرع الممتد من جهة وهذا

المكوث في الارض) فان المعادلة الأوسع قد غذت المعادلة / المشروع بكل روحها وعصارتها وجوّها، اعطتها هويتها الراسخة. وهكذا نكون قد ظفرنا بالخطوة الثالثة... وليس من العسير التقاط الجذر المؤسس الذي هو البداية.

ان الجذر المؤسّس لهذه المعادلة هو الجذر المؤسّس لكثير من المعادلات التي تسود الكتاب العزيز. انه الجذر الذي يؤكد:

(أصالة الحق في الوجود)... قال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازلَ لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الاّ بالحق يفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾.

قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾، ﴿الم تر أن الله خلق السماوات والارض بالحق﴾؟

واصالة الحق فيما نحن فيه تعني: ان كل ما يتطابق وينسجم مع قوانين الكون والحياة يبقى ويستمر ويعطي ويثري. وذلك بديهي واضح، لانه يجد بسهولة اجواء تحققه ونموه وتطوره. وكل ما هو خلاف هذه القوانين يهلك ويبور ويتداعى. قوانين الوجود تتظافر باتجاه الحفاظ والديمومة والعطاء، ولولا هذه الحقيقة لانتهى كل شي منذ امد بعيد. وحتى اذا طرأت على الوجود سلطنة الشر والخراب، فانها سلطنة عابرة تزول وتعود قيادة الخير لتستلم ازمّة الكون. وها نحن نسمع بملء اذاننا ان الطبيعة راحت تنتقم من مخربيها ومدمّريها، وصيحات الانذار اخذت تجلجل في كل انحاء العالم من اجل انقاذ الحياة... اذن الحق هو الأصيل... وما يمكث في الارض تعبير عن هذا الحق. وبالتالي يفسُر بشكل طبيعي

العلاقة الحيّة بين الكلمة الطيبة (الفعل الخير) والوجـود الرحيـب. ويتعـين (أذن الله) شرطاً كونياً لسريان هذه المعادلة وتحققها.

هكذا نكون قد اكملنا المشوار: المعادلة المشروع، الداعم، المعـزّز، الاطـار الاوسع، الجذر المؤسس، الشرط الضروري.

(٦)
البناء الفوقي

هذه ثلاثة نماذج سريعة طرحناها لتطبيـق المنـهج، وفي القـرآن الكريـم عشرات بل مئات الشواهد او المعادلات التي تخضع لهذه المسيرة من الفهم والتفسير. الشيء الذي نريد الإلمـاع اليـه هنـا... ان الـدارس يسـتطيع ان يؤسِّس او يشكل محطات ضخمة بين خطوات المنهج، ومن خـلالهـا يقـوم بعمليات انتاج معرفي غزير وثري، فعلى اعتاب كل خطوة وبين كل خطـوة واخرى تستقر حقائق قرآنية تتصل بكـل جوانـب الحيـاة. حقـائق رائعـة ونيرة، ومنها يمكن ان ننســج قوانـين واسـتحقاقات ومعـالم وتصـورات وافكاراً ومفاهيم.

ولنضرب هنا مثالا سريعاً، لقد استعرضنا معادلة الشكر واطراد النعم، وتسلسلنا بهدوء من المعادلة الى جذرها المؤسِّس... ولكن على اعتـاب هـذه المسيرة يمكننا ان نسجّل الملاحظات التالية:

* ان الشـكر اجمـل وأهـم وأخطـر عمـل عبـادي في نطـاق الممارسـة الاسلاميّة الاخلاقيّة.

* ان الشكر من اسباب التواصل والتقادم على صعيد الحياة بل الوجود بمفهومه المعطاء.

* ان الشكر على مستوى الطاعة من ابرز معالم السلوك النبوي الكريم.

* ان الشكر ضمن المعادلة السابقة (الشكر ⇦ الزيادة) ليس هو الشكر الفردي، لان المعادلة لا تهندس لحياة شخص ومصير فرد بل لتاريخ مجتمع بدلالة الجمع، اي ان الآية تطرح لنا قانوناً تأريخياً وسنّة حضاريّة، يتحدّد بموجبها بعض مسارات التاريخ الانساني وقد ظلم المفسّرون الآية الشريفة عندما تعاملوا معها من منطلق الاحساس الفردي الطاغي، ومرد هذا الخطأ ليس هو فقدان الوعي بجوهر اللغة بل هو فقر التجربة الحياتيّة التي خاضها المفسّر عبر عمره الطويل. وكثيراً ما نصادف مثل هذا الاخفاق في فهم القرآن الكريم. ولنا في هذه القضية موضوع طويل.

* ان الشكر انما يؤدي هذا الدور لسببين رئسيين: الاول: سبب مادّي يتصل بالجانب التطبيقي لشريعة الله عز وجل، والشريعة في دور التطبيق عمليّة خلق وتجديد وبعث واحياء، اي بناء بكل معنى الكلمة. الثاني: رحمة الله جلّ وعلا التي وعدها الشاكرين من الامم والشعوب والمجتمعات. والشريعة في النتاج الأخير هي اوضح مصاديق هذه الرحمة، ولذا فان الجذر المؤسّس يتجاوز المادّة ليتواصل مع الغيب المطلق.

ترى ماذا نسمّي هذه الاستحقاقات؟

انها ليست معلومات لان المعلومات تُلقى بين يدي القارئ او السامع من طرف آخر. ولا هي تفسير لان التفسير توضيح لمبهم او غامض... انها انتاج معرفي.

ان التسلسل المعادلاتي الذي مرّت بنا بَعضْ امثلته عبارة عن تفسير وفق منهج مُعين الخطوات، لم يأتِ بشي جديد سوى إظهار التماسك

القرآني الفذ، وهو تفسير يخلق حالة من الاطمئنان لدى المسلم في اطّلاعه على منبع المعادلة وكيفيّة شأنها وجريانها. ويضعه في صورة واضحة، امّا هذه اللقطات فهي البناء الفوقي، انّها المعرفة القرآنيّة... فنحن نستلم المعلومات ونتفهم المنهج، ونطلع على التفسير لنخلق المعرفة، لان المعرفة عبارة عن تركيب جديد واكتشافات جديدة من معلومات مُعطاة، بعد اعمال التجريد والفكر والذوق والثقافة. ونحتاج الى عالم فذ يلتقط المعارف من كل مستوى ومن كل خطوة ثم يدمجها في مركب معرفي واحد... اي يسير بنا من التفسير الى انتاج المعرفة.

الفصل الثالث

الكلمة في القرآن

مقاربات في المجال الدلالي والوظيفي

(١)

أعطى القرآن الكريم (الكلمة) مجالاً وَظيفياً واسعاً وفاعلاً يتجاوز بمراحل نوعية ذلك الافق الضيق من الاستعمال القاموسي، فالكلمة من خلال رصد استعمالاتها في نطاق الوحي طاقة حسية تتوزع ببراعة وبجدارة في مسارب متعددة ومتنوعة من الاشارة والبيان والاعلان، فكانت عبارة عن حركة بين الصيرورة وتاريخ من التوكيد الوظيفي الفائق على الاشياء والحوادث، إنها امكانية هائلة من الدلالات التي تتفاصل على بُعد نوعي واضح وعميق من المسافات.

في الحقيقة: لاستعراض مثل هذه الدلالات لا بد أن نشير، الى أن مادة (الكلمة) في الكتاب العزيز تحركت في اشواط متسارعة من الاشتقاقات والصيغ، وذلك من آليات الاستعمال ودرجة حركته، بل هي احدى مؤثرات الاهتمام في أي مادة لغوية في أي عمل فكري أو أدبي أو فلسفي [كلّمه، كلمة، كلّمهم، أكلّمَ، تكلّم، تكلّمنا، تكلمهم، تكلمون، تكلّم، يكلّم، يكلّمنا، يكلّمه، يكلّمهم، تتكلّم، يتكلّم، يتكلمون، كلام، كلامي، كلمة، كلمته، كلمتنا، كلمات، كلماته، الكليم، تكليما]، وهذه الحركة السريعة من الصيغ ترتبط بقضايا رئيسية من صلب عقيدة تفسر الكون أو تصور يكشف عن قوانين الحياة والتاريخ أو رؤى في انماط الوجود وتجلياته أو قواعد الخطاب

البشري ببعده الجدلي المثير، فهي ـ أي الكلمة ـ بحملــها الاولي أو بمادتــها الانشائية دخلت مسيرة النص الالهي القاصد الفاعل!!

هنا، وعوداً على بدء، نقول: ان كثرة الاستخدام ليست وحدهــا مؤشــر العناية في الموضوع الذي نحن في صدده، بل أيضاً، وربما مثل ذلــك موقــع هذا الاستخدام من جوهر النص، الخطاب، ومراجعــة دقيقــة لاســتعمالات الكلمة في القرآن الكريم تطلعنا على موقع متمــيز؛ لانــه في بعــض الاحيان يجسّد عينية خلاقة، فضلاً عن كونها في احيان اخرى آليَّة فعل. وليس مــن ريب ان الانتقال بمعنى (الكلمة) من ذلك الحيز الذي لا يتعدى (ما ينطق به الانسان مفرداً أو مركباً) الى متون ومضامين تترسم الواقع والوجود، انمــا هي نقلة نوعية كبرى، ولا يرى ابــداً أن هــذه الاســتعمالات امتــداد لغــوي صرف للمعنى القاموسي المعروف، بل هـي استعمالات نابعة من تصور أو تقديرات خاصة للكلمة باعتبار انها نشاط متميز بخصائص جديــرة بــهذا الانتقال، وسوف تتضح لنا هذه الفكرة في سياق حديثنا اللاحق.

(٢)

جاءت الكلمة في القرآن الكريم وهي تعني التحــادث البشــري المعــروف، كما في قوله تعالى: ﴿قال ربِّ اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة ايام إلاّ رمزا واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار﴾، وسوف نرى ان هــذا الاستعمال لم يجمد عند حــدود التعريــف الســطحي لموضوعــة التحــادث، ونلتقي بمعنى اعمق، عندما يطلق القرآن الكريم هذه المادة على وحيــه مــن توراة وقرآن ﴿...وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه مــن

بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾. وتستمر مسيرة الكلمة في استكناه المعـاني او الدلالات الضخمة عندما نعرف ان من احـدى استعمالاتها «قضـاء الله في التاريخ» كما في قوله سبحانه ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينـهم﴾، وتتواصل القابلية الفذة للاستعمال لتشـير الى اشـياء الله المنبثـة في الكـون ﴿ولو انّ ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحـر ما نفدت كلمات الله...﴾ وانسجاماً مع هذه التجليات الرائعة لدلالة الكلمة في الكتاب العزيز، تأتي بمعنى نفس التشريع الرباني العظيم الـذي هـو ارادة الله في حياة الانسان ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته﴾....

نكتفي بهذا المقدار البسيط لبيان مدى النقلـة الجوهريـة لـدلالات هـذه المادة من حدودها المعجمية الى الفضاءات الرحبـة والعميقـة الـتي ابتدعـها القرآن الكريم، وللانسان ان يتصور كم هي الفاصلة بين المفـردة اللغويـة والتي قد تكون عابرة على لسان المتحدث، وبين المفردة الكونية الـتي هـي لبنة اساسية في نظام الوجود المحكم، وذلك مهما تبـدت لنـا هـذه المفـردة بسيطة وعادية للوهلة الاولى.

هنا يبرز سؤال مـهم: مـا هـي مسـوغات اسـتعمال (الكلمـة) في هـذه المجالات الجوهرية الكبيرة؟! أي علامة بين مادة الموضوعـة (كـ ، ت، ب) ومفردات الكون وقضاء الله في الحياة والزمن وتشريع السـماء في صياغـة الوجود الانسـاني؟

لا اعتقد ان هناك مسوغاً اعمق من القول: بأن كل شـيء قـابل للقـراءة والمعاينة والحركة فهو بالتالي «كلمة» فـالمخلوق كلمـة كونيـة، والامضـاء الالهي في الامم والشعوب والافراد كلمة تاريخية نـافذة، وحكـم الله كلمـة

تشريعية، وكلها جاهزة للقـراءة الواعيـة الدائمـة، وكلـها قابلـة للمعاينـة المستزيدة ثراءً وغنىً ومعنىً. وذلك بتقادم الزمن والخبرة... وبالتالي كانت (الكلمة) قدراً، أي قانوناً ينتظر الاكتشاف، وغياب الاكتشاف تغييبٌ للـذات وتضييع للعمر وهدر للطاقات. فالكون كتاب، والتاريخ سطور والتشـريع حقائق، وجميعها طيّعة لاعمال العقل وتحريك الفكـر...علـى ان (الكلمـة) تبلغ ذروتها في الجلال والجمال عندما تطلق على وحي الله الـذي لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو وان كان (كلمـة) بالاضافـة الى الله تعالى، إلاّ انه في التمثيل الاخير يستقر على ضفاف (الكلمة) اسـتعمالاً مـن الذات العلية، وفي ذلك شرف لا يدانيـه شـرف علـى الاطـلاق، واذا كـانت المقتربات اللغوية تميز هذا الاستعمال، فان اختيار السـماء لهـذا الاسـتعمال يجسد كلمة المادة وحيويتها وطاقتها المعدة.

(٣)

وقبل الغور في بحور الاستعمال وفلسفته يحسن بنـا ان نضـع جـدولاً سريعاً لمستوياته المتعددة بغض النظر عـن مسـوغات المقـاييس المعجميـة وتأثيراته على صلاحية الاستعمال.

المستوى الاول

التحادث البشري الذي جرت عليه عادة المجتمع الانساني منـذ ان ادرك وجوده الحي، أي هذا التخـاطب الطبيعـي الـذي يتصـل بالحيـاة اليوميـة وحاجاتها المعهودة ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾، ﴿إذ قال الله يا عيس ابن مريم اذكر نعمـتي عليـك وعلـى والدتـك إذ أيدتـك بـروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً..﴾

المستوى الثاني

التخاطب بين الله من جهة والانسان من جهة اخرى،وهذا المستوى يأتي في اكثر من صيغة كما يرد في تضاعيف القرآن الكريم.

١ ـ خطاب الله تعالى الانبياء ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني...﴾، ﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء انه علي حكيم﴾.

٢ ـ نفس الكتاب الالهي كالتوراة والقرآن ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾. ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾.

٣ ـ خطاب الله الكافرين يوم القيامة ﴿...أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾، ﴿...أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾.

المستوى الثالث

قضاء الله سبحانه وتعالى في التاريخ، أحكامه في مسيرة الامم والمجتمعات، خاصة اذا فهمنا هذا المرتب بابعاده التأسيسية ذات التواصل المتشابك مع مناحي الحياة بكل ما تعنيه، وما تحويه من حركة وفعل ونشاط فليست الحياة اياماً وانما هي صيغ ذات تاريخ حافل بالتناقضات، والمفارقات، ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾،

﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انـــهم لا يؤمنـون﴾، ﴿ومـا كـان الناس إلاّ امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضـي بينهم فيما فيه يختلفون﴾

المستوى الرابع

المخلوق الذي يخلقه الله تعالى ﴿ولو انّ ما في الارض من شـــجرة اقـلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾، ﴿ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾.

المستوى الخامس

التكاليف الالهية التي سنّها الله تعالى للانسان على الارض بهدف تربيته وتنشئته بما ينسجم مع غاية خلقه وايجاده أو بما يهيئه للحيـاة الاخـرى التي هي المنتهى والمآل وفـق التصـور الاسـلامي، ﴿فتلقـى ادم مـن ربـه كلمات﴾.

المستوى السادس

قضاء ربك جلّ وَعلا بوعده ووعيـده بلحـاظ اوليـاتـهما التأسيسـية في فضاء الحياة الدنيـا وتداخلاتـها العجيبـة ﴿واورثنـا القـوم الذيـن كـانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمـة ربـك الحسنى على بني اسرائيل بما صـبروا ودمرنـا مـا كـان يصنـع فرعـون وقومه وما كانوا يعرشون﴾، ﴿وتمت كلمة ربك لاملأن جـهنم مـن الجنـة والناس اجمعين﴾.

المستوى السابع

العقيدة الاسلامية المتجوهرة بركنها المكين، بالقاعدة المبدئية التي تشكل مبدأ الصيرورة على كل الاصعدة العقيدية والشرعية والاخلاقية، اي التوحيد ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾، وكلمة الله هي شهادة (ان لا اله إلاّ الله).

المستوى الثامن

الاثم الاكبر الذي يُعدّ في الفكر الاسلامي منبع الشرور والمظالم الفردية والاجتماعية او هو العنصر الفاعل في تخريب العالم والمجتمعات، اي الشرك ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾.

المستوى التاسع

الصيغة الجامعة للعقيدة الاسلامية بالتوحيد ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، باعتبارها اطار الدين الخاتم ومدخل الانتماء الى دائرته الفكرية والاجتماعية ﴿والزمهم كلمة التقوى﴾، فقد قيل انها: شهادة لا اله إلاّ الله، محمد رسول الله، وسيأتي الخوض في رجالها العظماء.

وبعد فهذه هي أهم واوضح مجالات الاستعمال القرآني للكلمة التي لا تعني في متنها المعجمي إلاّ القول المنطوق مفرداً أو مركباً، فيما هي هنا استعمالات فذة تمس صميم الكون والفكر والحياة...[التحادث البشري العادي، الخطاب الالهي للانبياء، الخطاب الالهي لاهل العذاب، الوحي المتجسد بالتوراة والقرآن، العقيدة المتمثلة بتوحيد الله ونبوة

الانبياء/محمد/ وعد الله ووعيده، الاثم الاكبر قضاءالله في صياغة التاريخ، مخلوقات الله التي لا تعد ولا تحصى بالنسبة للطاقة البشرية].

ومرة اخرى نسأل: ما هي مسوغات اعطاء الكلمة هذا الشرف في صلاحيات الاستعمال الفاعل وعلى هذا المستوى من السعة والعمق؟!

في الحقيقة كون كل شيء قابلاً للقرءاة يعد مدخلاً حيوياً لفهم هذه الظاهرة الجديرة بالالتفات، وذلك في اطار التأسيس القرآني لنظرية العلم ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والارض﴾، ﴿الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى﴾، وبلحاظ ان اي معرفة ستكون نسبية مهما بلغ صاحبها من ذكاء وبراعة وفن ولكن ما الذي يمنع من اضافة مسوغ آخر؟ ذلك ان كل ما يتضمنه الوجود من مخلوقات، وكل ما يترك في اخاديد التاريخ هو باذن الله تبارك وتعالى ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلاّ باذنه﴾. بل ان كل شيء هو تتمة لقوله تعالى ﴿كن﴾ طبقاً لقوله جل وعلا ﴿كن فيكون﴾. وعليه فالاشياء والحوادث والقضاء والابرامات والحركات والسكنات إنما هي كلمة الله في التحليل الاخير، كلمة الله المتجسدة في قوله ﴿كن﴾.

(٤)

جاءت الكلمة في القرآن الكريم في سياق المعنى الذي يتصل بالتواصل البشري الشفاهي في (٨) آيات، هي [مريم ١٠، ٢٦، ٢٩. آل عمران ٤١، ٤٦. المائدة ١١٠]، وكان موضوع عيسى ويحيى مرتكز استعمال الكلمة في هذا المجال. نحاول هنا ان نستوفي قدر الامكان موحيات الاستعمال المذكور على ضوء مجموعة من المقتربات والمؤشرات كاللغة والحادثة والظروف

واسباب النزول والعلائق المعنوية من آيات الكتاب العظيم واسراره المدهشة.

قال تعالى: ﴿يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا، قال ربِّ أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا، قال كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا، قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليال سويا، فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾[1].

هذه الآيات تعرض لقصة نبي الله زكريا وولده يحيى الذي وهبه له على كبر من امرأة عاقر لا تلد، ولكن الله قادر على ان يتجاوز هذا القانون الذي هو من صنعه وايجاده، فاستجاب دعاء هذا النبي الصالح فرزقه يحيى الذي تولى النبوة صغيرا. وكان زكريا قد سأل ربه العلامة التي تعرّفه باستجابة الدعاء. فكانت ان لا يكلم الناس ثلاثة ايام، رغم انه سوي وصحيح، ولا نريد ان نخوض بسبب هذا العجز، فقد قيل باعتقال لسانه بصورة من الصور، ولكن أي مناسبة هنا في أن تكون العلامة هذا العجز عن النطق؟!

انها مفارقة عجيبة ان يلد «اخرس» صبياً يتولى امر النبوة ويخوض معركة تغييرية انقلابية داخل المجتمع المغلق، وانها لمفارقة اعجب ان يلد «اخرس» ولو لمدة قصيرة ـ هذا المتحدث الجريء المقدام، والدمج بين الحالتين ـ الخرس والكلامة تنبئ عن اهمية الكلام وروعته...، فالحكم في الآية لا ينحصر بهذا المتبادر الى الذهن من النزعة السياسية، بل ينطوي

---

(١) مريم، الآيات: ٧ ـ ١١.

على الفقه والفهم والرأي، والابانة والفصل، والكلام يحتل مكانة جوهرية من هذه القدرات والمواهب الفذة ذلك سواء كان هذا العجز عن خرس طارئ أو عجز تلقائي لا يُعرف سببه إلاّ بارادة الله سبحانه وتعالى، ومن المفارقة الجميلة هنا ان تحصل معجزة باتجاهين غير متساوقين ابداً، فالعجز عن الانجاب يتبدل الى قدرة فائقة على الانجاب القوي المتين، والقدرة على النطق المتميز تتحول الى عجز لفظي كليل، ورغم المسافة المتضادة بين المعجزتين، الا ان كلتيهما تتغذى من الأخرى باتجاه التوكيد والتحقيق، والنهاية هي المفارقة الواضحة، اي يأتي منطيق من لسان اصابه العجز فترة ما!! واعتقد ان مثل هذه الحادثة إذا حصلت في اوساطنا، فاننا سوف نقرن الحالة الجديدة بذلك الطارئ الغريب السابق عليها.

قال تعالى: ﴿وهزي اليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي وقري عينا فاما ترينّ من البشر أحداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم انسيا، فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا، يا اخت هارون ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا، فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً، قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾[1].

مرة اخرى نلتقي بالمفارقة ولكن ضمن معطيات إضافية، فاذا كان زكريا قد اعتقل لسانه اعجازاً فان مريم سلام الله عليها نذرت الصمت ارادةً، واذا كان يحيى قد رزق المنطق الراقي صبياً وعن ارادة كما يبدو، فان عيسى عليه السلام نطق اعجازاً وهو رضيع، وكان نطقه حكمة حيث

---

(١) مريم، الآيات: ٢٥ ـ ٣٠.

لم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ مبلغ الصبيان.

الصيام عن الكلام ليس امراً سهلاً لان الانسان حيوان متكلم في الدرجة الاولى، وهذا النذر بطبيعته يكشف عن ان الكلام اشبه بالغريزة بالنسبة للذات الانسانية وانه إحدى مكونات هذه الذات.

والصوم عن الكلام مقاومة لنزوع شبه ذاتي اي يقترب من تشييد الذات، أو يدخل في تشييدها بدرجة واخرى، وخاصة بعد ان تتربى وتنشأ عليه.

لقد كان كلام عيسى عليه السلام صدمة لامه الصائمة عن الكلام، وكان صدمة لقومه الاحرار في الكلام...ولنا عودة..

[والكلام] هنا وكما في الآيات السابقة اصبح محل اشارة كوظيفة وقابلية مكوّن عقيدي، وعندنا يصير موضوع اعجاز وتحد انما يكون كذلك لكونه قضية جوهرية وليس امراً عابراً في دنيا الانسان.

ج ـ ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي بالمحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين، قال رب انى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، قال كذلك الله يفعل ما يشاء، قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاثة ايام إلاّ رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار،...﴾[1].

مرة اخرى نلتقي بقصة زكريا وابنه يحيى في سورة آل عمران المدنية النازلة حتماً بعد سورة مريم المكية، ونجد انفسنا بين يدي اشارات جديدة. ضمناً زيادة في مؤهلات ومواصفات يحيى، كما ان الصوم عن الكلام قد

---

(١) آل عمران، الآيات: ٣٨ ـ ٤١.

عوّض بالحديث الرمزي، وهناك زيادة في مراسيم العبادة والشكر التي ارشد الله اليها عبده الطالب زكريا. واذا كان (التخاطب البشري) وارداً في الآية (٤١) في السياق الذي عرفناه سابقاً، فان مما يلفت النظر حقاً ان تكون [الكلمة] بآفاقها المتعددة حاضرة في جو الآيات وروح الموضوع فهناك [الكلمة] التي تمثلت أو سوف تتمثل بعيسى عليه السلام، وهناك الدعاء الذي هو كلام مخصوص، وهناك مادة النداء التي لا تخرج عن هذا النطاق، وهناك مقول القول: كما ان القرآن يطلعنا على لغة جديدة في عالم التحادث البشري ذلك هو الرمز ﴿ألاّ تكلم الناس ثلاثة ايام إلاّ رمزا﴾. وهناك الذكر الذي لا يعبر عنه في كثير من الحالات بالكلام.

د ـ ﴿اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين، قالت رب انى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون، و يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل﴾[1] هكذا يقص علينا القرآن مرة ثانية موضوع عيسى في سورة آل عمران مع اضافات جديدة تساهم اكثر في تجلية القضية، ونشاهد أيضاً مادة [الكلمة] قد سادت اجواء القضية كما هو في قصة زكريا وابنه يحيى، واذا كان اعتقال لسان زكريا عن التخاطب البشري معجزة لغاية الشهادة على استجابة الدعاء، فانه يتحول كحقيقة كبرى على لسان عيسى الرضيع لغاية الشهادة على النبوة، خاصة وقد تضمن حديثه عليه السلام معنى راقياً بل وطبقات متراتبة القيمة من

---

(١) آل عمران، الآيات: ٤٥ ـ ٤٨.

المحتوى والمضمون، وهكذا تتجاذب الحالات المتعددة (التخـاطب البشـري) ليتحول الى آلية وطريق!!

نعود للقول عن مادة (الكلمة) الـتي تشـكل وحـدة البنـاء في هـذه الآيـات الشريفة، فعيسى عليه السلام «كلمة الله» وجاء بسبب كلمـة الله أيضـاً ﴿كـن فيكون﴾، وقد هيأه الله لاختزان كلمة الله المتمثلة بالحكمة والتـوراة والانجيـل!! انها رأت الاجواء التي سبق وأن عشناها مع زكريا وابنه يحيى عليهما السلام.

هـ ـ ﴿اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتـك اذ ايدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمـة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئـة الطـير بـاذني فتنفـخ فيـها فتكون طيراً باذني وتبرئ الاكمه والابرص بأذني واذ تخرج الموتى بـاذني واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منـهم ان هذا إلاّ سحر مبين﴾[1].

التخاطب البشري الذي منَّ الله به على عيسى في المهد، هـو ذاتـه الـذي سوف يزاوله في الكهولة، وهي اشارة الى ان هذا التخـاطب ليـس نعمـة في حالة الاعجاز فحسب بل هو نعمة في حالة الطبيعة أيضاً. وقد يكون كنتيجة طبيعية للنمو الجسمي نعمة. وأولى بالتقدير والتعظيم منها اعجازاً واختراقاً لقوانين النمو المذكور، وقد حرص القرآن على توفير ظـرف التواصـل بـين النعمتين [آل عمران: ٤٦، المائدة: ١١٠] والتعبير عن الفاعلية بصيغة الفعل المضارع اشارة الى استمرارية العملية بما تنطوي عليه من نعمة عظيمة...

بقي ان نعرف... ان اذن الله تعالى الذي تكرر في الآية الكريمة اربع مرات

---

(١) المائدة، الآية ١١٠.

انما هو تعبير آخر عن ﴿كلمة الله﴾ جلّ وعلا.

٢ ـ التخاطب البشرى موضوعة قرآنية جميلة، وقد عرضها القرآن على أصعدة عدة منها: أ ـ ان لهذا النشاط العظيم آلاتـه المتكاملـة، وذلك طبق قوله سبحانه ﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين﴾. ومن المعلوم ان وظيفة الكلام تتوقف على هذا التكامل الفذ بين اللسان والشفتين.

ب ـ وان هذا النشاط الجبار آية من آيات الله جلّ وعلا، وهذا ما نستفيده صراحة من قوله ﴿ومن آياته اختلاف السنتكم والوانكم﴾، فان اللسان في الآية المباركة تعبير مجازي عن هذا التخاطب الرائع.

ج ـ وان هذا التخاطب هو احدى ادوات تحليل الكون والحياة والتاريخ ﴿خلق الانسان علّمه البيان﴾، والبيان ليس افصاحاً عما في النفس وحسب، بل عملية تحليل للواقع بشرط اجادة العملية.

د ـ وان هذا التخاطب حاجة شبه غريزية، حاجة متجذرة في داخل الذات، ولذا فالصوم عنها معاناة ومشقة.﴿نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم انسياً﴾.

هـ ـ وهذا التخاطب قد يكون لغة شفاهية وقد يكون رمزاً.

وللتخاطب صيغ وانماط وقيم نجدها مبثوثة في كتاب الله المجيد، لا يسع هذا المقام الى استقصائها.

(٥)

١ ـ خطاب الله تبارك وتعالى الى انبيائه يندرج في خانة (الكلمة) في القرآن الكريم وقد فصلت هذه الموضوعة بخطوطها العريضة وعنوانها العام، وهناك الامثلة التطبيقية الحية التي تصدق عليها، ولذا فنحن هنا بين

يدي منظومة (كلمة) المسوقة في حالات من التقنين والتشييد المنظم.

قال تعالى: ﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم﴾[1].

ففي هذه الآية يطلعنا القرآن الكريم على الكيفية التي يكلم الله بها رسله الكرام عليهم السلام وهي على اضرب ثلاثة:

الاول: الالهام في القلب أو الصدر والمقصود هنا الجزء الواعي من الذات الانسانية اوالعقل المدرك.

الثاني: التكليم من وراء حجاب كأن يحدث الله صوتاً مفهوماً لدى النبي الكريم في شجرة أو حجر أو اي وسيلة مناسبة.

الثالث: ان يرسل الله سبحانه رسولا الى النبي العظيم يبلغه كلامه الشريف والرسول هنا هو جبرائيل عليه السلام.

قال في مجمع البيان: «ثم ذكر سبحانه أجل النعم وهي النبوة فقال: ﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله﴾ أي ليس لاحد من البشر ان يكلمه الله (الا) ان يوحي اليه (وحياً) وهو داود، اوحي في صدره فزبر الزبور، (او من وراء حجاب) أي يكلم من وراء حجاب وهو موسى عليه السلام، (او يرسل رسولاً) وهو جبرائيل ارسل الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم».

قال في الكشاف: «(وما كان لبشر) وما صحّ لاحد من البشر، (ان يكلمه الله الا) على ثلاثة اوجه، اما عن طريق الوحي وهو الالهام والقذف في القلب وإما المنام كما اوحى الى ام موسى والى ابراهيم عليه السلام في ذبح ابنه. وعن مجاهد اوحى الله الزبور الى داود عليه السلام (في) صدره...وقوله

---

(١) الشورى، الآية ٥١.

(من وراء حجاب) اي كما يكلم الملك بعض خواصه وهو من وراء حجاب، فيسمع صوته ولا يُرى شخصه، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة واما على ان يرسل اليه رسولاً من الملائكة فيوحي الملك اليه كما كلم الانبياء».

قال في التسهيل: «بيّن تعالى في الآية ان كلامه لعباده على ثلاثة اوجه ؛ احدها: الوحي بطريق الالهام أو المنام، والآخر ان يسمعه كلامه من وراء حجاب والثالث: الوحي بواسطة الملك وهذا خاص بالانبياء، والثاني: خاص بموسى ومحمد... واما الاول فيكون للانبياء والاولياء».

قال السيد الطباطبائي: « ﴿و ما كان لبشر ان يكلمه الله إلاّ وحيا أو من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه علي حكيم﴾ ذكروا في تكليم الله تعالى انه على ثلاثة اقسام، بقرينة الترديد الموجود في الآية...وان الوحي في القسم الاول لم ينسب الى مكان خاص وفي القسم الثالث نُسب الى الرسول والاقسام الثلاثة هي:

١ ـ التكليم الذي لم يكن فيه واسطة بين الله والبشر.

٢ ـ التكليم الذي يكون من وراء الحجاب، كشجرة طور حيث كان موسى عليه السلام يسمع كلام الله من تلك الناحية.

٣ ـ التكليم الذي يحمله الملك ويبلغه الى الانسان فيسمع كلام الملك وَحياً وهو يحكي كلام الله».

الوحي انواع واصناف

قال تعالى: ﴿واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه﴾، وهذا وحي الهام.

قال تعالى: ﴿واوحى ربك الى النحل﴾، وهو وحي تسخير.

قال تعالى: ﴿وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم﴾ ويعني الوسواس.

قال تعالى: ﴿واوحينا اليهم فعل الخيرات﴾، وهو وحي الى الامم بواسطة الانبياء.

قال تعالى: ﴿اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم﴾، يقال بواسطة اللوح المحفوظ.

قال تعالى: ﴿واوحى في كل سماء امرها﴾، اي جبلها على قانونها.

وابرز الامثلة على التكليم من وراء حجاب في اثنين من الانبياء عليهم السلام، هما:

أ ـ موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾.

و«تكليما» في الآية لغرض التوكيد ليس الا[1].

ب ـ خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث ثبت في النقل، ان الله تبارك وتعالى كلم محمداً في ليلة الاسراء والمعراج.

والتكليم بواسطة الملك شائع مع الانبياء، وعلى الاخص خاتمهم وسيدهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿انا أوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا﴾.

قال تعالى: ﴿وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم﴾.

---

(١) وسناتي على كلام آخر في الآية.

قال تعالى: ﴿نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين﴾.

قال تعالى: ﴿مَن كان عدواً لجبريل فانه نزّله على قلبك﴾.

فالذي يستفاد من هذه الآيات ان التكلم كان بواسطة الملك، وهو جبرائيل عليه السلام ويسمى في بعض الآيات بـ (الروح الامين) و (بروح القدس).

قال تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات واتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس﴾[1].

ومن المؤكد ان تكليم الله أنبياءه ليس لغرض السجال وانما لهدف البناء، ومن أجل التأسيس الحق، وفي قوله تعالى: ﴿ورُسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾، انما يفيد التوكيد، وقد حدّث الله موسى من وراء طور سينين، والتكليم من وراء حجاب لا يعني ان هناك عازلاً مادياً خفياً بل هناك احاطة من الله بكل ما يجري. واختصاص موسى بهذا التكليم على نحو التوكيد روعي فيه عناد القوم الذين نزل فيهم.

ان تكليم الله لانبيائه انما في سياق تأسيس الحقائق أو في سياق الكشف عنها، ولذا فان الكلمة في هذا المضمار تنصرف لما اصّله الله في الخلق.

قال تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما

---

(١) البقرة، الآية ٢٥٣.

تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين﴾[1].

فهذا التخاطب بين الله وموسى عليه السلام شيد علماً واقعياً عقيدياً، ولم يكن هو نوع من الحوار السجالي، وبعد ان سرت (الكلمة) في ذات موسى باعتبارها واقعاً متجسداً، تمت عملية الاصطفاء لحمل هذه الامانة.

قال تعالى: ﴿قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين، وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة...﴾[2].

ان اندكاك الجبل بتلك الصورة ربما هو التعبير عن ذلك التوكيد الوارد في تكليم الله لموسى عليه السلام..

﴿وكلم الله موسى تكليما﴾.

اي ان هذا التكليم المؤكد قد عُبر عنه بهذا التحقيق المؤكد. وبذلك تتقادم مسيرة التوافق بحل التماهي بل الامتزاج التام بين كلمة الله من جهة والحق أو الواقع من جهة اخرى، وهذا ما سنجد مصاديقه الثرية بعد حين.

آيات تكليم الله لانبيائه ورُسله عليهم السلام جاءت كالتالي:

١ ـ الاعراف: ١٤٢، ١٤٤، (مكية).

٢ ـ الشورى: ٥١، (مكية).

٣ ـ البقرة: ٢٥٣، (مدنية).

٤ ـ النساء: ١٦٤، (مدنية).

---

(١) الاعراف، الآية ١٤٣.

(٢) الاعراف، الآية ١٤٤.

لقد غلب على [الاعراف] طابع التعريف «بالكلمة» باعتبارها تجسيداً للواقع الذي يريده الله تعالى وللحقائق الموضوعية وفي [الشورى] المكية يتضح بكل جلاء تقسيمات التكليم بشهادة الترديد، [البقرة] تتولى مهمة اضافية في الموضوع تلك اهمية التكليم على صعيد التفضيل، و[النساء] نزلت رداً على تساؤلات اليهود لعدم ورود موسى في الآية (١٦٢) في سياق مجموعة من الانبياء، ومن مجموع هذه الآيات العظيمة، يمكننا ان نصقل هيكلية موفية منطقية عن موضوع التكليم هذا، تعريفاً،وكيفية، وتطبيقاً، وهدفاً، وهذا يحتاج الى جهود علمائية متظافرة. ولكن نظرة متفحصة الى الآيات [الاعراف: ١٤٣، ١٤٤، الشورى: ٥١] قد تحملنا على تماس مع طابع تعريفي هذا (التكليم)، طابع تعريفي ذي نزعة عملية وتوضيحية وتثقيفية، أما في الآية [البقرة: ٢٥٣] فانها تتصل باستحقاقات هذا قمة التكليم واخيراً، فان الآية [النساء: ١٦٤] تشير الى ان هذا التكليم هو قمة الحقيقة الكونية على ضوء ما عرفنا من قصة الجبل.

وتأتي الكتب السماوية مصداقاً «للكلمة» في استعمالاتها القرآنية.

قال تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[1]. أي القرآن الكريم أو ما جاء منه من آيات.

قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على

---

(١) التوبة، الآية ٦.

خائنة منهم إلاّ قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين﴾[1]، أي التوراة.

قال تعالى: ﴿...يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾[2]، أي القرآن.

قال تعالى: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾[3]، التوراة.

قال تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾[4].

هذه الآيات الخمس تكشف عن ان احدى مصاديق الكلمة في القرآن الكريم هو الكتاب الالهي، والتوراة، القرآن أمثلة على هذا المعنى الجميل، ومن القضايا البارزة في الطرح القرآني هنا هو موقف اليهود من كلام الله.

انه التحريف...

يذكر المفسرون ان هذا التحريف يكون بطريقين:

الاول: سوء التاويل.

الثاني: التغيير والتبديل.

والتحريف من الطراز الاول يبقي على النص ولكن يتلاعب بمحتواه فيصرفه عن معناه الحقيقي مستفيداً من غموض أو ابهام أو اجمال أو اي سبب آخر، بل ربما يبلغ المحتوى القمة في الموضوع، والابانة، ورغم ذلك يتأتى التحريف على لسان القاصر مسبقاً، لان النية معقودة على هذا

---

(١) المائدة، الآية ١٣.

(٢) المائدة، الآية ٤١.

(٣) النساء، الآية ٤٦.

(٤) البقرة، الآية ٧٥.

العمل. والتحريف من الطراز الثاني يكون بـاجراء تغـيّرات داخـل النـص بتقديم او تأخير او احلال كلمة بدل الاخرى.!! أي يكون في بنية النص.

وفي تصوري ان كلا التعبيرين لا يحققان الغرض المطلوب مـن الآيـة أو من منطوق التحريف بالثقل العلمي الرصين.

ان تحريف الكلم الوارد في هذه الآيات عنايـة لسـانية راقيـة، تشـير الى انشاء نص جديد مغاير، انها ليست تأويلاً أو تقديمـاً وتأخـيراً في وحـدات النص، بل هو انشاء واقع حاذف ومغاير، استتباعاً لنص جديد، انقـلاب في التصورات والعقائد والاحكام والقيم والاخلاق، مع الاخذ بنظر الاعتبار ان النص القرآني هو الواقع الحق.

هذا هو تحريف الكلم كما نفهمه من جو الآيات التي ورد فيها...

ان هذا النص الجديد [تحريف الكلم الرباني / قرآناً أو توراة] جاء بعـد نقض الميثاق الاكبر اي التوحيد، وكل ذلك يخلق اتجاهاً منحرفـاً في وضـع النص من اجل واقع مخدوم باسباب باطلة، ومما يؤكد هـذا التصـور هـو المستحق الرهيب الذي يترتب على عمليـة التحريـف هـذه ﴿فبمـا نقضـهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسـوا حظاً مما ذكروا به...﴾.

ان النسيان هنا ليس غفلة أو سهواً، بل ممارسة جديدة تخالف ما أنزله الله تعالى، انهم مارسوا اطواراً وانماط سـلوك خـلاف شـرع الله سـبحانه وتعالى، وليس النسيان هنا امحاء صورة معينة في الذهن لعلّة أو اخرى، بل هو تشبع الذهن بصورة مغايرة مع توهج الصورة الاساسـية في الذاكـرة باعتبارها واضحاً يجب ان يزول في نية القـوم. ونلتقـي باشـارات كثـيرة

تؤكد هذا المعنى لتحريف (كلمة الله) أو الكلم، ولعل الصياغة القرآنية التي تقول ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ تعطي هذا اللون من التصور، ففي كتب التفسير، ﴿يحرفون الكلم﴾ أي كلام الله ﴿من بعد مواضعه﴾ أي من بعد ان وَضعه الله مواضعه، أي فرض فروضه واحل حلاله وحرم حرامه...]. وهذا البيان هو جوهر المعنى ولكن لا يصيبه بالصميم، أن ﴿من بعد مواضعه﴾، تعني في الغاية القصوى، ذلك الواقع الحق، وتحريفه ايجاد الواقع المزيف، فان تغيير حكم الله في الزنا ونقله من حد الرجم الى اربعين جلدة، انما هو انشاء واقع فاسد على الارض بدل واقع هو الحق.

ان دراسة اجواء الآيات في موضوع تحريف الكلم تكشف بوضوح عن هذا المعنى للتحريف، فالآية (١٣) من سورة المائدة مسبوقة بتفصيل الميثاق الذي اخذه الله على بني اسرائيل لكن القوم حذفوه بواقع آخر.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم واقرضتم الله قرضاً حسناً لاكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به...﴾[١].

يقول تعالى: ﴿يا ايها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه

---

(١) المائدة، الآية ١٢، ١٣.

يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فأحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[1].

يقول تعالى: ﴿ألم ترَ الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا السبيل والله اعلم باعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا، من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بالسنتهم وطعناً في الدين ولو انهم قالوا سمعنا واطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم واقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً﴾[2].

ان اليهود يحرفون، حرّفوا النصوص بخلق واقع زائف، يتناقض ويتضاد مع الواقع الحق الذي جاء به موسى ومحمد، حرّفوا النصوص الالهية بتوليد نصوص لا اساس لها من الوحي، فأدت الى واقع منخور من داخله على صعيد الحقيقة، وكل نص من صنع عوامل تكون خفية في كثير من الاحيان، ولا يسلم من هذا إلاّ النص الالهي أي كلمة الله سبحانه وتعالى، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق ترى ما هي عوامل خلق النص اليهودي المنحرف؟!

الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والحقد على الانسان، والركون الى الكذب وممارسة الباطل وحب الذات والتراث الدموي... كل هذه وغيرها هي عوامل النص الجديد، عوامل خلقه وبعثه؛ لان النص لا

---

(١) المائدة، الآية ٤١.

(٢) النساء، الآية ٤٤ ـ ٤٦.

يأتي من فراغ، وكل نص يولد نظيره علـــى امتــداد الهويــة الاولى، والكفـر برسالة محمد أوجدت في ضمائرهم وروحـــهم بنــىً متواليــة مــن الانكــار والجحود.

وفي الحقيقة ان طبيعة النص المنحرف، المصنوع، لم تكن برهانيـــة ابـداً، بل هي مجرد روح عاتية، اعتمدت المخالفة / العند، لكي تصنع مقابل نص، مما يستدعي واقعاً مقابل واقع، فهو ليس نصاً سجالياً، وانما نص يزاحـم آخر على مساحة الفعل، لمجرد تحجيم حركة لم تكـــن مرغوبــة لـدى هـذا الفريق من البشر الذي اشتهر بقتل الانبياء.

قال تعالى: ﴿ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنـاً قليلاً أولئك ما ياكلون في بطونهم إلاّ النار ولا يكلمهم الله يـوم القيامـة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم﴾[1].

قال تعالى: ﴿ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنـاً قليـلاً أولئـك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم﴾[2].

اعتقد ان عدم تكليم الله لهؤلاء يوم القيامة تعبير مجازي عن حرمانـــهم من رحمته التي وسعت كل شيء ومن لطفه الذي سبق عدلــه، ولعـل جـو الآية يفيد ذلك ويصب في هذا الفضــاء خاصـة قولـه تعـالى: ﴿...ولا ينظـر اليهم﴾.

---

(١) البقرة، الآية ٧٤.

(٢) آل عمران، الآية: ٧٧.

(٦)

اولاً ـ الانسان هو الذي يصنع التاريخ، وصناعته هذه خاضعة في طرف منها للقوانين التي تنظم الكون والحياة والمجتمع، وترتب النتائج على اسبابها أو مقدماتها يدخل في اطار القضاء الالهي، ولذا فان صناعة التاريخ بقدر ما تتصل بارادة الانسان ومسؤوليته لها علاقة من جهة اخرى بقضاء الله تبارك وتعالى، فالتاريخ افراز للارادة البشرية باتجاه القانون الذي عملت بموجبه وفي ضوئه أو من معاني الكلمة في القرآن الكريم قضاء الله في مسيرة التاريخ بالمعنى السابق.

قال تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً واجل مسمى﴾[1].

اي قضاء الله في تأخير العذاب الى يوم القيامة، وهذا القضاء المحدد بهذه الهوية ينطوي على فكرة دقيقة، مؤداها ان التاريخ امكانية مفتوحة، أو ان الانسان حرية سارية المفعول. قالوا في التفسير «اي لولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم ووقت مسمى لهلاكهم لكان العذاب واقعاً بهم، وكما قال القراء بتعبير اوضح، ولولا كلمة واجل مسمى لكان لزاماً أي لكان العذاب لازماً لهم»[2].

وهذا التفسير يثبت المعنى المباشر للآية، ويهمل قيمة الزمن المفتوح الذي يختزن تاريخية صحيحة رائعة، فان تأخير العذاب تفعيل للوجود وتفعيل للتاريخ عبر الانسان، بل هو توكيد للمسؤولية الانسانية الكبرى. قال

---

(١) طه، الآية: ١٢٩.

(٢) صفوة التفاسير، ج ٢ص ٢٥١.

تعالى: ﴿وما كان الناس إلاّ امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾[1]. قالوا في التفسير «اي لولا قضاء الله بتأخير الجزاء الى يوم القيامة لعجل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين».

مرة اخرى نلتقي بهذا الاجمال الغريب للزمن! قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب﴾[2]. جاء في تفسير مجمع البيان «اي لولا خبر الله السابق بانه يؤخر الجزاء الى يوم القيامة لما عَلِمَ في ذلك من المصلحة... لعجل الثواب والعقاب لاجله، وقيل معناه: لفصل الامر على التحام بين المؤمنين والكافرين بنجاة هؤلاء وهلاك اولئك...». وهذا التفسير يقترب من احترام الزمن، ويلمح من بعيد بامكانية التاريخ، مع العلم ان الامكانية هنا ليست بالمعنى الفلسفي المجرد، بل بمعنى الصيرورة الواقعة فعلاً.

قال تعالى: ﴿وما تفرقوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾[3]. قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانهم لفي شك منه مريب﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، انهم لهم المنصورون، وان جندنا لهم الغالبون﴾[4].

---

(١) يونس، الآية ١٩.

(٢) هود، الآية ١١٠.

(٣) فصلت، الآية ٤٥.

(٤) الصافات، الآيات ١٧١ ـ ١٧٣.

قال في المجمع: اي سبق الوعد منا لعبادنا الذين بعثناهم الى الخلق انهم هم المنصورون في الدنيا والآخرة.

ان نقطة الضعف في التفسيرات السابقة اهمال (الزمن) في صلته الواضحة بقضاء الله تعالى الذي هو كلمة الله عزوجل في مسيرة الانسان، فان تأجيل العذاب وتأخير الثواب والجزاء الى يوم القيامة يؤول الى [زمن] ولو تفحصنا هذا الزمن من خلال الآيات الكريمة لاتضح لنا انه زمن (مفتوح) اي قابل للتناقضات والصراعات والحركة، ولذلك لا نقصد ابداً هنا الزمن بالمعنى الفلسفي، بل هو الزمن الذي يأتلف في بحره قطبان مهمان جوهريان، هما:

الاول: الحرية.

الثاني: المسؤولية.

ان الاشارة القرآنية المؤكدة على الاختلاف باتصال حيوي ومباشر بكلمة الله، وتصبح كل هذا المرتب عبر زمن يمتد منذ ان خلق الله الانسان حتى قيام الساعة. ان هذا الانثيال بالحقائق على شكل شبكة متداخلة، انما يجذر مفهوم التاريخ باعتباره افرازاً حيوياً حقيقياً للحرية والمسؤولية.

ان اختزال (كلمة الله) في هذه الآيات بأحد مصاديق قضاء الله ليس صحيحاً وليس هو نهاية الايضاح، بل هو البداية التي تطل بنا مدى اوسع، وهو هنا الزمن المفتوح.

ان تأخير العقاب يتيح الفرصة لتجليات هذا العقاب على ساحة الحياة، كما ان تأخير الثواب يتيح الفرصة لتجليات هذا الثواب، ومن خلال هذه التجليات يتحقق ذلك المرتب العظيم، اي الحرية والمسؤولية. ليس من ريب

ان السبق هنا قانون رباني وجد فرصة تنفيذه على الارض.

ان قضاء الله (كلمته) في هذه الآيات تعطي هذا المعنى للتاريخ، ولكي تتضح الصورة اكثر فستعرض الآيات التالية التي هي تطبيق عملي لهذا القضاء القانوني السنني في بحر الحياة...

قال تعالى: ﴿وتلك الايام نداولها بين الناس﴾.

قال تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين﴾.

قال تعالى: ﴿يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم﴾.

ثانياً ـ لو ان الله تعالى قضى بالعقاب حال ممارسة الاثم، العقاب السريع الملازم في ذات اللحظة، اي لو كان هناك اتحاد زمني بين الخطيئة والعقاب لانتفى التاريخ، وتحولت الحياة الى صرخة عابرة، لحظة لا تحمل اي معنى أو هدف، ولانهار عالم السنن الاجتماعية، فان النفس الانسانية ليست ومضة من مسيرة التكوين، بل هي تجليات ضخمة من الفعل والترك، الاقدام والاحجام، المغامرة والمراجعة، الاثم والتوبة، العصيان والطاعة، والتاريخ صورة ضد الصراع القائم بين هذه الاستقطابات داخل الذات الانسانية، واستقطابات اخرى هائلة تتحكم في حركة النفس، لا يمكن ان تجد مصداقها الفعلي على ساحة الحياة إلاّ في قسمة من الزمن، ومن هنا تأجل عذاب الله وجزاؤه، فان هذا الزمن ضروري كي تثبت الذات الانسانية وجودها، وتؤكد قدرتها على اتخاذ القرار. ونقصد هنا الجزاء النهائي والثواب الابدي، اي الجنة والنار، والا بمساحتيهما المرقومتين على

نحو آني سريع لا شك فيها في ضوء آيات الكتاب الكريم، وهما ساحتان لا تعطلان توتر تلكم الاقطاب ابداً، فان مثل هذه القراءات السريعة الآنية قد تزيد من توترها واشتداد تجاذباتها. ﴿قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾، اي تكون من عوامل تأسيس التاريخ.

ان التطابق اللحظي بين الدنيا والآخرة يعدم التاريخ...فالعقاب المؤجل هو جهنم والعياذ بالله... الثواب المؤجل هو الجنة ان شاء الله... اذن الدنيا قدر... ولابد ان يخوض الانسان قدره... فهناك تاريخ... قال تعالى: ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وان الظالمين لهم عذاب اليم﴾[1].

ثالثاً ـ الآيات السابقة كشفت لنا عن قضاء / سنة ربانية جوهرية، تقضي بأن هناك زمناً ينبغي ان يخوض الانسان غماره الصعب: ﴿انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه﴾، والكلمة السابقة هي هذا الزمن الصعب، والسبق هنا ليس زمنياً وانما هو سبق بالرتبة، والتعبير السليم هو ان هناك قضاءً مبرماً، فالعقاب والثواب / الجنة والنار / مؤجلان كي تتحقق فاعليتهما على الارض اولاً اي كما يتحقق زمن مطلوب، تلك هي حكمة الله جل وعلا، وليس من ريب هناك عقاب دنيوي وثواب دنيوي، انهما على الارض التي هي محل الابتلاء. وهذان الجزاءان السريعان الآنيان لا يعطلان توتر اقطاب النفس المتصارعة ولا يحذفان عوامل صناعة التاريخ، بل هما في خدمة الزمن الحتمي، يوتران تلكم الاقطاب ويفعلان حركة التاريخ، الامر الذي يجذر حقيقة الزمن الحتمي، ويشجعان الانسان على المضي في المغامرة. هذا السبق العظيم تترشح منه دائرتان طوليتان مهمتان.

---

(١) الشورى، الآية ٢١.

الدائرة الاولى

قال تعالى: ﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال فانى تصرفون، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون﴾[1].

قال في صفوة التفسير: «اي كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق: ﴿على الذين فسقوا﴾ اي على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا: ﴿انهم لا يؤمنون﴾ اي لانهم لا يصدقون بوحدانية الله ورسالة نبيه..». اي في غير القرآن نستطيع القول: ان من قضاء الله ان الفاسقين لا يؤمنون.

قال في الميزان: «: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون﴾ ظاهر السياق انهم لا يؤمنون، اي انه سبحانه قضى عليهم قضاءً حتماً وهو ان الفاسقين - وهم على فسقهم - لا يؤمنون...فمعنى قوله تعالى: ﴿كذلك حقت كلمة ربك﴾ ان الكلمة الالهية والقضاء الحتمي الذي قضى به في الفاسقين - هو انهم لا يؤمنون».

ان هذا القضاء من مصاديق تلكم الكلمة السابقة أو هو مترشح من ذلك القضاء الشامل الكلي، فكلاهما قضاء، ولكن احدهما شامل للآخر، فالله تعالى امضى الزمن الصعب أجّل الجزاء، كي تنفعل الحياة بكل تناقضاتها ومفارقاتها، ومن مجريات هذا الزمن، ان هناك فاسقاً، يسيء استعمال الارادة: وبالتالي هو لا يؤمن وقضاء الله هنا ترتب على ارادة المسيء بالذات: هذه الدائرة مترشحة من ذلك القضاء الذي فرز الزمن في البداية قانون متكون من طرفين: الفسق يساوي الكفر أو يعادل الضلال.

---

(١) يونس، الآية ٣٢ و٣٣.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم﴾ ان قضاءً مغياً الى يوم القيامة فهو الزمن الصعب. ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون﴾[1] هذا القضا مترشح عن سابقه، ففي بحر الزمن هناك قوانين، منها: هذا القانون الذي سطرته الآية الكريمة، اي يونس ٣٣. ولنعتبر هذه الآية (نواة) ونصوغ المحتوى بالحاصرتين التاليتين: ﴿الذين فسقوا لا يؤمنون﴾، هنا بامكاننا ان نطالع التوكيدات التالية: قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. وقال تعالى: ﴿وما يضل به إلاّ الفاسقين﴾، وقال تعالى: ﴿فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾.

وترتبت مجتمعات كثيرة على هذه الدائرة المترشحة من ذلك القانون الاشمل يستطيع الانسان ان يتتبعها من قراءة الآيات الكريمة التي تعرضت بعمق واسهاب لموضوع الفسق واهله. نعود الى الآية الشريفة: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون﴾، ما معنى حق؟!

الحق يدل على احكام الشيء وصحته، وهو خلاف الباطل، وحق الشيء اذا وجب وثبت فالحق اصلاً واساساً، الثبوت.

بناءً على ذلك، فان قوله تعالى: ﴿حقت كلمة ربك﴾، ثبتت هذه الكلمة في الخارج، واخذت مصداقها الفعلي، ولكن قوله سبحانه: ﴿لولا كلمة سبقت من ربك﴾ هو ثبوت إلاّ انه مع السبق، والسبق هنا رتبي، نلاحظ زيادة مهمة على الثبوت، ومنها ترشحت الكلمة الجديدة، هناك قضاء اعمق، اشمل، اسبق، وهو الزمان، وهناك قضاء ينبع من هذا القرار الالهي العظيم، وهو قانون التنافر بين الفسق والايمان.

---

(١) يونس، الآية ٣٣.

الدائرة الثانية:

قال تعالى: ﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾، قالوا: ان: ﴿كلمة ربك﴾تعني العذاب.

من البديهي ان المصداق الواقعي لهذه السنة هي الآخرة، فهؤلاء الذين كفروا ينتظرهم عذاب حتمي، وفي الحقيقة ان هذا المصير هوامتداد طبيعي (لكلمة الله) التي جاء فيها: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون﴾. على اننا يجب ان نفهم ان في الآية الشريفة تقديماً وتأخيراً كي يتضح المقصود جيداً. «انهم لم يؤمنوا في الدينا فاستحقوا العذاب في الآخرة...». وفي ضوء هذا نستطيع ان نطرح التتابع التالي:

في القرآن الكريم: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون﴾. ﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾.

وفي غير القرآن الكريم: «الفسق في هذه الدنيا يقود الى عدم الايمان، الكفر، الضلال». «عدم الايمان في هذه الدنيا، الكفر، الضلال يؤدي الى العذاب في الآخرة». ومعنى حقت هنا: وجبت، ولكن لهذا الوجوب والثبوت زمنه الخاص، انه في اليوم الآخر باعتبار النار أحد المصيرين المتوقعين.

نعود الى الآية الكريمة: ﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾. يقول صاحب الميزان: ان الكلمة هي قوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1]. وقد عبر القرآن الكريم عن هذا القضاء باكثر من اسلوب. منها بكلمة: ﴿حق﴾ كما تقرأ في الكتاب

---

(١) البقرة، الآية ٣٩.

العزيز، قال تعالى: ﴿افمن حق عليه كلمة العذاب افأنت تنقذ من في النار﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾[2].

ومنها بكلمة: (تمّ)، قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين﴾[3].

ومنها: التوكيد، قال تعالى: ﴿لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين﴾، وقال تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين﴾، وقال تعالى: ﴿لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين﴾.

ان هذا القضاء المبرم تكملة أو امتداد طبيعي لقضاء الله الذي حكم بموجبه بالكفر بسبب الفسوق، ذلك لان طبيعة الفسق تتمخض عن الحيود عن طريق الله سبحانه. وهو بالتالي دائرة صغيرة في محيط ذلك القضاء الشامل والسنة الكلية اي قضاء الله بتأجيل الجزاء الى يوم القيامة، فهو مصداق أو نابع من قوله تعالى: ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾.

وانطلاقاً من كل ما سبق يمكننا ان نطرح المسيرة التالية لـ ﴿كلمة ربك﴾ التي نحن في صددها من هذا البحث المتواضع.

قال تعالى: ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم، وان الظالمين لهم عذاب اليم﴾ الشورى ٢١. وفي ذات الاتجاه فصلت (٤٥)، الشورى (١٤)، هود (١١٠)، يونس (١٩)، طه (١٢٩).

قال تعالى: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يومنون﴾ يونس ٣٣.

---

(١) الزمر، الآية ١٩.

(٢)الزمر، الآية ٧١.

(٣) هود، الآية ١١٩.

قال تعالى: ﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ يونس ٩٦.

قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين﴾ هود ١١٩.

(٧)

١ ـ اذا سلّمنا بتلك القاعدة التي تقول: ان كلمة الله فعله، فان هذا يبيح لنا الاعتقاد أو التصور، أن اشياء الوجود هي كلمات الله تعالى، أو ان كلمات الله هي مخلوقاته، ومنشأ هذا الهيكل من التصورات قوله سبحانه: ﴿انما أمره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون﴾.

فهناك تماهي تام بين كلمة الله وفعله: و «الفاء» في (فيكون) ضرورة لغوية وليست حقيقة في صيرورة المسيرة من كلمة الله الى فعله. وعلى هذا الاساس جاء بعض أستخدامات الكلمة في القرآن.

قال تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ الكهف ١٠٩.

قال تعالى: ﴿ولو انّ ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾ لقمان: ٢٧.

قالوا في التفسير: الكلمات هنا تعني اشياء الله وموجوداته.

فهذا هو المتبادر من الآية أو الآيتين الكريمتين، ولكن ما هو الضابط هنا؟ ان كلمات الله هي مقدوراته جلّ وعلا باعتبارها سيلاً من الأحداث، ففي كل لحظة كون جديد. قال تعالى: ﴿كل يوم هو في شان﴾. وقال تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾.

انَّ كلمات الله لا تنفد لأنها افاضات متتالية ومتدفقة من الحدث والتغير والتطور، فالكون جديد دائماً. وليس المقصود بـ (كلمات الله) المفردات الوجوديَّة بلحاظ كل منها وبشكل مستقل، وانما هذا السيل من الحوادث من خلال هذه الشبكة المعقدة من العلاقات.

قال تعالى: ﴿ولئن سالتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون، لله ما في السماوات والارض ان الله هو الغني الحميد، ولو انَّ ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾لقمان: ٢٥، ٢٦، ٢٧. وفي الحقيقة ان هذه الكلمات محصيَّة في واقعها بدليل قوله تعالى: ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾ ولعل اشارة (قبل) كالاشارة العددية دالات واضحة على الخضوع لسنَّة القدر، ولكن الله وحده القادر على استقصائها جميعاً. امَّا الانسان فهو قد يكون مستعداً لاستيعاب امكاناتها الهائلة ولكن من دون الوصول الى الاستقصاء الكامل. انما قلنا سابقاً، ان تسمية الحوادث الكونية بالكلمات من دوافع القرآن، لأن كل ما هو موجود مترشح من قوله تعالى ﴿كن فيكون﴾، ولان كل موجود قابل للقراءة والمعاينة والملاحقة المعرفيَّة، فالكون كتاب مفتوح ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾. والتعبير القرآني ينطوي على مديات واسعة من التداعي المنضبط بالمعاني والافكار والتصورات، فاذا كان كل شيء بقدر، فلا بد ان يكون على صلة بالآخر، وهو ما يؤكده الطرح القرآني لأي شيء في هذا الوجود، فما من مخلوق يستعرضه القرآن الا عبر تاريخه التكويني او عبر علاقاته بما يحيط به قريباً او بعيداً او عبر المجالين معاً، وهذا يؤدي الى تعريف جديد

للشيء، فهو ليس تلك المفردة الشاخصة المتشـخصة بوحدتـها الرياضيَّـة الصارمة المتجذرة المنطوية على نفسها، بل الشيء هو مجموعة (علاقـات)، وهذا بدوره يُعرفناعلى السنن والقوانين لان الشيء مجموعة علاقات علـى صعيد ذاته وعلى صعيد ارتباطه بالارض ومن ثـم فـان الكـون هـو هـذه العلاقات الهائلة فاشياء الله هي هذه العلاقة.

٢ ـ واعتقد في هذا السياق العام أنّ الله تعالى سمّى عيسى (كلمة)، لأنـه مخلوق لله جلّ وعلا، مفردة من مفردات الخلق الالهي. ولكن ارتبط عيسى بالكلمة بروابط توكيدية متلاحقة في القرآن الكريم.

اولاً: لقد أطلق الله عليه عنوان (الكلمة) قبـل أن يـأتي فعـلاً الى الحيـاة الدنيا!!.

قال تعالى: **﴿فنادته الملائكة وهو قائم يُصليّ في المحـراب ان الله يبشـركَ بيحيى مصدّقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيًّـا مـن الصـالحين﴾** آل عمران: ٣٩.

قالوا: ان الكلمة هو عيسى عليه السلام.

ثانياً: أوجد الله تعالى عيسى كـ (كلمة) في استعدادات مريم عليها السلام.

قال تعالى: **﴿... انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم﴾** النساء: ١٧١.

ثالثاً: ان عيسى عليه السلام استحق هذه (الكلمة) عنواناً بعـد الايجـاد وذلك امتداداً للمرحلة السابقة.

قال تعالى: **﴿ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾** آل عمران: ٤٥.

رابعاً: وقد كانت معجزته عليه السلام(التكليم في المهد) ولذلك علة وثيقة بالكلمة قال تعالى: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾.

خامساً: وتواصلاً مع هذا المرتب الجميل من (الكلمة) بعطاءاتها وايحاءاتها واجوائها المتنقلة بين الامكانات، تواصلاً مع كل ذلك نجد ان نذر مريم كان هو الصيام عن الكلام. قال تعالى: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم انسيا﴾ مريم: ٢٦.

وقد يتصور البعض اننا هنا مع تقاطع لا تواصل، ولكن العكس هو الصحيح، اذ علينا ان نستوعب هذه المفارقة الهائلة فان آية عيسى هي (الكلمة) فما أمُه صامت عنها، وهذا تواصل في توكيد دلالة المعجزة العيسوية، انها تواصل في انقطاع!!

سادساً: وتتصل (الكلمة) بأم عيسى، مريم عليها أفضل الصلوات، بأعتبارها مجالات عقائدية كبرى قال تعالى: ﴿فصدَّقت بكلمات ربِّها وكتبه وكانت من القانتين﴾ التحريم: ١٢.

وهي كلمات سواء كانت الكتب المنزَّلة او المواعيد الالهيَّة بتبشيرها بعيسى ونبوته ومقامه، وقد كانت مريم بذلك الصديقة، لان التصديق هنا يساوق العلم واليقين. وجاء تصديقها بكل كلمات ربِّها !! فهي سلام الله عليها تمثل مرحلة متقدمة من العقل المؤمن والضمير الروحي المتشبع بالله سبحانه.

سابعاً: وقبل هذا وذاك ان عيسى هو نتاج الكلمة الالهيَّة. قال تعالى: ﴿... إنما أمره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون﴾. اذن عيسى عليه السلام، «كلمة»، اسماً، عنواناً، عيناً، مُعجزة، رسالة. لقد احتشدت معاني (الكلمة)

في اطار هذا النبي العظيم، وتفرَّد بها على نحو الوسعة مــن الاسـتعمال في انماء مسيرته وانماء حركته قبل الولادة وحتى النهايــة!!.. وسـيأتي بيـان الاسباب.

٢ ـ في الواقع؛ مهما قيل عن ارتباط عيسى عليه السلام بالكلمــة، الا ان هذا الارتباط يبقى في حدود التطابق بين النظرية والمصــداق اذا تذكرنـا ان من المعاني الجوهريَّة (الكلمة) في القرآن هو هذا الوجـود العظيـم باشـيائه المتدفقة، فعيسى مفردة من مفردات الخليقة، التي هي كلمات الله في التحليل الأخير وكما هو اتجاه الكتاب العزيز، ولكن افراد عيسى بــهذا اللـون مـن التوكيد، وافراده بهذه العناية الخاصة من الارتباط بـ (الكلمة) انما لمبررات واقعيــة حاكمــة، ومــن ابـرز هــذه المـبررات تجذيـر وتـأصيل مخلوقيتــه وعبوديته لله تعالى، رداً على ادعاءات النصارى بالوهيته، ومن طرف ثـاني تأسيس وتثبيت نبوتــه الكريمـة رداً علــى اليـهود الذيـن اعتقـدوا بنهايــة مسيرتها عنـد موســى عليــه الســلام، وبـهذا تـؤدي هـذه الظـاهرة دوراً مزدوجاً.

كلاهما يدعم الآخر لان النبي ان هو الا بشر تمــيَّز بفـارق نوعـي عـن غيره، والوحي يكون تجسيداً لتبرير هذا الفارق، واداة الحصر في (انمـا) في النسـاء: ١٧١، جاءت لتثبيت الامرين معاً ﴿انما المسـيح عيســى بـن مريـم رسول الله وكلمته القاها الى مريم﴾.

١ ـ هو رسول الله: وهو يغلب على توكيد النبوّة ويتصل سجالاً بدرجة فائقة صوب اليهود الذين زعموا انتهاء المسيرة عند موسى الكليم.

٢ ـ هو كلمة الله: وهذا يغلب على توكيد العبوديّــة لله ويتصــل ســجالاً

بدرجة فائقة صوب اليهود، الذين زعموا انتهاء المسيرة عند موسى الكليم والنصارى الذين يزعمون التثليث.

وقد كان عيسى سلام الله عليه طاقة اعجازيّة هائلة، كان مجيئة الى الدنيا معجزة، وقد احيا الموتى، وبرّأ المرضى وخلق من الطين طيرا، فهو حقاً كلمة الله على الارض.

(٨)

١ ـ قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه انّه هو التواب الرحيم﴾، البقرة: ٣٧.

قيل فيها التوبة، وقيل انها دعاء مخصوص يصب بالتوبة الى الله تبارك وتعالى وهو المروي عن الباقر عليه السلام﴿اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك ربٍّ اني ظلمت نفسي فأغفر لي انك خيرُ الغافرين﴾.

وقيل: هي سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر، ولقد فسَّر بعضهم التلقي بنوع من الانطباع الذهني او الالهام النظري، وهو ما لا يساعد عليه الفعل (فتلقى)، ولذا يبدو ان هناك بالفعل تلقيناً بكلمات مُسمّاة بالمعنى والصياغة. فان لحن الآية في معرض التربية والتوجيه والارشاد، بل في معرض للاعداد لمعركة زمنية صارمة وقاسية على الارض، تجسيداً لكلمة الله في خلق الزمن. ولا نحتاج الى تفكير طويل لاكتشاف حقيقة اخرى في الموضوع، ان هذه الكلمات كانت قليلة كما يبدو، وهذا ما تستوجبه بساطة الحياة آنذاك ومستوى الذهن العادي لآدم في وقت، ويتضح انها ليست قليلة فحسب، بل ذات منحى عقيدي أخلاقي

بسيط وهادئ، وذلك بطبيعة الحال لا يتنافر مع الرصانة والمتانة على صعيد الحظ من الواقع والصحة، وكما تلوح به الآية الكريمة ان آدم كان مستجيباً لهذه الكلمات، منقاداً لها بطوع وسهولة وقد كان تعامله معها على سُنة التلقين والتطعيم، ولعلَّ فاء التعقيب، وعمق التجاوب وحرارة التفاعل تكشف عن هذه التلقائية الايجابية في عمليَّة التلقي، وقد يكون لمرارة التجربة دور في تهيئة آدم لمثل هذا التلقي السريع، ومن دون شك ان اختزال الدعاء بمعنى التوسّل وحسب افراط في تقديس السُنَّة المعجميَّة في وعي اللغة، لان الدعاء جزء من مركب عقائدي يتجاوز المنظور الى الغيب، ويعتمد على رؤية مقدَّسة تعطي الغيب دور التوجيه والخلق، فهذه الكلمات على قلتها وبساطتها تتضمن عنصراً عقائدياً جوهرياً، هو التوحيد بما يستوعبه من مجالات رحبة ورائعة، وبالاعتماد على هذا التصور لا يضر القول بان الكلمات هنا تعني القضية العقيدية او أقسام القضية الالهية وفقاً لبعض التعبيرات.

قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربُّه بكلمات فأتمَّهنَّ قال اني جاعلك للناس اماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ البقرة: ١٢٤.

قالوا في (الكلمات) اكثر من رأي:

أ ـ **عبارة عن ذبح اسماعيل عليه السلام** كما أمره الله تعالى في رؤياه المشهورة ﴿يا بني اني أرى في المنام اذبحك فأنظر ماذا ترى﴾ الصافات: ١٠٢.

ب ـ **مسؤولية الإمام** كما يستفاد من قوله تعالى بلا فاصل ﴿اني جاعلك للناس اماماً﴾ وهي قيادة المجتمع نحو التوحيد والعدل والطهر.

ج ـ جملة من التكاليف الشرعيّة ويروى منها الختان وحلق شعر البدن وتقليم الاظافر والغسل من الجنابة والطهور بالماء وغيرها.

د ـ الابتلاء بهمّ الدعوة الى الله وتزييف عبادة الاصنام والكواكب التي كانت سائدة في عصره، وما لاقى على اثر ذلك من تهديد بالحرق بالنار.

وفي الحقيقة ان كلاًّ من هذه الامور أو التكاليف قضية او بلاء، فهو امتحان ومواكبة وجهاد ومعاناة ومقاومة، فما المانع من ان تكون الكلمات هي هذا المركب الحاشد من القضايا؟! وربما السؤال بدهي عن الاسم الذي يعود اليه الضمير في (اتمّهنّ)، وفي عقيدتي ان الانسب العودة الى ابراهيم عليه السلام، فهو المبتلى اساساً وجوهراً، ولان ابراهيم كان قد أعدّ لخوض تجربة وضعيّة زمنية صعبة للغاية، وتبسطت بمسؤوليتها الفخمة على كل ساحات ادراكه وقابلياته. فلم يعد فيه شيء الا وهو خاضع لهذا الامتحان الرهيب بدءاً من شعوره الغريزي ومروراً بارادته وانتهاءً بعقله نفسه ومع الله ومع قومه، في ليله ونهاره، وقد خرج من هذه التجربة القاسية ناجحاً، فاستحق ثناء الله باللغة التي تنسجم مع هذا النجاح، وعلى المستوى الذي تستوعب كل امكاناته المفتوحة، فقد وصفه رب العزة أو المبتلي بالوفاء اذ قال تعالى: ﴿وابراهيم الذي وفى﴾، وأعتقد أنّ هذا الوصف العظيم من الرب العظيم لابراهيم عليه السلام يندكُّ ويندمج بإتمام الكلمات المتحنة حتى ينتظم البلاء في سياق الانشاء الرباني من جهة والانجاز النبوي من جهة اخرى، فتحصل في جم التاريخ مسيرة نبويّة منطقية، تتعاهد وحداتها بالتكامل الفذ.

٢ ـ كان آدم عليه السلام قبل ان يستجيبه لثقل جسمه قد علمه الله

تعالى الاسماء كلها ﴿وعلَّم آدم الاسماء كلها...﴾، ومهما كانت الطريقة الا ان العمليَّة تعقد استيفاء طاقة العقل الهائلة، سواء بسبب العلم أو هذا الكم الكلي من الاسماء، فهو في هذه اللحظة تعامل مع مدى بعيد من المعرفة، الا ان هذا التعامل تضاءلت مساحته عندما هبط الى الارض!! واذا بالعلم يتحوَّل الى تلقي، وبالاسماء كلها تتنزل الى بعض (كلمات)، كما يتجلى من لغة التجربة ﴿وتلقى آدم من ربه كلمات﴾. وليس من شك ان الفاصل هائل وجسيم بين الحالتين.

وكان لابد ان يكون هناك علم في الجنة بفعل التحدي من الملائكة، وكان لابد ان يكون هناك بعض علم على الارض، حتى يتولى آدم تكميل ذاته بذاته، فهذه الكلمات مفتاح فيما الاسماء كلها حقائق تستوعب عقل آدم على مشارف المستقبل القريب والبعيد، من أنَّ تجربة آدم في الجنَّة الهيَّة صرفة، من النشأة الى التربية الى التزود بالعلم، فيما هي في محنة الهبوط تجربة بشرية رغم ان مفاتيحها الاولى إلهيَّة. وليس من ريب ان نتائج التلقي في المرحلة الثانية اشرف قيمةً من كل ذلك العلم المكين في المرحلة الاولى. واستنبات الكلمات في محيط الهبوط على شكل ارادة ثم مسيرة أجلٍ واقدس من تكلم الاسماء في محيط الطهر اللاارادي. ان العلم الاول دائرة مغلقة، أبهة، جلال، أمَّا التلقي فرغم مبدأيته وسذاجته الاَ انه تام زاك، انه مبدأ الملحمة التاريخية.

العلم بالاسماء نقص في صورة كماله، أمَّا تلقي الكلمات فهو كمال في صورة نقص، وأجزم ان آدم نسى تكلم الاسماء فيما تفاعل وتعايش مع الكلمات.

قالوا: ان الاسماء هي اللغات، ان الاسماء هي منافع الاشياء. ان الاسماء هي منابع الاشياء. ان الاسماء هي اسماء الانبياء والأئمة. ولكن كيف

يخفي ذلك على الملائكة الذين هم واسطة التدبير بين العرش والوجود؟ فالاسماء كما يظهر لي علم خاص جداً، مبهم، غامض، خاف، مجاله العصر اللاارادي والبيئة التي تتحكم فيها الاطلاقات الى حدٍّ ما، أمّا الكلمات فهي علم الارض او مفتاح الفكر الارضي في رسالته النبويّة المقدسة. إنَّ آدم نسي الأسماء وتشبّث بالكلمات!! العلم بالأسماء كان للتباهي والتحدي، العلم بالكلمات كان للتعاطي والعمل.

هبط آدم عليه السلام لتبدأ ملحمة الكلمة، انقطع تماماً عن علم الأسماء، لأنَّ الزمان غير الزمان والمكان غير المكان: انه الزمن المتضاد والمكان المتنافي، فيحتاج الى فكر حي يشتغل بروحه ويستوعب العثرة والخطيئة ليؤسس منهما الحاضر المتوهج والمستقبل الثائر، لقد كان علم الاسماء حذراً، فيما علم الكلمة حركة رغم بساطته وسذاجته الاولى.

وأجزم مرة اخرى ان آدم نسي علم الاسماء، ليست هناك اي علاقة بين الاسماء والكلمات، بل هناك انقطاع حاسم، فآدم الارض بدأ من هذا الشعاع البسيط الذي نشره الله تعالى بين يديه، وبالوقت الذي كان فيه امتداداً مهيباً، اصبح عمقاً متوتراً، وتحول الوهج المعرفي في داخله الى تجليات متتابعة وليس تجلياً سرمدياً او شبه ازلي.

٣ ـ هناك علاقة جدلية ساخنة على الارض بين التلقي ـ آدم ـ وبين الاتمام ـ ابراهيم، فالتلقي تعمّق لدى ابراهيم على شكل وعي مركز ومعرفة متسعة، فان فاصل الزمن من شأنه اثراء الاستعداد النبوي، فالتلقي استبدل أو تطور الى بلاء، وابراهيم لم يكن ذلك المتلقي الاولي، بل ذلك الواعي: المتشوف، ولعلَّ حاسّة النقد عند ابراهيم تكشف عن أصول

نافذة في فن المعاينة الفكرية الفاحصة، والاتمام سياحة جهادية قاسية جداً، ونحن اذا تفحصنا الفاصلة بين الابتلاء من جهة والاتمام من جهة اخرى وأخذنا بنظر الجد والاعتبار خزين الكلمات الابراهيمية لاطلعنا على تجربة مفتوحة لشتى الوان الحركة والصراع، ولو تفحصنا تاريخ ابراهيم لألفينا انفسنا امام زمن مشحون بالجهاد القاسي، وفي تقديري ان الامامة جسدت كل تلك الكلمات، أو بتعبير أدق، منها تتفرع وتتشعب كل المسؤوليات الاخرى، فذبح اسماعيل ومقارعة الانحراف التصوري في أصل الوجود والتكاليف الروحية والجسمية تدور حول هذه النواة المركزية، ولذا ليس اعتباطاً ان تتواصل على لسان الوحي مباشرة بعد تبشير ابراهيم بالبلاء، فهي ـ الامامة ـ قيادة من خلال هذه المسؤوليات، والمسؤوليات المذكورة لا معنى لها ولا ميدان الاّ بواسطة الامامة. ومن العجيب ان ابراهيم لا يقبل بهذا الابراء فحسب بل يجد فيه شرفاً، ويتوسّل الى الله ان تكون علامة على امتداده النسبي والعائلي، مما يبرهن على صياغة البلاء في داخل ضميره على شكل فرح. وقد شاء الله ان تكون حقيقة سارية في هذا الامتداد الطيب. وسوف نعرض بالتفصيل الى صفات التعامل النبوي مع الكلمة بفصل لاحق.

(٩)

١ ـ قال تعالى: ﴿وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾الانعام: ١١٥.

هناك ميل عام الى ان (كلمة ربّك) هنا هي الدعوة الاسلاميّة.

الاتمام دليل الكمال.

الاتمام رحلة بدأت من الصدق وأضحت بالعدل، أو هو مسيرة من السماء الى الارض، فالصدق مقترب مفهومي يدل على المصدريَّة المطلقة لهذه الكلمة المقدسة، والعدل مقترب مادّي يدلّ على استقامة الحياة ان انضبطت بالكلمة ذاتها، فـ «عدلاً وصدقاً» مركب اشاري يلقي الضوء على مسيرة هذا الاتمام، وانه مزيج من هذا التلاون بين السماء والارض، فالصدق خلو من التناقض في متن النص، والعدل خلو من التناقض في صحيح تفاعله على الهامش، ان العدل هنا هو صدى للصدق في مرحلة التطبيق.

﴿لا مبدِّل لكلماته...﴾.

يذهب الكثيرون الى ان المعنى: لا مُغيِّر لاحكامه !! وهذا التفسير بارد جداً.

انّ هذا المقطع يتصل بعمليَّة الاتمام الذي بدأت به الآية الشريفة، ومفاده البعيد انتفاء البديل أو انتفاء النص الصادق والعادل في قبال الدعوة الاسلامية العزيزة[1]، فالاسلام هو الدين الذي استوعب العقيدة والشريعة والاخلاق على اتم مستوى من الطرح، وهو الدين المفتوح لاستيعاب كل طاقة، وبهذا ينتفي الدين البديل، فالكلمة هي الاسلام بعنوانه العريض، والكلمات هي تفاصيل هذا الدين الخاتم، واكبر شاهد على كون المقصود هو انتفاء البديل الآية التي تليها، اذ يقول تعالى: ﴿وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وإن هم الا يخرصون﴾ الانعام: ١١٦، كما ان الآية السابقة عليها تلقي باسبابها الى هذا المعنى

---

(١) وسيأتي طرح اعمق في النظرات التالية.

الجذري، ففي الانعام الآية ١١٤ يقول تعالى: ﴿أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين اتيناهم الكتاب يعلمون انّه منزَّل من ربّك بالحق فلا تكوننَّ من الممترين﴾، وعليه فان قوله تعالى ﴿لا مبدِّل لكلماته﴾، ينصرف الى استحالة النص الصادق العادل بعد النص الاسلامي، وليس المعنى تبديل الأحكام بالمعنى الشائع الساذج، فان التحذير من طاعة الآخر بعد توفر النص الصادق والعادل انما هو تحذير من اختيار النص البديل باعتبار انّه ليس تحويلاً ولا كفوءاً باي حال من الاحوال، وابتغاء غير الله بعد تفصيل الكتاب هو ارتماء في احضان نص غامض، مبهم، متناقض، ينطوي على شيء من الباطل أو هو الباطل برمته.

٢ـ وفي هذا المسار يمكن ان ندرج قوله تعالى: ﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا. فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ التوبة: ٤٠.

﴿كلمة الله...﴾ استئنافية، ومن الضروري ان لا تنعطف على ﴿كلمة الذين الكفروا﴾ في تناكر القطيعة وتتجذر المفاصلة والمعاندة، واعتقد ان (كلمة الله) هنا الاسلام، فنجاة رسول الله من المؤامرة انما تمثل علو الاسلام في الارض وقيامه شاخصاً بعقيدته وشريعته ﴿وكلمة الذين كفروا﴾ الشرك، وهذا التعاقب او التوالي الذي ينطوي على تناظر على خط الظفر بالمستقبل يؤكد معركة عقيدية وتنافساً ذا صبغة فكريّة، والذين كفروا من جهة ومحمد من جهة اخرى هم روافع هذه المعركة وآلياتها

التنفيذية، ومحمد يجسد آليّة القدر الذي اذا انثلم، تتوقف مسيرة التاريخ باتجاه الهدف الخير، كقيمة مركّزة ومفصلة، فعملاً بالاستئناف ومراعاة للتناظر على خط المنافسة، واستخراجاً لدور النبي بلحاظ الرسالة، كل ذلك يشجع على اعتبار (الكلمة) في الآية انما هي الدعوة الاسلامية، واهم ما في هذه الدعوة الزكية هو (التوحيد)، وقد استعملت (الكلمة) في هذا المعنى.

قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سوآء بيننا وبينكم الاّ نعبدَ الاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾ آل عمران: ٦٤.

والآية الشريفة فسّرت معنى (الكلمة) في بيانها وهي التوحيد الخالص المطلق الذي يشكل جوهر الدعوة الاسلامية قال تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبة﴾.

قالوا في التفسير، ان الكلمة الباقية هي قول ابراهيم عليه السلام﴿إنني براء مما تعبدون﴾.

٣ ـ قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله وورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ الاعراف: ١٥٨.

قال في مجمع البيان (يؤمن بكلماته من الكتب المتقدمة والوحي والقرآن)، وهذا المعنى على امتداد استخدام الكلمة في معنى الاسلام والتوحيد. ان:

١ ـ الاسلام.

٢ ـ التوحيد.

٣ ـ القرآن.

ثلاث مفردات متكافئة ومتعادلة، تتبادل القدرة على الترادف الى درجة الانصهار الذاتي الكامل، فلا ضرر ان تكون (الكلمة) عنوانا لكل مفردة، وقد اضيفت الكلمة في هذه الاستعمالات الى الله أو أهم صفة من صفاته (الرب)، لتعطي لها صفة الواقع الاصيل، وتنفي امكانية النص المقابل للاصالة والثبات، وبهذا هي غير قابلة للتحريف والتبديل.

(١٠)

١ـ يتفق كثير من المفسرين ان بعض استخدامات (الكلمة) في القرآن الكريم هو الوعد الالهي. قال تعالى: ﴿ولقد كذبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾ الانعام: ٣٤.

قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ الاعراف: ١٢٧.

قال تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ يونس: ٦٤.

من الواضح جداً ان (الكلمة) هنا تعني وعد الله للمؤمنين، ونجد تفسيراً قرآنياً لكل (كلمة / وعد) الامر الذي يوضح لنا مسار الاستخدام. ففي

سورة الانعام نستشرف بسهولة مصاديق هــذه (الكلمــة / الوعـد)، انــه انتصار الرسل والانبياء بعد رحلة معاناة شــاقة، اي بعـد تجربـة زمنيـة طافحة بالالام والعذابات. يقول تعالى:﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون﴾ الصافات: ١٧١. ونلاحظ بسهولة هذا الاندكاك بين هذا القضاء المبرم في (سـبقت) والوعـد بـالظفر والنصـر في الآيـة (٣٤ / الانعام)، خاصة ان قوله تعالى ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسـلين﴾، اشـارة الى دليل تاريخي على صدق هذا القانون الرباني الكريم، فهذه الكلمة / الوعد، مفسَّرة ومبرهنة عملياً في القرآن. وفي الحقيقة ان القضاء هنا وبلحاظ هــذه المسألة بالذات ليس لحظة عابرة، بـل جـاءت صياغتـه علـى شـكل سـنَّة تاريخية اجتماعية، ومن الخطإ ان نتعامل معها بطريقـة سـريعة وخاطفـة وهي ان الله كتب النصر لرسله وحسب بل يجب ان نطيل النظر في حوليات القانون.

هناك تصافق مصيري وكوني بين قولــه تعـالى ﴿ولقـد سـبقت كلمتنـا لعبادنا المرسلين انَّهم لهم المنصورون﴾ وقوله تعالى ﴿لا مبدّل لكلماتــه﴾ في هذا الخصوص بالذات، ففي السبق تقرر القانون واتخذ مكانه من تصميـم التاريخ كناظم لظاهرة معينة، وفي ﴿لا مبدِّل لكلماتـه﴾ تأسـيس لاسـتحالة نفي هذا القانون في سياق شروطه وظروفه، اننا نقرأ امضاءه الرباني بــين الاسحار / الثبوت. وبين عدم امكان تعطيله في ظـل ممكناتـه الـتي بيَّنـها القرآن ايضاً[1]. وبسبب المصدرية الالهيَّة للتأسيس، فان قواعـد الحيـاة لا تجيزه فحسب بل تُدلي بــه، فالبقـاء والظفـر للأصلـح،، والديمومـة علـى

---

(١) وتتأتى تصورات أخر في هذا الموضوع.

ملازمة الصحيح رغم الصعاب تقود الى النجاح، والحقيقة: لو لا نفاذ هـذا القانون في ساحة الحياة والتاريخ لما تقدم العلم الانساني ولتعطلت مسيرة التقدم ولانتفى الأمل على الاطلاق، وبلا ريب ان انتصار الحياة على الموت بدليل استمراريتها يتلاقى مع هذا القانون بشكل من الاشـكال. واذا كـان السبق المذكور هو المدخل لفهم استحالة النقض في ﴿لا مبدّل لكلماته﴾ فـان الآية طرحت شروط جاهزيّة السبق وهي التجربة القاسية بكـل مـا تعنيـه من معنى.

استيراث بني اسرائيل لا يخرج عن سُنّة الوعد الالهي في اطار محسـوب بقراراته التجريبيّة الواضحـة. لان الاسـتضعاف لا يعـني وجـود قطبـين اسميين فحسب، بل وجود قطبين فعليـين، فـان المعادلـة الثانيـة تسـتبطن تجربة كفاحية من طرف، والاّ فان هنـاك استسـلاماً وليـس اسـتضعافاً، فالمستضعف هو المرفوض بسبب موقف، وليس هـو المضطـهد فقـط، انـه مضطهد لكونه ايجابياً، والصبر ليس علـى الظلـم وانمـا علـى الاضطـهاد بسبب الموقف، ولا ارى أنّنا بحاجة لأن نقول: ان الاتمام (هنا) مترشح من ذلك السبق الذي نقرؤه في ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انـهم لهـم المنصورون﴾ لان انتصار الرسل ليس ظاهرة ضرورية وانما هـي ظـاهرة مركبة من جماعة وعقيدة وقرار، يمثل المرسلون موقع القيادة منها. وترى المؤمنين في الآخرة في الجنة ان شاء الله تعالى. أمّا البشرى في الحيـاة الدنيـا فقد قيل فيها أكثر من رأي:

أ ـ الاستحقاقات الطيبة على الاعمال الصالحة في الدنيا.

ب ـ نعمة الاطمئنان عند الموت.

ج ـ الرؤيا الصالحة.

ومهما كان الرأي، فأنَّ المسألة التي تستحق الالتفات، ان (كلمة الله) هنا تذكرنا بالكلمة السابقة التي تجسدت في قضاء الله بخلق الزمن الصعب ﴿ولولا كلمة سبقت من ربّك الى أجل مسمًّى لقضي بينهم﴾، ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾، فهي دائرة ثالثة تتراصف مع الدائرتين السابقتين اللتين فصلنا فيهما الحديث، ففي هذا الزمن الحتمي تنفرز ثلة من الناس، هم حملة الايمان، ترافقهم بشرى الله في الحياتين الاولى والثانية، وقد كان موقع هذه الآية (يونس: ٦٤) في بنية تلكم المصفوفة التي تشكلت من نواة وحوليّات، اي من القضاء في حومة الزمن الصعب ثم استحقاقات الذين انحرفوا عن خط الفطرة في العاجلة والآجلة، حيث تكمل الدائرة الثالثة تجليّات القانون الاكبر وتختم مسيرته من البدء حتى النهاية، لقد كان موقع هذه الآية في هذا النظم المحكم ولكن ضرورة فنية حالت دون ذلك.

٢ ـ نعتقد أن الحسّ العلمي يساعدنا على وضع التراتيبيّة القرآنيّة التالية:

ا ـ ﴿لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون﴾ الصافات:١٧١.

ب ـ ﴿ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾ الانعام: ٣٤.

ج ـ ﴿واورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشرق الارض ومغربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربّك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا

ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ الاعراف: ١٣٧.

فمن الواضح ان هناك نظرية وتطبيقاً وشروطاً، بل اكثر من ذلك هنـاك احالة برهانيّة مستقاة من التاريخ كما في قوله تعالى ﴿ولقد جاءك مـن نبـأ المرسلين﴾ وهو ذيل الانعام: (٣٤)، وبالتالي، فان قضاء الله هـو (قـانون) تاريخي اجتماعي يتصل بحركة الانبياء وحركة المجتمع الانساني.

(١١)

١ـ قال تعالى: ﴿واذ يعدكم الله أحدى الطائفتين أنّها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم ويريـد الله أن يُحـقّ الحـقّ بكلماتـه ويقطـع دابـر الكافرين﴾ الانفال: ٧.

قال تعالى: ﴿ويحقّ الله الحقّ بكلماته ولو كره المجرمون﴾ يونس: ٨٢.

قال تعالى: ﴿أم يقولون أفترى على الله كذبا فـأن يشـاء الله يختـم علـى قلبك ويمحُ الله الباطل ويحـق الحـق بكلماتـه أنـه عليـم بـذات الصـدور﴾ الشورى: ٢٤.

في هذه الآيات الكريمات نلتقي بفكـرة قرآنيـة مهمـة او قـاعدة قرآنيـة تأسيسيّة، مؤدّاها وجوهرها: أنّ كلمات الله آلية لأحقاق الحق.

وبطبيعة الحال كلّ هذا يستوجب أحاطة علميّة بكـل مفـردات المعادلـة، ترى ما هي كلمات الله في هذا المقطع القرآني؟! ما المقصود باحقاق الحـق؟! وكيف يكون ذلك؟! وفي تقديري أن البداية تكمن في استكناه معنى الحق...

الأصل في الحق الثبوت مع مطابقة الواقع، وفي القرآن يقال على أكثر من وَجه... أذ يعلق على الله تبارك وتعالى ﴿فذلكم الله ربكـم الحـق﴾، ويطلـق

على الشيء الموجود طبق الحكمة، أي وفق سياق وظيفي ﴿ما خلق الله ذلك الاّ بالحق﴾، وفي عقيدتي ان التعبير الاوفق هنا، الشيء بلحاظ سُنته الكونيّة، والحق هنا ليس أصطلاحاً اخلاقياً ولا غائيَاً وانما هو القانون الطبيعي، ويطلق على الاعتقاد بالشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء بالذات ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما أختلفوا فيه من الحق﴾، ويطلق على القرآن الكريم وطريقة نزوله ﴿القصص الحق﴾، ﴿نزل الكتاب بالحق﴾، والإشارة الى الثبوت والواقع كما هو واضح... ويطلق على الدعوة الاسلامية ذاتها، وليس من ريب أن اطلاق كلمة الحق على القرآن الكريم ينسحب على هذه الدعوة المباركة.

و(أحقاق الحق) يعني أظهاره وأثباته، هكذا يقولون، ولكن لماذا لا نقول ان أحقاق الحق يعني في المدي البعيد أعلاءه؟ فان الحق هو الثبوت في الاصل، وأحقاقه لا يزيد في أثباته، وانما يجعل له اليد الطولى، أو يجعل له الكلمة النهائية، تحكيمه والسير على هداه، أو توكيد وجوده في مقابل تحديه وأبطاله، وأعلاء الشيء يزيد على ظهوره واثباته، وفي مرحلة تالية يزيد على الثبوت كما هو واضح، والمحصلة النهائية لكل هذا هي (الانتصار)، فأحقاق الحق يعني أنتصاره وظفره بالغلبة.

ليس من ريب أن (أعلاء) الحق أو انتصاره لا يتم بفعل الذاتية المطردة والمتسقة، وانما لابد ان نتوسل بآلية معينة لتحقيق هذا العلو، كأن تكون القوّة الماديّة، أو الحجّة المنطقية، وكلمات الله هنا آليّة مطروحة لاحقاق الحق، أي لتعليته.

لقد أعلى الله القرآن بالاعجاز، واعلى الله تعالى كلمته بالدليل والبرهان،

واعلى الله تعالى خلْقَه بالقوانين الطبيعيّة، واعلى الله سبحانه الخير بناموس القوة، وأعلى الله الحياة بتهيئة اسبابها واعلى الله تعالى العدْل بالعمل عليه، فالحق سواء كان موجوداً خارجياً او فكـــرة صحيحــة أو حكمــاً عــادلاً لا ينتصر بقوته الذاتية وانما بأسباب وعوامل ومبرِّرات.

٢ ـ الآية (٧) من سورة الانفال جاءت ضمن مصفوفة من الآيات يحتل فيها [الحق] موقعاً ضابطاً أو ناظماً القضايا الواردة فيها.

قال تعالى: ﴿كما أخرجك ربُّكَ من بيتك بالحق وان فريقــاً مــن المؤمنــين لكارهون، يجادلونك في الحق بعدما تبيَّن كأنمـــا يُســاقون الى المــوت وَهــم ينظرون، واذ يعدكم الله أحدى الطائفتين أنَّـــها لكــم وتــودّون أنَّ غــير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحقّ الحقَّ بكلماته ويقطع دابر الكفــارين﴾ الانفال: (٥ ـ ٨).

فمن الواضح جداً ان الحق هو ناظم هذه المصفوفة من الآيــات القرآنيــة الكريمة، فقد جاءت هذه (الكلمة) ست مرّات، كما وردت مشبّعة بــالدلالات والمعاني، وفي تيار من الحركة والصراع والمفارقات، فهناك الكره والمجادلــة والبيان وذات الشوكة... وكلها صيغ لغوية حادّة وذات أطلالة على صميم التاريخ، والآيات نزلت في موضوع غزوة بدر بعد ان أبدى بعض الصحابــة الرغبة في المنافع الماديّة دون القتال: فيما رسول الله يريــد (ذات الشــوكة)، الامر الذي يزيد من وضوح الجو المشحون بحركة المفارقات.

* **الاخراج [بالحق]** هو ذلك الاخراج الملتبس بالحكمة والصــواب، فقــد خرج رسول الله من المدينة وفق تقديرات موضوعيّــة عسكريّة صحيحــة ودقيقة وثبت صحّة موقفــه خــرج الى بــدر مقــدّراً نتيجــة وقــوّة القافلــة

القريشية بقيادة أبي سفيان، ومقدّراً أهميّة الانتصار على هذه القافلة التي كانت في البداية غنيّة الحمل ضعيفة العدد، وقد تعاقد مع المراصد والمسالح على الطريق كجزء جوهري لاداء العمليّة.

* **[الجدال بالحق]**: جدل حول الحرب، فقد كرهها ثلّة من المؤمنين في حوار معروف بين النبي والصحابة فيما كان رأي رسول الله صلى الله عليه وآله أمضاءها والسير بها، وأنجز كل المشتقات التي تترتب على هذا القرار، ولكن ما هو الوجه في تسمية هذه الحرب بـ (الحق)؟!

وفي تقديري ان القرآن دعاها بـ (الحق)، لان الحرب بينَ الخير والشر مسألة واقعة وأمر حتمي، او لان الصراع بين النور والظلام قانون اجتماعي تاريخي ماضٍ في جسد الزمن، ولا يشترط في الحرب ضمن هذا التصور أن تكون بالسلاح المادي وحسب بل قد تكون بالفكر والأعلام واللسان، فهؤلاء كانوا يجادلون رسول الله حول مسألة كونية او سنة تاريخية لم يكونوا قد اكتشفوها بعد، وأن الدعوة لا تظهر وتعلو الاّ من خلال الصراع بشتى فنونه واشكاله وصوره، وبهذا فالحرب في هذا المنظور ومن هذه الرؤية انما هي (حق)، فالحق يرادف الواقع، والحرب هنا واقع لا مفرّ منه، والتجربة الانسانية أثبتت هذه المعادلة الصعبة الشاقة. ومن البديهي ان لهذا الصراع اشتماله وآلياته وظروفه، وبالنظر الى ملابسات الاعلان النبوي نجد أن الظروف كانت مؤاتية، ولذا وصف الله تعالى خروجه من المدينة لهذه الغاية بـ (الحق).

ان رسول الله خرج من المدينة طبق الظروف الموضوعيّة كما نرى من قراءة التاريخ كما أنّ أمضاءه للقتال جاء تجاوباً مع سنة التاريخ، فهو بدا

من الحق وقررَ بالحق، والحق هنا لا يتعدى حدود الواقع أبداً.

* **[يُحِقَّ الحقَّ]**: اظهاره على نحو الغلبة والأنتصار، أبراز آثاره وتحكيم منطقه وقانونه وأشاعة فضائه ونشر أيحاءاته في الحياة والمجتمع، وتأسيساً على هذا فان الحق في بعض مصاديقه (وذلك على أقل التقادير) في حاجة الى رافعه، أي لا ينتصر بمجرّد أتساق وحداثة أو أنسجام وحدته، لا ينتصر لانه كائن أو فكرة أو ظاهرة محكومة من داخلها بمنطق اليقين أو قانون الافراد، بل لابد من آليّة تساهم في تكريس الحق وفق منطقه ولغته الخاصة بكل مفردة من مفرداته.

والحق في هذا المقطع القرآني الشريف هو (الدعوة الاسلاميّة) في مواجهة الكفر والشرك والضلالة والأنحراف. فالله يريد ان ينصر الاسلام بأظهار آثاره علي الارض، تحكيم الظاهرة القرآنية، شعار التوحيد، النبوّة، وذلك بتمكين آثار ذلك في جبين الواقع. فقوله تعالى ﴿يريد الله ان يحقّ الحق...﴾... اراد أن يظهر الحق... ويعز الاسلام ويظفركم على وجوه قريش...

* **[بكلماته...]**، وهذه هي الآليّة، ان الله اراد للاسلام الظفر بكلمات الله تبارك وتعالى، ومن هنا يكون السؤال مشروعاً عن هويّة هذه الكلمات؟!

ما هي كلمات الله هنا؟!

الراي الاول: قضاء الله الذي سبق ـ رتبةً ـ تصميمه وتأسيسه بارادة الله جلّ وعلا، وهو القضاء الموسوم بقوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون﴾ وبقوله تعالى: ﴿وان جندنا لهم الغالبون﴾، وبقوله تعالى: ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

الرأي الثاني: الكلمات هي أمر الله بالقتال، أي آياته المنزّلة بمقاتلة الكفار.

وفي الواقع: ان تفسير الكلمات في هذه الآية بكلمة الله السابقة بانتصار الرسل في نهاية المطاف انما تصيب المرمى البعيد من المعنى، فيما نحن نستطيع أن نتعايش مع السبب المتصل بالهدف [احقاق الحق] على مقربة زمنية وماديّة، وربما نتقرب بذلك من الرأي الثاني بل ربما نجمع كل هذه التصورات في بوتقة واحدة.

ان (كلمات الله) هي ذات القتال الذي أمر الله به كمصداقٍ لقضائه، الاشمل الذي يؤكد آن أنتصار الحق لا يتأتى ألاّ من خلال الصراع، أنه نفس القتال المأمور به، باعتباره واقعاً لا مفر منه لأحقاق الحق، فالقتال هو آليّة أحقاق الحق في هذه الظروف، التي نزلت فيها هذه الآيات المباركات، وعليه يكون المعنى: ان الله أمركم بالقتال لان القتال كلمته لاحقاق الحق، أن (كلماته) بيان مختصر لاقرار القتال باعتباره ضرورة واقعية نابعة من الظروف والملابسات الحاكمة آنذاك، وهذا الاتجاه يدنو من الاتجاه الذي يركز على الأمر بالقتال، كما انه صدىً بعيدٌ لوعد الله وقضائه في صرف التاريخ بموازاة الحركة النبويّة. واذا أدى هذا القتال بشروطه فانه سوف يؤدى الى النتيجة، أي احقاق الحق.

٣ـ الآية (٨٢) من سورة يونس جاءت في معرض المعركة الحاسمة بين عصا موسى وعصي السحرة، وبالتالي بين قوانين الواقع وأبهامات الخيال، بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿**وقال فرعون آئتوني بكل سحّارٍ عليم، فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقُوا ما أنتم مُلقُون، فلما ألقَوا قال موسى ما جئتم به**

السحر أن الله سيبطله ان الله لا يُصلح عمل المفسدين، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ يونس(٧٩ ـ ٨٢).

نستفيد من هذا المقطع القرآني الشريف أنّ المعركة كانت بين الحقيقة والوهم فان فعل السحرة كان مجرّد خدعة، انّ العصيً التي ألقوا بها أستمرت على حالها، وكونها تسعى انما هو من ايحاءات الخيال بدلالة قوله تعالى ﴿فاذا حبالهم وَعصيهم يخيّل اليه من سحرهم انها تسعى﴾، وابطال الله لهذا الباطل يكون بأظهار الحق في قباله، ولذا كانت حقاً عصا موسى تسعى لقوله سبحانه ﴿فألقاها فاذا هي حيّة تسعى﴾، فالمعركة اذن كانت بين سعيٍ متخيّل وسعيٍ حقيقي، ولكن في كثير من الاحيان لا يتحصّل ابطال الباطل باظهار مضمونه الداخلي الهش، وانما بابراز الحق في مواجهته في حالة أنتصار السعي المتخيّل منخور من داخله، زيف في صحيحه، ولكن من الصعب الكشف عن هذا الانهيار الجوّاني، ولذا، كان اللجوء الى مواجهته بالحق من الخارج، وبذلك انتصرت عصا موسى على حبال وعصي السحرة، لان هناك حياة وهنا وهماً.

[ويحق الله الحق...] أي يظهر حقائق الحياة ويعلو بها على أيحاءات الوهم، يغلّب سطوة القانون الكوني على الخيال المصنوع.

[بكلماته...] بقضائه الذي صمّم مسيرة الوجود وفق صيغ من التقديرات الثابتة، ومنها هذا العلو للحقائق والسنن الكونية على الاوهام ﴿فلن تجد لسُنّة الله تبديلاً ولن تجد لسُنّة الله تحويلاً﴾، ولقد كانت عصا موسى أفعى حقيقيّة خارجية بقدرة الله، فيما كانت حبال السحرة وعصيهم أفاعي وهميّة وخياليّة...

أن أحقاق الحق هنا تأتي من توفر أسباب خارجية، وهي القوانين التي فطر الله عليها الكون والحياة والتاريخ، هذه القوانين التي هي صدى لقضاء الله للأشمل او الكلي.

٤ـ قال تعالى: ﴿أم يقولون أفترى على الله كذبا فأن يشاء الله يختم على قلبك ويمحُ الله الباطل ويحق الحق بكلماته أنه عليم بذات الصدور﴾ الشورى: ٢٤.

قال في صفوة التفسير [أي بل أيقول كفار قريش ان محمداً أختلق الكذب على الله بنسبة القرآن اليه؟ قال ابوحيان: وهذا أستفهام أنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة أي ان مثله لا يُنسَب الى الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصدق والامانة ﴿فان يشأ الله يختم على قلبك﴾ أي لو أفتريت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قلبك فأنساك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تفترِ على الله كذباً، ولهذا أيّدك وسدّدك، قال ابن كثير: وهذا كقوله تعالى: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾. قال ابوالسعود: والآية أستشهاد على بطلان ما قالوا بيان انه عليه السلام لو أفترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه ولم ينطق بحرف من حروفه ﴿ويمح الله الباطل﴾: أي يزيل الله الباطل بالكليّة ﴿ويحق الحق بكلماته﴾، أي: ويثبت الله الحق ويوضحه بكلامه المنزل وقضائه المبرم، وقال ابن كثير، بكلماته: أي بحججه وبراهينه...].

[الباطل]: القول بان محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد أفترى هذا القرآن وهو ادّعاء قريش وكل من سار على هذا النهج من الأنكار قديماً

وحديثاً وَمستقبلاً، من أي انسان كان، وفي أي مكان.

[الحق]: هو الايمان والتصديق، أو بالأحرى هو كون هذا القرآن من الله تبارك وتعالى، نزله بالحق على قلب محمد الحبيب، ويترتب على ذلك الايمان بالمصدريّة الالهيّة، الكتاب العظيم.

[واحقاق الحق]: أثباته ظاهرة مستمرة، تتسم بالتحدي والمواجهة، أي أعلاء شأنه وتوكيد تفرّده عن طريق هيمنته على بقية الكتب السابقة واللاحقة، والعجز المطلق من الاتيان بمثله أو بعضه او سورة منه! سواء من المعاصرين للكتاب أو اللاّحقين، وهو الامر الذي حصل فعلاً!! ولا يوجد أنتصار للحق وتغليب له مثل هذا أبداً وما نراه هنا، ان القرآن في آياته هذه وازن بين الحق والباطل بمسمّيات محدّدة، وأمضى ثبات الأول ودوامه وهلاك الثاني وأنقطاعه، ولكن تغليب الحق انما كان بسبب هوَ الآخر مسمّى محدّد.

منه (كلمات الله).

فما معنى (كلمات الله) في هذا المجال؟

اعتقد أنها أعجاز القرآن وقدراته الفذة على مطابقة الواقع بالدليل العقلي والتجربة، وإنباءاته الكثيرة عن الغيب الذي جاء ترجمة كاملة للمستقبل، وبلاغته التي فلّت قدرات العرب اللّسانية المشهودة لهم قديماً وحديثاً، هذه هي كلمات الله التي أنتصر بها القرآن، التي برهنت ان الكتاب من الله تعالى وليس من ابداعات محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، فهي أقرب الى مقولة الحجج والبراهين، وليس من ريب ان هذه الكلمات هي تطبيق للقضاء الاكبر الذي بموجبه حكم الله تعالى بانتصار الواقع واندحار الوهم.

﴿يمح الله الباطل ويحق الحق...﴾ فان صيغة المضارع تدل على الدوام والاستمراريّة والمتابعة، فهي قانون ثابت في مسيرة الوجود، والكلمات التي هي آليّة هذا الايحاء وآلية هذه الفعلية تتصل باسباب معينة تتناسب مع الظروف الحاكمة والقضية المطروحة.

(١٢)

قال تعالى: ﴿مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكرون﴾ أبراهيم: ٢٤.

التصور العام ان الكلمة الطيبة هنا هي [لا اله إلاّ الله] او التوحيد، ولكن ما المانع من ان تكون اشارة الى كل كلمة ذات منحى أيجابي وذات تأثير صاعد في خير الحياة والمجتمع؟! ويكون شعار الشهادة بالألوهيّة انما هو القمّة من هذه الكلمات، وليس من ريب ان الكلمة الخيّرة لها دور قائد في توجيه الحياة، ولعلّ هذا هو المقصود من عطائها الدائم الذي نوّهت اليه الآية الكريمة، ويبقى أثرها مستمراً في هذا الاتجاه، ومما يؤيد هذا المذهب قوله تعالى: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ فاطر: ١٠. فالكلم جمع كلمة، والطيّب منه ما كان عاملاً بموازاة الخير، كالذكر والدعاء والصلاة والتعامل بالحسنى مع الآخر. كل ذلك كلم طيب، وصعوده عبارة عن قبوله عند الله تبارك وتعالى، حيث يترتب عليه ما يحيي الارض في الحياة الدنيا وما يجزل الثواب لفاعله في الحياة الاخرى، وليس من ريب ان الكلمة الطيبة هنا ليست مفرده عارية، بل هي قضايا، وربما سجال ودعوة وفكر

في هذا السياق يأتي قوله تعالى: ﴿والزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها﴾ الفتح: ٢٦.

قالوا كلمة التقوى هي: لا اله الاّ الله...

(١٣)

جاءت (الكلمة) في القرآن الكريم مفسَرة في بعض الاستعمالات، وقبل ان نلج القسم الثاني من الدراسة ينبغي الكشف عن هذا الاستعمال في أطار التفسير الذي طرحه القرآن بالذات، فان ذلك قد ينفعنا في استجلاء معالم البحث القادم... نذكر هنا النماذج التالية:

[١] ﴿الزمهم كلمة التقوى﴾ الفتح: ٢٧.

كلمة التقوى التي فسّرت بـ (لا اله إلاّ الله).

[٢] ﴿كلا انها كلمة هو قائلها﴾ المؤمنون: ١٠٠

تفسيرها: ﴿ربّ ارجعونِ لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾.

[٣] ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم...﴾ آل عمران: ٦٤

قالوا: ان تفسيرها قوله تعالى ﴿.. الاّ نعبد الاّ الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضُنا بعضاً ارباباً من دون الله﴾ آل عمران: ٦٤.

[٤] ﴿وتمّت كلمة ربّك لأملأن جهنّم من الجنة والناس أجمعين﴾ هود: ١١٩.

قالوا ان تفسيرها قوله تعالى: ﴿...لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين﴾ هود: ١١٩.

[٥] ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ الكهف: ٥.

قالوا: ان تفسيرها قوله تعالى: ﴿اتخذ الله ولداً﴾.

[٦] ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ الزخرف: ٢٨.

قالوا: ان تفسيرها قوله تعالى: ﴿أنني براء مما تعبدون﴾ الزخرف: ٢٦.

[٧] ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ التوبة: ٧٤.

قالوا: ان تفسيرها قول احدهم عندما رجع الى المدينة كما أخبر الله تعالى بذلك... ﴿لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الاعز منها الاذل﴾ المنافقون: ٨.

(١٤)

وقبل ان نلج أيضاً الى القسم التالي من الحديث عن موضوع الكلمة في القرآن الكريم ينبغي ان نضع خطاطة ملخصّة مما سبق:

خلاصة أولى:

جاءت (الكلمة) في الكتاب العزيز وهي تشير الى التحادث أو التخاطب الشفاهي البشري بعد أن توفرت اسبابه البايولوجية من جهة وموضوعه الداعي الى اعماله في سجل الحياة من جهة أخرى، وقد كانت الكلمة بهذا المعنى محلّ احتفاء في حركة الانبياء، أعجازاً وسلاحاً بشكل وآخر، ومن ثم هي مدخل جوهري لتحليل العالم، وبلا شك تمثل الكلمة موضوعةً اساسيّة في حركة التاريخ اذا عرفنا انها وبهذا المعنى، شيّدت اساسيات العلاقة بين الله والانسان عبر الانبياء عليهم السلام.

خلاصة ثانية:

جاءت (الكلمة) في الكتاب المبين وهي تعني اشياء الله، مخلوقاته،

موجوداته، مع الأخذ بنظر الاعتبار ان كل (موجود) عبارة عن سيل من الاحداث، لان خلفيته الاساسيّة مجموعة من العلاقات الفاعلة النشطة[1] والقاعدة التي انبثق منها هذا التشبيد التي هي التام واللحظي بين كلمة الله وفعله ﴿إنما أمره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، وعيسى عليه السلام مفردة تطبيقيّة في هذا المجال، ثم التوكيد عليه بهذا العنوان لاسباب عقائدية سائدة في وقت رسالته.

خلاصة ثالثة:

جاءت (الكلمة) في الكتاب الكريم وهي تعني تكاليف اسماء النبي أو لهذا الانسان المأمور بعبادة الله تبارك وتعالى، وقبل ذلك كانت مفتاح المعرفة الارضيّة، أقصد الزمنيّة التي مَنّ الله بها على آدم، ومنها تطورت مسيرة الفكر البشري بعد تاريخه المعقد الطويل أو هي تعني ايضاً تجربة أبراهيم القاسية في الدنيا والتي يمكن اعتبارها انطلاقة جديدة لتاريخ جديد، وسوف يأتي تفصيل في ذلك.

خلاصة رابعة:

جاءت(الكلمة) في كتاب الله وهي تعني قضاء الله المحتوم، ومنه تنبثق اكثر من دائرة تندمج في سياق الحتم العظيم، فقد نفذه الله تعالى بتأخير الثواب، والعقاب النهائيين (الجنة والنار)، وبذلك نشأ الزمن الصعب ومنه تولّد الامتحان وعليه ترتبت نتائج الجبر في هذا الزمن بالذات، والوعد

---

(١) من دون النقاش في حومة ايهما اسبق، العلاقات ام الاحداث لانه نقاش ذهني صرف لا فائدة منه.

والوعيد يرتبط بهذا الاستعمال الجميل.

خلاصة خامسة:

جاءت الكلمة في الكتاب الشريف وهي تعني (الاســـلام) باعتباره آخر صيغة سماوية لتوجيـــه الانســان او بــالاحرى لتفجـير طاقــات الانســان ونظمها في تيار الابداع والانشــاء والنبـأ والخلـق والتكويـن. فـهي كلمـة تشريعية تربوية تتوازى مع كلمـة الله التكوينيـة المتجسـدة في موجوداتـه التي لا تحصى.

خلاصة سادسة:

جاءت الكلمة في كتاب العربيّة الاكبر وهي تنبئ عن قوانين الله في الكـون والحياة والمجتمع والتاريخ، وهي لهذا المعنـى تنـداح بذلـك أو تحـت ذلـك العنوان الكلي العريض أي قضاء الله المحتوم.

هذه خلاصات سريعة عما مضـى بيانـه مفصّـلاً في مجـال اسـتخدام القرآن للكلمة.

١ـ لقد تخطى القرآن الكريم المعمم في ممارسة الوظيفة التعبيرية للكلمة. أغناها وأثراها، وجعلها على صلــة حيّـة بـالواقع والحقيقـة. وتبلـغ هـذه الممارسة الذروة في هذه الخصائص عند اضافة الكلمة الى الله بصـورة مـن الصور (كلمتنا، كلمات ربك، كلامي، كلمة الله، كلمات الله...).

٢ـ جعل الكلمة شديدة الصلة بالانسان العادي وأخرجــها مـن حومـة الأحتكار النخبوي والاستعلائي، فالكلمة أطار النظم الانساني وآلية حركته وصيرورته في هذه الحياة، وعندما سمّى تلكم المجالات (كلمــة) انمـا اقـام

لكل انسان القراءة الوجودية الشاملة.

الكلمة في القرآن في كل مصداق من مصاديقها تاريخ، زمن لا يعرف الهدوء أبداً، ومنطقه الداخلي عبارةعن اقطاب وقوى من التوتر الفعّال، وغايتنا الآن دراسة هذا التاريخ مع كل كلمة بمفردها، ثم نتعرض للعلاقات الأفقية بين هذه الكلمات.

(١)

١ـ أرتبطت الكلمة بالأنبياء بوشائج من علائق المسؤوليّة والهدف والحركة، ونظرة سريعة الى هذاالارتباط تكشف عن تصاعد من الأفرازات التي من شأنها ومن طبيعتها تحويل الحياة الى ساحة تمكنه من ذاتها وحقيقة قائمة على صلاحيّة الحق.

وتوفر هذه الافرازات آليّات متنوّعة لحماية هذا الحق وتجذير أصالة وتوسيع أشعاعه، وتعامل الأنبياء مع الكلمة هو الآخر ليس على مستوىً واحد، بل هناك طبقات متدرجة من عمق المسؤولية، تبعاً لتطور الزمن وتماشياً مع تفاعلات التاريخ الحاكمة بتفعيل الايام وتثوير المكنات الهائلة التي يختزنها الكون.

الكلمة في ضوء هذه الأشعاعات تاريخ مشحون، أيام تتداول ممكناتها قصّة الانسان في صراعه من اجل البقاء بل من أجل الأفضل، والأطلاع على مفاصل هذه القصّة لا يكون بدراسة الآيات حسب نزولها، بل بدراسة الآيات حسب تسلسل الحركة النبويّة، وذلك في اكثر من مجال حي يتيح لنا التماس مع هذه المفاصل.

٢ـ تبدأ (الكلمة) بمشروع حضاري منذ أن هبط آدم على الارض، لانّها في الاصل مشروع زمني، موضوعي، أرضـــي، ولا علاقـة للاسمـاء بـهذه الكلمة الحيّة، فان جنة آدم كانت حدثاً طارئاً على جسد الزمن الحقيقـي، و لهذا أنتفت اليها الحاجة بمجرد الهبوط، ان زمن جنّة آدم عبارة عن هـامش على قصّة الخليقة، فالأسماء الـتي تعلمـها كـانت مجـرّد لتثويـر قابلياتـه الذهنية، وهي علم غامض لا يعرفه الا الله تعالى، وليس لها صلة بـالارض، بدليل ان الملائكة كانت تجهل كنهها. رغم ان الملائكـة هـي الوسـائط بـين العـرش والوجـود.. كـانت للتحـدّي والمباهـاة وليسـت للبنـاء والتعمـير والصيرورة والتغير. ولذا فان للكلمة تاريخها الارضي البحـت، والأسمـاء هذه ولّدت طاقة التلقي عند آدم ثم رحلت الى عالمها المبهم. لا اكثر ولا أقل.

ان الحوار حول الاسماء جدل عقيم، جدل يـؤول الى الجمـود والثبـات، لانها أسرار عنيدة وقد مات زمنها الى الابد، والمهم هو الألتفات الى الكلمات التي تلقاها آدم على الأرض، فهي مفتاح التاريخ الحقيقي.

ان الاسماء تتصل بـ (غيب السماوات والارض) الذي يعلمه الله وحـده، والانسان مخلوق للمعلوم وليس للغيب، وهو مسؤول عن تحويل المجـهول الى علم، واتصاله بالغيب أيمان فقط عن طريق الفكر الثاقب، ولذا: أعتقد أنّ آدم نسي تلكم الاسماء في لحظة هبوطه المقـدّس الى الارض الحبيبـة، فيمـا الكلمات علم أرضي، تلقاها بعد أن اتصل بالزمن مباشـرة، ومنـها انطلـق يدشن حياته الواقعيّة، ان العلاقة الحقيقية التي ثبتت بها الخلافة الارضية، انما كانت مع الكلمات، لقد كانت الكلمات تنتظر هبوط آدم كي تتذلـل بـين يديه ويحوّل بها المجهول الى معلوم، ويولّد منـها نسـيج الحيـاة الجديـدة،

وتتحرك على أوتار طاقاته الهائلة كي يضع في كل لحظة كوناً جديداً.

ما هي هذه الكلمات؟!

قيل هي التوبة، وقيل انها كلمات تؤول الى هـذه النتيجة، وقيل، انها سبحان الله والحمد لله ولا اله الاّ الله والله اكبر و قيل انها: «اللهم لا اله الاّ انت سبحانك وبحمدك ربّ اني ظلمت نفسي فارحمني انك انت خير الراحمين».

ومن الواضح ان الاتجاه العام لهذه الكلمات ذو منحى عقائدي بسيط، وهي علم وفكر[1] ومبادئ لان التوبة وبلحاظ كل الصيغ المطروحة بداية مشروع حيوي على الأرض، وفي هذه اللحظة تأسّس اول أرتباط بين الله والانسان قائم على فكرة التوبة المتبادلة، فآدم تاب الى الله والله تاب على آدم، والطرف الثاني من هذه العلاقة ذو معنى عميق، فان توبة الله على الانسان تعني أصلاح حاله وتوفيق مساره في هذه الحياة، والدعاء المساق في حركة التوبة يشكل مدخلاً الى ساحة هذه الحياة، فالرحمة المرجوّة متصلة بالارض، اذ دخل آدم في حومة زمنها الصعب، واذا علمنا ان آدم خلق للارض اوّلاً، نكون قد ادركنا هذه الشبكة من القضايا التي تتداخل فيها الكلمات مع المسؤولية، مع العقيدة...

كان تعامل آدم مع هذه الكلمات بسيطاً، فهو على مستوى (التلقين)، وسواء كان هذا على طريقة المُرسل والمتلقي او على طريقة التدارك بالنجاة فطرةً والهاماً من الله، فان درجة التعامل كانت على مستوى الاخذ والقبول

---

(١) رغم بساطتها انذاك.

التلقائي، الاستسلامي الهادئ، تماماً كما يتلقى الطفل عن أمه أو أبيه.

هذه الكلمة البسيطة تطورت الى منظومة من القضايا العقيديّة والعمليّة والتكليفية مع ابراهيم عليه السلام، فقد أنثالت على ابراهيم صيغ التكليف المسؤولة عن توجيه الحياة وتصحيح مسار التاريخ، وذلك ان مساحة الزمن الصعب ترامت باطرافها وتعقدت باعطافها ومضامينها، فالكلمة دخلت مرحلة جدية في زمن هذا النبي العظيم، مسّت جوهر الانسان وظاهره، وارتوت من أفرازات الزمن، لتخرج الى حيّز الوجود، وهي منقّحة ومُزدانة بأرشاد السماء، فالكلمة بنت الارض أساساً، ولكن السماء تؤطرها وتنعشها بروحها الالهيّة، فلا يوجد تكليف اذا لم تكن له جذور في الارض، ومن الملاحظ أن مديات هذه الكلمة تتماشى في العمق والسعة مع عقل ابراهيم الذي سار أو قطع مرحلة معقدة من معادلات التفكير.

اذن كانت (الكلمة) تجربة قاسية جداً، وذات أبعاد مترامية، ومن هنا، تعامل معها ابراهيم من منطلق الأبتلاء، او أن الله أبتلاه بها، والبلاء يرفع صاحبه ويأتي عقب معاناة بالغة الشدة والقسوة والارهاق. أن ذات ابراهيم عليه السلام كانت مستويات من القابلية العالية على التلقي الواعي، ولذا تنقّلت الكلمة في داخله من ضابط الى آخر، فمن العقيدة الى الاخلاق الى الشريعة، تتواصل بشدّة وسرعة في تحكم بمنطقها تجاه التاريخ. وكما مضى بنا أن اتمام الكلمة كان عملاً ابراهيمياً ينم عن تفاعل مستويات وعيه مع البلاء على متنٍ من الرصانة والتنفيذ، ولا يمكن بلوغ كل ذلك الا بعد التجربة المرّة.

لقد كانت تجربة آدم فرديّة صرفة، فجاءت كلمة(توبة) تتماشى مع

المسؤوليّة المحدودة، وكان حجم التعامل معها في حدود (التلقي)، أما تجربة ابراهيم فجاءت حامية، مع التاريخ المتراكم، مع أقطاب التوتـــر، الانســاني، وقد مارست دورها الكبير على الارض وبعد تجربة ادريس وعــاد وهــود، كانت (كلمته) الــتي حمــل ثقلــها مشــروعاً مفتوحــاً الى مســافات قصيّــة. واراني مضطراً الى دمــج كـل عنــاصر تجربتــه في اطــار هــذه الكلمــة، أي امتحانه بذبح اسماعيل وتكليفه باعلان شعار التوحيــد وهجرتــه الشــاقة، والتعاليم التي بشر بها،... كلها تجاذبات وتجليات للكلمة التي ناء بها عـــن وعي واستعداد... وبهذا تكون هذه الكلمـــة قــد شــقت طريقــها في صميــم الزمن.

[التلقي - التلقين] أدّى الى التغيير قطعاً، ولكن الأبتلاء على صعيد اللغة هو التغيير بالذات، فأبتلاء ابراهيم عليه السلام عبارة عن أيجاد التحوّل، او ذات التحوّل في برنامج حياته وفكره بواسطة تلكم الكلمــات!! وعليــه فــان الكلمة قطعت اشــواطاً باهضــة الثمــن بالنســبة للانبيــاء عليــهم الســلام، الابتلاء يفيد الانقلاب والتقلب، الاضطراب الفذ، الزلزال في داخــل الضمــير والروح، والابتلاء يفترض ميلاً واستعداداً من قناعة وايمان ووعي، ولهــذا تفرّع عليه في الآية الكريمة (فأتمّهنّ..)، وتاريخ ابراهيم هــو هــذه الســيرة الملتهبة بين الأبتلاء والاتمام. بين التحوّل الذاتي الساخن وخلــق الموضــوع المطابق له خارج الروح والعقل.

لقد كانت الكلمة المُلقّنه دعاء، ومهما كان للدعــاء مــن أيحــاء بنّــاء علــى الأرض، فانه لا يرتقي الى الكلمة التي هي ذات التحول النفسي باتجاه تغيّر العالم، ولو عدنا الى مقررات التكليف الابراهيمي لوجدنا انها زاحفة صوب

أستحكام الحياة وفق طراز رفيع من المنطق والقانون والتشريع، من شأنه تفجير العالم.

لقد كانت الكلمة المُلقّنة توبة، وهي بلا شك تؤول الى تحوّل روحي وتترك أثرها على الخارج، ولكن (الكلملة ـ الابتلاء) هي التغير كمفهوم، كمنطلق، وبالوقت ذاته تنطوي على المضمون الذي سيتم تغيير العالم بموجبه... فالكلمة أصابها تحوّل هائل، استعمل سلطانها الروحي وتعاظمت أدوارها من نبيٍ لآخر. لقد كانت (الكلمة) في بداية المشروع مادّة تجربة الا وهي التلقين. وذلك على صعيد أيصالها وايداعها، ومن ثمّ تحوّلت الى حركة خارجية، اما كلمة ابراهيم فهي تمثيل وعمل مباشر، اتّحد فيها زمن الوعي والعمل، لم تكن تلقيناً وانما هي تمثيل. لم تكن تلقياً آلياً، وانما حضور حي، صارخ، متوهّج، مشتعل، حضور عمودي في صميم الوعي، أفرزت عملاً على أمتدادها بدون أي فاصل زمني، لأن ذات ابراهيم كانت قد استوعبت مسؤوليتها من قبل وكانت قد تشبّعت بالتجربة منذ البداية ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ الانبياء: ٥١.

اكتسبت الكلمة مع موسى عليه السلام تطوراً آخر، ينمّ عن تحوّل صميمي جوهري، ويمكننا ان نترصد آفاق هذا التحوّل من المقتربات التالية:

اولاً: أستقبل آدم الكلمات على مستوى التلقين حيث يتبدّى الأستسلام الطوعي الهادئ، فيما أستقبلها ابراهيم على مستوى التحوّل الذاتي المشتمل بالفعل، اما موسى عليه السلام فقد استقبل الكلمة على مستوى الكشف عن جهة صلتها بالله تعالى!! فقد (كلّمه ربّه) من غير سفير أو وحي كما كان يكلمُ الأنبياء على ألسنة الملائكة...، لقد بادر الله موسى بالكلمة

بهذه الطريقة الفريدة قياساً الى الأنبياء الذين سبقوه ... أنه النداء!!

ثانياً: ويمكننا ان نتلمّس بعض مناهل هذا التطور من قوله تعالى: ﴿وكلّم الله موسى تكليما﴾ ليس من مقترب المبادلة الالهيّة كما يتظهر هذا الواقع الحي بالآية السابقة فحسب، بل من هذا التوكيد الذي جاء على وزن (تفعيل)، وفي تقديري أن هذا التوكيد لم يأت لأغراض بلاغية تهدف المزيد من تثبيت الحالة عمودياً، بل هي اشارة الى اتساع ساحة الكلمة، أي الكشف عن تحرك الكلمة في مجالات متعددة ومترامية. فهناك حالة من الاتساع المطّرد لمصاديق هذه الكلمة التي بادر الله بها موسى عليه السلام، فالتوكيد فضلاً عن تشخيص هوية الاتصال المباشر واعطائه صبغة الحقيقة التي لا شك فيها يمارس الأشارة الى أن هناك عمليّة تكثير وتوليد في بنية الكلمة الموسويّة وسنأتي على تفصيل أوفى.

ثالثاً: أتصلت كلمة الله بموسى على نحو الأصطفاء الخالص، ﴿أني أصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ الاعراف: ١٤٤، ويبدو ان هذا العطف مقصود لتجسيد الاشارة الى (الكلمة)، والاّ فهي متضمنة في الرسالة بشكل وآخر، والاصطفاء مهمّة (الكلمة) يعني حملها أمانة للحياة والمجتمع والتاريخ، أن التكليم من جهة الله تبارك وتعالى يفوق في سموّه ورقيه التلقين والابتلاء، فكأنه عقد مباشر بين الله وموسى عليه السلام، وهو يرتوي حرارة الوجود من هذه الصلة الشهوديّة المستقيمة، وكان الله قد دعاه لتكليمه ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه﴾.

فالكلمة هنا تسطع بدلالة الثبوت المتوفر على ذاته حيث يتعدّى درجة الحضور الذي عهدنا مع أبراهيم.

تتواصل الكلمة بعهدتها الشاملة مع موسى عليه السلام، فهي مباشرة واتساع وتذلل!!

﴿أني أصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي...﴾.

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه...﴾.

﴿وكلّم الله موسى تكليما...﴾.

وأرى من الضروري أن نستشفّ من القرآن ذاته طبيعة أيصال الكلمة هذه الى قلب موسى عليه السلام بعد أن حضر ساعة الميقات الشريف، ومن أستقراء آيات القصّة المدهشة سنرى أنّ هويّة الأيصال ليست التلقين كما كان مع آدم، ولا هو الابتلاء [التحول] كما هو مع ابراهيم، بل هو لون آخر يتسامى في تكوينه وآثاره على كل الاسلوبين، انه [النداء].

قال تعالى: ﴿وَهل أتاك حديث موسى، اذ رأى ناراً فقال لأهله أمكثوا أني آنست ناراً لعليّ آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدىً، فلمّا أتاها نودي يا موسى، اني أنا ربُّك فأخلع نعليك أنك بالوادي المقدّس طوى، وانا أخترتك فاستمع لما يوحى، أنني أنا الله لا اله الاّ أنا فاعبدني واقم الصلاة لذكري، ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ طه ٩ ـ ١٦.

وقال تعالى: ﴿واذ نادى ربُّكَ موسى أن أئتِ القوم الظالمين...﴾ الشعراء: ١٠.

وقال تعالى: ﴿اذ قال موسى لاهله اني آنستُ ناراً سأتيكم منها بخبر او آتيكم بشهاب قبسٍ لعلكم تصطلون، فلما جاءها نُودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله ربّ العالمين، يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم...﴾ النمل: ٩.

وقال تعالى: ﴿... فلمّا أتاها نُودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى أني أنا الله رب العالمين...﴾ القصص: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿هل أتاك حديث موسى، اذ ناداه ربُّه بالواد المقدّس طوى﴾ النازعات: ٢٦.

وأنا أسجّل هذه الملاحظة لاننا اذا راجعنا القرآن الكريم سوف نجد أن موسى عليه السلام هو الوحيد من البشر ـ بما فيهم الانبياء ـ الذي تشرّف بهذه المزيّة العظيمة في الحياة الدنيا، فهو وحدهُ الذي ناداه ربّه، فيما الآخرون هم الذين يبادرون الى هذا النداء، كما في نوح عليه السلام: ﴿ونادى نوح ربّه...﴾، وكذلك زكريا ﴿ذكر رحمة ربّك زكريا اذ نادى ربُّه...﴾ كذلك أيوب ﴿واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربّه... . نعم لقد نادى الله تعالى ابراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿وناديناه أن يا ابراهيم، قد صدقت الرؤيا أنّا كذلك نجزي المحسنين، أن هذا لهو البلاء المبين...﴾ الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٦، ولكنّه ليس على وزن نداء موسى لانه نداء تأسيس لمشروع النبوّة، أي كان النداء هو حجر الأساس في هذه المسيرة منذ بدايتها وقد استمر النداء المباشر يؤدي دورده البنّاء في تصميم حركة موسى بكل تفاصيلها، فالنداء حقيقة سارية هنا، تشكل روح الصلة وجوهرها المتميز، وهذا النداء بهذه القوة يتماشى مع قوله تعالى ﴿وكلمّ الله موسى تكليماً﴾، ويتماشى مع (اصطفاء) موسى للكلمة، فمثل هذه التوافقات المتوالية والمتعاضدة تعطي لنداء موسى نكهة شهوديّة عميقة ومحسوسة ومتجسّدة، وتجعل منه نداءً تأسيسياً يتسم بالديمومة، واذ ا كان نداء الله لابراهيم عبارة عن بشرى، فان نداء الله لموسى يترجم مسيرة طويلة وشاقة، تمخضّ

عنها (الكتاب) لاول مرّة في تاريخ النبوّة، كما يذهب كثير من العلماء.

قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجَعلناهُ هدىً لبني اسرائيل﴾ السجدة: ٢٣.

أنّ نداء أبراهيم أخبار، فيما نداء موسى دعوة!! وفارق جوهري بين الهويتين، تماماً كالفارق بين رسالة كل منهما من حيث المضمون والتبعات، والمستحقات والآثار، والنتائج التي خلّفتها كل منهما على حياة الانسان.

لقد أتمّ ابراهيم كلمة الله، فأدّى الامتحان بجدارة، أمّا موسى عليه السلام فانه جذّرها في الأرض على شكل واقع في قطعة مشهودة من المكان والزمان، لقد طبّقها على بني اسرائيل، وأسس بها دولة، ومارسها جهاداً عسكرياً شاقاً، وبهذا تكون الكلمة التي نادته قد وجدت صداها على شكل فعل بمستوى طموحها الكبير، لقد حوّلها الى مثل تأريخي وشاهد زمني ذي أبعاد ناطقة بامكان تسرية الارادة الالهيّة على هذه الأرض، جسّدها حاكماً... فقد تعامل موسى مع الكلمة على مستوى راق جداً، يتجاوز الاستجابة البريئة والوفاء الفردي المحض، مستوى التسوية الى اعماق الضمير الانساني والتشييد الهيكلي، انه البناء الذي ترتب على النداء، وليس هناك من أستحقاق يترتب على نداء الدعوة أكثر من بنائها، خاصه اذا كان نداءً من أجل الانسان.

هذا النداء الحي الذي عمر ذات موسى كلها لم ينعزل بطبيعة الحال عن جملة مقاربات خطيرة على صعيد العلاقة الحميمة بين الله (مصدر النداء) وبين موسى (فارس النداء)، واذا كان ابراهيم خليل الرحمن كما تفيد الروايات، فان موسى سلام الله عليه كان على مقربة من ساحة الحق في

سياق أشادة المناجاة وتمكينها من روحه الطاهرة وضميره المتوهّـج، فقـد جاء في القرآن الكريم ﴿واذكر في الكتاب موسـى انـه كـان مخلصـاً وكـان رسولاً نبياً، وناديناهُ من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيّاً﴾ مريـم: ٥١ ـ ٥٢.. واذا ما ضمنا هذا التقريب المعنوي الجوهـري الى عمليـة (التكليـم) التي تفيد التوكيد العمودي والكثافة الدلاليّة، نكون قد لامسنا بعض اسرار النداء على صعيد موقعه من تاريخ الكلمة النبويّة، سواء من حيث الاداء أو المضمون أو الأثر.

ان الزمن الذي سبق كلمة آدم كان راكداً أحادياً، ميتافيزيقياً، فلـم يكـن غير [التلقين] يليق بأدائها، والزمن الذي سبق كلمة أبراهيم كان متشـكلاً في أطار أقامته من العادات والتناقضات القبليّة الممتزجة بالعقائد الوثنية.

كانت هناك فوضى، وكلمة ابراهيـم مسـؤولة عـن مواجهتـها وفضـح تناقضاتها، ولذا كان أبداعها في ضمير أبراهيم لابد أن يكون [أبتلاءً] لانه ينطوي على جذر التغيّر والتحوّل، الأمـر الـذي يصـوّب (كلمتـه) بأتجـاه الواقع السائد في عين هويته التي تسيطر عليه، وكان الزمـن السـابق علـى كلمة موسى متمركزاً ومتجسّداً في منطق القـوة الغاشـمة، الـتي تدّعـي أنّ بيدها سرّ الحياة ومنشأ الكون، فكان أبداعـها في عقـل موسـى يسـتوجب المناداة، لان النداء في بعض صوره أستنهاض واستغاثة مما جعلها مباشرة في مواجهة الطغيان السياسي.

وقال تعالى: ﴿واذ نادى ربُّكَ موسى أن أئتِ القوم الظالمين، قوم فرعـون الا يتقون﴾ الشعراء: ١٠ـ١١

قال تعالى: ﴿هل أتاك حديث موسى، اذ ناداه ربُّه بالواد المقـدّس طـوى،

اذهب الى فرعون انه طغى﴾. النازعات ١٥ ـ ١٧.

... لقد كان التلقي يخلق استجابة، على وقعه الهادئ، والأبتلاء يخلق استجابة على وقعه المتحرّك، اما النداء فكان يخلق استجابة على وقعه الخلاّق.

لقد أبتدأ وحي آدم بتلقين الكلمة.. [لُقن الكلمة].

وابتدأ وَحي أبراهيم بامتحان الكلمة ثم واصل مسيرته... [أُبتليَ بالكلمة].

وابتدأ وحي موسى بالكلمة المنادية ثم تابع حركته... [نُودي بالكلمة].

ثم جاءت كلمة عيسى!!

وكلمة عيسى في الناس هي أصلاح حال بني اسرائيل أو أنقاذهم من هذا الأنغماس المفرط في حمأة المادّة!! ولكل نبي كلمة في المحيط الذي يعيش فيه، وهي في الأصل كلمة الله في تقنين الحياة وفق سُنن واتجاهات محسوبة بدقة وأنضباط، ولكن عيسى كان كلمة الله ليس في لسانه وحركته بل في ذاته، وكما قلنا ان هذا الأطلاق هو تطبيق عملي هي لقضاء الله وموجوداته، فمن معاني كلمات الله هذه المخلوقات، على ان كل مخلوق سيل هائل من الحوادث!!

قال تعالى: ﴿انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم﴾ النساء: ١٧١.

قال تعالى: ﴿اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾ آل عمران: ٤٥.

من رصد سريع للآيتين نكتشف الملاحظات التالية:

١ـ الحصر بـ (انما) في الآية (١٧١ النساء) مما يفيد عناية عالية جداً في

معاملة عيسى عليه السلام بالوحدات التقييمية التي عقبت الحصر، ومنها: ﴿انه كلمة الله﴾.

٢ـ أرجاع الضمير في (اسمه) الى (كلمة) التي هي من الله تعالى مما يدل على ان هناك اصراراً على التوحيد بين (عيسى والكلمة).

٣ ـ أن عيسى ككلمة كان بُشرى الهيةً!!

٤ ـ أن عيسى ككلمة عطف على كونه رسول الله، مما يشير الى تشخّص كونه (كلمةً) في حالٍ من استقلالية القيمة والمعنى والتجسيم.

كما مضى بنا ان (الكلمة) كانت بشارة على عيسى عليه السلام قبل مجيئه الى الدنيا وبعد مجيئه، وكان التكليم معجزته، وهي حالة ذات صلة اساسيّة وتكوينية بالكلمة.

لقد أبتدأ وحي عيسى بالكلمة الحاججة!! ﴿ويكلم الناسَ في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾.

وأخيراً يبتدئ الوحي المحمّدي بالقراءة...[اقرأ الكلمة].

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الأنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم الذي علم بالقلم، علّم الانسان ما لم يعلم...﴾.

ومن الواضح أنّ الوحي المحمّدي أبتدأ بالقراءة كفاتحة حضاريّة بنائيّة تهدف الى تغيير الحياة، لان كلمة (اقرأ) هنا تتواصل مضاعفاتها وأرهاصاتها لتخلق مجالات رحبة من امكاناتها الفعلية، وتكرارها مداخل اساسيّة لعوالم الوجود المتعانقة بين الخلق والوعي.

والقراءة بطبيعة الحال تستوجب وجود (كلمة) ما، فهي لا تنشأ من فراغ، ويبدو ان الكلمة هنا هي كلام جبرائيل عليه السلام خاصة ولم يكن

هناك كتاب قد عرض على الرسول آنذاك ـ ورواية ذلك ضعيفة.

وبهذا تكون (الكلمة) وصلتها بالوحي قد أخذت مساراً جديداً. لقد تخطّت عمليّة التلقين والتغيير والاستنهاض، فهي ليست مُتلقاة من الله تعالى وحسب وليست ذات اتجاه تلقيني ينتظر الاستسلام الهادئ البريء، وليست مجموعة تكاليف ستُلقى على عاتق أنسانٍ ذي جدارة بالوفاء الأنجازي، ولا هي نداء فرضه منطق متحكم لا يفلّه الاّ الاستنهاض، هي كل هذه الابعاد الجوهرية واكثر، جماع هذه الحقائق مع زيادة في غاية الخطورة، بل زيادة تقرر خاتمة الارادة الالهية في الارض. انها المعادل الموضوعي للكمال، الكمال المعنوي المادي، هذه الكلمة بلغت الذروة في الكمال.

قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾.

هذ ه الكلمة أستحكمت فصول الحياة والتاريخ، لذا كان لها ان (تُقرأ). لقد كانت بدايتها وعاء ثم تطورت لتحمل معنى التغير كمسؤولية، أي أمتحان للأداء ثم هي آليات أستنهاض مفصّل. نداء ذو مدخول مسمّى بالمهمّات ثم هي ذات النبي. وأخيراً هي المادّة المقروءة، لماذا؟! لانها كملت عبر تكلم المراحل الجذرية، فصار من حقها ان تُقرأ، ولما كانت (اقرأ) هي بداية الوحي، وهي التي سوف تقرأ، تكون الكلمة هذه قد نسجت جسدها الحار من قبل ومن بعد، شغفت بروحها ابتداء، واستمراراً وخاتمة، فمحمّد هنا قرأ القراءة، وكل مسلم عندما يتلو هذه الآيات المباركة انما يقرأ القراءة.

ان أيحاء الكلمة تلقيناً لا يوازي ايحاءها أبتلاءً، وأيحاءها أبتلاءً لا يرتقي الى أيحائها نداء، والنداء دون التجسيد، ولكن الايحاء بقراءةالكلمة، التي هي بنفسها من مادّة القراءة انما هو اعلان لشأن العقل بانه جوهر

التاريخ!! ولكن أي عقل؟! ليس العقل الهجين المجرّد، وانما العقل الذي تأتلف في أطاره قيم الفكر والعمل، ولنا في ذلك حديث طويل.

﴿اقرأ...﴾ هذه هي البداية وهي كلمة ولكن هذه الكلمة يجب أن (تُقرأ) وسوف تُقرأ فعلاً وأبداً اذن هناك مشروع قراءة القراءة.

لا يوجد هنا ادنى شك أنّ القرآن الكريم هو كتاب قراءة، سواء تعاملنا مع منهجه الفكري والحياتي أو مع مضمونه العقيدي والتشريعي، أنه قراءة للكون والحياة والانسان، وقراءتنا له انما هي قراءة القراءة القرآنيّة، ولا ندعي هنا ان الكتب السماوية الاخرى لا تحمل هم قراءة الوجود، ولكن كلمتها لم تكن تامّة وخالدة ومعجزة كما هي كلمة الكتاب الذي نزل على صدر الحبيب محمّد صلى الله عليه وآله.

قال تعالى: ﴿... وان كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله...﴾.

أنّ أخطر فهم لكلمة (أقرأ) الاولى هو الترديد أو التلاوة، لأنّ هذه المستويات من التعامل بدائيّة ولا تتناسب مع مهمّة تكليف (اقرأ) ذاتها، ولعلّ التحاقها السريع بالعلم والقلم وعلى نحو تصاعدي كمياً وكيفياً يؤكد القراءة ذات المنحى الجوّاني الذي يفجرُ في النفس صراعاتها، وفي العقل معادلات التفكير. الثرّة ان تكرار القراءة مرتهن على صيغة الامر وتكرار العلم ثلاث مرات، وتموضع القلم وسط هذه الحركة الناشطة، يكشف عن مشروع قراءة القراءة، فالقراءة هنا هي المعادل الموضوعي لمقولة [وعي الوعي].

ان القراءة الاولى وعي وقراءة، هذه القراءة [وعي الوعي]

(٢)

للكلمة في القرآن الكريم موقع خاص في بُنية الآيات التي وردت فيها، واكتشاف وزن هذا الموقع يرسم لنا الى حد كبير آفاق الخزين المعنوي والعلمي لهذه المفردة في كتاب الله تبارك وتعالى، فلم يعد خفيّاً ان لاي كلمة مهمّة تأسيسيّة للنص، ولأي مفردة مجال يتجاذب حالات من التفاعل مع مجالات المفردات الاخرى داخل النص الواحد حتى اذا كان جملة بسيطة... تطل أطلالة سريعة على هذا الجانب:

الموقع الأول:

في أكثر من آية تكون (الكلمة) هي [الموضوع]، فالآية آنما أوحيت للنبي لتكون الكلمة هي المشروع، وبهذا تحتل موقع التأسيس والتشبيه، وبطبيعة الحال تتحول الكلمة هنا الى موزّع ادوار لكل المفردات الأخرى، فهي نواة النص.

قال تعالى: ﴿**مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربّها**﴾.

فالكلمة في هذه الآية ليست حكاية عابرة وانما هي نواة في صميم النص، وهي المشروع الذي يجاذب كل ممكنات النص، وهي القوة التي أعطت الحياة للآية، وجميع علائق المفردات ترجع الى الكلمة.

قال تعالى: ﴿**وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مُبدِّل لكلماته وهو السميع العليم**﴾. الانعام ١١٥.

فالكلمة هنا أيضاً هي المشـــروع، نـواة النــص الـذي بـدوره اسـتدعي بحالات رحبة من الحركة، وقد تصاعدت اجواء الحركــة بسـبب الاضافـة التأسيسيّة بين الكلمة والرب، تختزن الكلمة كمشروع هنا صفــة الاتســاق المنطقي والواقعي، وذلك تبعاً لمقولة الصدق والعدل.

قال تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانــهم لفــي شـك منه مريب﴾ فصلت: ٤٥.

الكلمة هنا أيضاً هي المشروع الـذي أسـتوجب كـل مسـتحقات النـص الأخرى، وعلى امتداد هذه الآية او في موازاتها آيات اخرى كثيرة. (يونس/ ١٩، هود/ ١١٠، الشورى/ ١٤...).

قال تعالى: ﴿... كلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ التوبة: ٤٠.

انها المشروع القائم بذاته، الجوهر...

اذن الموقع الاول لمفردة (الكلمة) في الآية القرآنية التي ترد في تضاعيفها... انه الموضــوع، او المشـروع، وحوليّـات الآيـة تـدور حـول هـذا الموضـوع كمجالات واجواء ومستحقات.. فهي مفردة خلاّقة... مبدعة.. مؤسّسة.

الموقع الثاني:

وتحتل مفردة (الكلمــة) في بعـض الآيـات الـواردة فيـها موقــع المـبرّر والمسوّغ لحركة الفكرة أو مشروعيتها أو تجلّيـها، انـها ليسـت الموضـوع الذي تحوم حوله الآيــة، وانمـا السـرّ الخفـي لتمكـين الفكـرة أو مسـوّغ وجودها في الصورة التي تطرح بها من خلال النص.

قال تعالى: ﴿ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على مــا كُذّبـوا وأوذوا

حتى أتاهم نصرُنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾. الانعام، ٣٤.

ان هذا الخلود الذي تتمتع به كلمات الله هي القاعدة الكونيّة والسبب الجوّاني لنشأة الفكرة ولحركة الفكرة منذ بدايتها حتى نهايتها. ومن اللطيف ان يأتي هذا التعبير ﴿ولا مُبدّل لكلمات الله...﴾ بعد استقرار الفكرة مباشرة!!

قال تعالى: ﴿واتلُ ما أُوحي اليك من كتاب ربّك، لا مُبدّل لكلماته ولن تجدّ من دونه ملتحدا﴾ الكهف/ ٢٧.

ان ﴿لا مُبدّل لكلماته...﴾ تمارس دور المسوّغ القانوني للتلاوة!! فلولا ثبات الكلمة القرآنية او لولا ثبات الوحي لا يستحق القراءة المستمّرة، خاصة وأنّ المستفاد من [واتلُ] هو المواظبة الحيّة والواعية، وكل ذلك لان الوحي قراءة حقيقيّة للكون والحياة والانسان والتاريخ.

قال تعالى: ﴿وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مُبدّل لكلماته وهو السميع العليم﴾. الانعام: ١١٥.

فالكلمة هنا تعلّل ثباتها وكمالها، هي المشروع وسببه في آن واحد، ويتجاوب الاتمام مع هذا الأمضاء الخالد ﴿لا مُبدّل لكلماته﴾.

ان (الكلمة) في هذه الآيات تمارس دوراً أستثنائياً في النص، دور التبرير والتفسير والتعليل للظاهرة أو الحدث أو الواقعة، التعليل الذي يتصل بأسباب النشأة والحركة، وهذا هو السرّ في موقعها التالي من النص، فهي خاتمة لانها فيض أو سبب المشروع المطروح في الآية الشريفة.

واذا كانت (الكلمة) حال كونها مشروعاً تخلق (أجواء) من علائق، وتولّد نظاماً من النص المحكوم بضرورتها وهدفها أو المحكوم بوجودها، فان

(الكلمة) حال كونها (قاعدة تكوينية) تبعث النص من عالم الغيب الى عالم الحس!! تؤسس النص بموضوعه وبمشروعه، فهي وهذه الحال ليست نواة النص، وانما مشروعيّة النص... الغطاء الوجودي والسبب الحدثي للنص.

الموقع الثالث:

وتحتل (الكلمة) في أحيان أخرى (موقع) عنصر مؤسّس داخل بنية النص، أي يتأتى في سياقٍ من عناصر تأسيس نظيره فهي جزء من مركب تأسيسي، فليس كل مفردة لغوية على مستوى الموقع التأسيسي في النص، ولذا فان (الكلمة) هنا، وفي أي نصٍ تحتل فيه موقعاً مؤثراً، يكون من الصعب أستبدالها أو حتى تغيير مكانها داخل النص بالذات!!

قال تعالى: ﴿انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم﴾ النساء: ١٧١.

قال تعالى: ﴿واذا أبتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمّهن﴾ البقرة: ١٢٩.

قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربّه كلمات﴾ البقرة: ٢٧.

فالكلمة هنا جزء من مركب تأسيسي داخل النص، فهي مقرونة بالنبوّة والأبتلاء والتلقي، ان النص في هذه الآيات مدين الى هذا التفاعل الحي بين حالة خاصّة من جهة والكلمة من جهة أخرى، أن الكلمة وحدها هنا عارية، جدبة. ان القاءها الى مريم وتلقينها لآدم وتكريسها في ضمير ابراهيم هو الموضوع، والكلمة بهذه القيود هيمنت على النص كمشروع مطروح وتترتب عليه استحقاقات كثيرة، ليست هي بحد ذاتها تشكل الموضوع بل بلحاظ كونها جزءاً من مركب حي، فاعل، نشط، متحرك.

قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ الاعراف: ١٥٨.

قال تعالى: ﴿وصدّقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين...﴾ التحريم: ١٢.

الموقع الرابع:

وتمثل الكلمة أحياناً موقع الأنارة في النص، أي مرآة تعكس الموضوع لغرض ايصاله أو توضيحه أو بيانه، ولكنها ملتصقة بالموضوع بشكل حي.

قال تعالى: ﴿قال: اخسأوا فيها ولا تكلمون﴾ المؤمنون: ١٠٨.

قال تعالى: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة...﴾ البقرة: ١٧٤.

... ان دور الكلمة هنا يجسّد قابلية الاثارة داخل النص، فالموضوع هو غضب الله على العصاة والجاحدين يوم القيامة، والكلمة هنا آليّة كشف وتوضيح، فهي مرآة عاكسة والعنصر المؤسّس للنص هو الغضب المذكور، وتبرير النص يمتد الى جذور بعيدة من الحقائق القرآنية حتى تصل الى الحقيقة الكبرى ﴿قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين﴾.

الموقع الخامس

وتحتل (الكلمة) في النص موقع [العنوان] العام المفصّل بعد ذلك!! وقد مضى اكثر من نموذج في هذا الخصوص ﴿وتمّت كلمة ربّك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد الاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله﴾ وعلى هذا الغرار اكثر من آية شريفة، مرّ بعض منها،

والكلمة من خلال هذا الموقع تؤلف اشكالية أو تؤلف مصطلحاً تتجاوز فيه الحدود المعجمة، وتطرح نفسها على بساط الفكر كـــ (قضيـة) قـد تكـون محلاً للبرهان والاخذ والرد، وقد أختلف في تفسير الكلمة كعنوان من مفسّر الى آخر الأمر الذي يهبــها هالــة العمـق ومزيّـة الدقـة، ويدعـها في قائمـة التصورات المطلوبة لمشارط النظر وقواعد التـأمّل الحـاد، لانـها مسـتودع فكري وخزين معنوي، ويبدو ان أختيار الكلمة كعنوان متـأتي مـن كونـها مادّة اللغة الاسميّة التي تصدق على وحدات اللغة بكل أصنافها وأشكالهـا، فالأختبار لم يأت عبثاً او عشوائياً، ومن ثم فـان الكلمـة بـهذا الاسـتعمال تتطابق مع منزلتها التكوينيّة النابعة مـن صدقـها علـى مفـردات اللسّـان الانساني.

(٣)

سيقَت (الكلمة) في أربعة نصــوص قرآنيَـة بأتصـال مصـيري سـاخن مـع مفردة لغويّة حادّة هي (التبديل)، وقد كانت العلاقة بين المفردتين سلبيّة نـافرة، نتيجتها او نهايتها ثبات الكلمة وأقتفاء التبديـل!! وتحليـل هـذه العلاقـة عمليّـة عقلية شيِّقة، الاّ ان هناك جانباً آخر في هذه العلاقة يتصل بكيفيّة التعبير.

١ ـ قال تعالى: ﴿وتمّت كلمة ربك صدقاً وعـدلاً لا مُبـدّل لكلماتـه وهـو السميع العليم﴾. الانعام ١١٥.

قال تعالى: ﴿ولقد كُذّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على مـا كُذّبـوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرُنا ولا مُبدّل لكلمات الله ولقـد جـاءك مـن نبـأ المرسـلين﴾ الانعام: ٣٤.

قال تعالى: ﴿واتلُ ما أوحي اليك من كتاب ربّك لا مُبدّل لكلماته ولن تجد

من دونه ملتحداً﴾ الكهف: ٢٧.

قال تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ يونس: ٦٤.

الآيات حسب النزول هي...

(١) الأنعام: ٣٤: مكيّة.

(٢) الأنعام: ١١٥: مكيّة.

(٣) يونس: ٦٤: مكية.

(٤) الكهف: ٢٧: مكيّة.

وكلمة ربك في الأنعام: ١١٥ هي الدعوة الاسلامية كما يقول بعض المفسرين، وفي الانعام: ٣٤ هو وعد الله تعالى بنصر الرسل ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون﴾ الصافات: ١٧١ ـ ١٧٢ وكلمات الله في الكهف: ٢٧ هي القرآن الكريم ﴿أنّا نحن نزلنا الذكر وأنّا له لحافظون﴾. وهي في يونس/ ٦٤ قضاء الله في حق المؤمنين في اليوم الآخر والأبدال والتبديل والتبدّل، الاستبدال هو جعل شيء مكان آخر، والمستفاد من الآيات السابقة ان قضاء الله راسخ لا يتغير او لا يحل مكانه شيء آخر.

من الواضح جداً أنّ (لا مُبدّل) أو (لا تبديل) أضيف الى الكلمة في صيغة الجمع [لكلمات الله، كلماته]، وهي تعود على قضايا جزئيّة، فالقرآن هنا يمارس اسلوب التواصل بين النظرية والتطبيق، فهناك القانون الكلي الشامل، وله في البين مصاديقه المتناثرة هنا وهناك، وقد أحتشد النص القرآني القاضي بأستحالة التغير في قضاء الله بالمفردات التي تعبّر عن حقائق لها اولويّة الوجود والأنتصار في حركة التاريخ [الصدق، العدل، الصبر، الفوز العظيم،

من دونه.. (أي من دون الله) ملتحدا]، فلهذه المفردات صدى في فضاء الوجود ومتنه، وصدى في منطق الفكر السليم، وبهذا تكون هذه النصوص قد تشبّعت بروح القضاء الالهي الذي يستحيل على التغيير والتبديل.

٢ ـ ونواجه صيغتين في أمضاء القضاء في الآيات الأربع:

* ﴿لا تبديل لكلمات الله...﴾

أنها الصياغة التي تؤدي مهمتها على صعيد التساوي مع هويّة القضيّة المطروحة، ان قراءة النص جيّداً وبتبصّر يخلق في الذهن مستقيماً بين الصياغة [تبديل ـ تفعيل] وبين الحقيقة الجوهريّة للمشروع المطروح في اوّل الآية ﴿لهم البشرى...﴾، وذلك من دون أي ملابسات تعترض خط التواصل هذا، فان صيغة تفعيل تلامس الحقيقة الذاتية للشيء أو الظاهرة، من الصياغة المذكورة تريد ارساء القضاء السابق عليها كحقيقة، فهو أمر قار، راسخ، انه متن.

انها صياغة تقرير و أقرار (ماهوي) ـ رغم حقدي على هذه الكلمة ـ أو جوهري، تبنى الاشارة الى المضمون المكوّن للقضاء، الى نواته المركزيّة.

* ﴿لا تبديل لكلمات الله...﴾

انها الصياغة التي تؤدي مهمتها على صعيد التحدّي، ليس أقرار القانون بمصادرة جوهرية سارية، بل للاشارة الى خصيصة أو ميزة، الا وهي الأستمرار والثبات ومواجهة الجهد الزائف بغرض التكذيب او التعطيل. ان قراءة النصوص مليّاً يخلق في الذهن علاقة مستقيمة بين الصياغة [لا مُبدّل ـ لا مُفعّل] وَالفضاء الذي أمتلأ به صدر الآية، ولكن هذا الخط الواصل يمرّ على حاجز، الاّ أن الخط يخترق بقوة ونفاذ، لانه

حاجز وهمي طارئ، جاء بفعل خلل منطقي عند الآخر.

﴿لا مُبدِّل...﴾... ليست صياغة هويّة وانما صياغة ميزة... ليست صيغة للواقع المنطقي الداخلي للقضاء بل للواقع الخارجي لــه الــذي هــو أمتــداد للهويّة الجوّانيّة.

﴿لا تبديل...﴾ ارساء أوّلي سابق على أي وهم واي خلل... الخ.

﴿لا مُبدِّل...﴾ أرساء بَعدي بســبب عــارض، قــد يكــون وهمــاً أو علمــاً خاطئاً... الخ.

ان كلتا الصيغتين تفيد الثبات. ولكن ﴿لا تبديل...﴾ تعبير يشيِّد الثبــات بلحاظ الثبات نفسه، اما ﴿لا مُبدِّل...﴾ فانه تعبير يشيِّد الثبات بلحاظ وَهــم طارئ الا وهو امكان تغيير قضاء الله تعالى...

﴿لا تبديل...﴾ اقرار، أحقاق، تــأصيل - في ســياق نفــي [ســنعالج هــذه المفارقة...]

﴿لا مُبدِّل...﴾ أزاحة وهم، ازالة علم خاطئ، تبديد شبهة..

﴿لا تبديل...﴾ نفي متجه الى الجوهر، اللّب، الحقيقة من حيث هي.

﴿لا مُبدِّل...﴾ نفي متجه الى محاولة يائسة وبائسة في آن واحد.

ومن الطبيعــي ان الصياغــة الأولى تتضمــن أو تشــعّ بموجبــات الصياغــة الثابتة، ولكن الموجبات هذه تتحوّل الى قضيّة قائمة بذاتها في الصياغة الثانية.

(٤)

هذا القضــاء/ القانون الالهي له حقيقة موضوعيّة، ويمارس دوراً فــاعلاً في تطهير الكون وترشيد التاريخ وتنقية الحياة.

قال تعالى: ﴿ويحقّ الله الحقّ بكلماته ولو كره المجرمون﴾.

قال تعالى: ﴿ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾.

فهو او هذه الكلمات تصمّم وتقرّر...

وهنا بامكاننا ان نطرح التراتيبية التالية:

﴿...لا تبديل لكلمات الله...﴾ ... يونس: ٦٤

﴿...لا مبدل لكلمات الله...﴾ ... الانعام: ٣٤

﴿...لا مبدل لكلماته...﴾ ... الانعام: ١١٥، الكهف: ٢٧

﴿ويحقّ الله الحقّ بكلماته ولو كره المجرمون﴾ يونس: ٨٢

﴿...فأن يشاء الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾ الشورى: ٢٤.

﴿ويريد الله أن يُحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ الانفال: ٧.

فالكلمات تتحرك من كونها حقيقة موضوعيّة الى كونها آليّة في تحقيق التاريخ، والإنسان بطبيعة الحال مسؤول ضمن حركة هذه الكلمات وصيرورتها، أي انه (حر) في نطاقها.

(٥)

ولا يمكن أن نودّع هذا القسم من الرسالة اذا لم نضبط العلاقة بين التبديل والتحريف، فقد مضى بنا أن الفكر المظلم يسعى لتحريف الكلمات!! وهذه هي الآيات:

قال تعالى: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾.

قال تعالى: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾.

قال تعالى: ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾.

وهناك ثلاثة مستويات لفهم هذا التحريف:

المستوى الاول: ليّ اللّسان بالكلم، وهي حالة أستهجان وسخرية.

المستوى الثاني: تغيير مواضع المفردات بالنص. وهي محاولة لاحداث تغيير في المعنى.

المستوى الثالث: ايجاد النص المقابل للنص الصادق العادل، ومن ثم خلق واقع ينطق بالتقاطع مع الواقع المطلوب.

وقد أخذنا بالتفسير الثالث لانه يتناسب مع موقف الأحبار والرهبان من النصوص الالهية في التوراة والانجيل، فهؤلاء صاغوا للناس شرائع جديدة.

قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله...﴾.

وفي الحقيقة ان التصور الثاني قد يؤول بالنتيجة الى خلق نص جديد تماماً... ومهما يكن يتبادر الى الذهن هنا السؤال التالي:

ما هي المعادلة التي تنظم العلاقة بين التبديل والتحريف؟

ان ايجاد نص هزيل يناقض ويتقاطع مع نص رصين وأصيل عمليّة بسيطة وممكنة وجارية في واقع الحياة، واستحداث نصوص طاغوتيّة في قبال النصوص الالهيّة الحق مسألة قائمة ومستمرة، وهذا هو التحريف، ولكن ان تكون هذه النصوص المبتدعة توازن النصوص الربانية فهو المستحيل...

قال تعالى: ﴿وماذا بعد الحق الاّ الضلال﴾.

ان الاستبدال أقامة شيء مقام شيء آخر على نحو التكافؤ والتساوي أو الأفضليّة من حيث القيمة الجوهرية أو الاثر المتوقع، فالنص الجديد يكون هو [البديل] لانه أصلح واقوم من سابقه، وتبديل آيات الله بهذا المعنى مستحيل...

اذن التحريف ممكن وهو جار... والتبديل مستحيل... مع الاخذ بنظر الاعتبار اننا نتحدث في نصوص آيات الله...

ان تحريف النص في التوراة والانجيل والقرآن من الممكنات، ولكن الاتيان بالبديل مستحيل... وفارق كبير بين الامرين.

(٦)

واخيراً... فان للكلمة في القرآن الكريم قانونها الجدلي المتوتر.

جدل رقم (١):

قال تعالى: ﴿... وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا...﴾

جدل رقم (٢):

﴿...كلمة طيبة كشجرة طيبة...... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾.

جدل رقم (٣):

﴿والزمهم كلمة التقوى﴾، ﴿... ولقد قالوا كلمة الكفر﴾.

ومن البيِّن السافر أنه جدل صاعد، متوتر...

(٧)
آفاق مقترحة

الأفق الأول:

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانهم لفي شك منه مريب﴾... الآيات (فصلت: ٤٥، طه: ١٢٩، يونس: ١٩، هود: ١١٠، الشورى: ١٤، الشورى: ٢١).

﴿كذلك حقّت كلمة ربّك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون﴾. يونس ٣٣.

﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾.

﴿ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين﴾.الزمر: ٧١

﴿أفمن حقٌ عليه كلمة العذاب افأنت تنقذ من في النار﴾ الزمر: ١٩.

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

الافق الثاني:

﴿...لا تبديل لكلمات الله...﴾ ... يونس: ٦٤

﴿...لا مبدل لكلمات الله...﴾ ... الانعام: ٣٤

﴿...لا مبدل لكلماته...﴾ ... الانعام: ١١٥، الكهف: ٢٧

﴿ويحقّ الله الحقّ بكلماته ولو كره المجرمون﴾ يونس: ٨٢

﴿...فأن يشاء الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾ الشورى: ٢٤.

﴿ويريد الله أن يُحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ الانفال: ٧.

الافق الثالث:

﴿واذا قضى أمراً فأنما يقول له كن فيكون﴾

الآيات:

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾ لقمان: ٢٧.

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾.

﴿اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ (آل عمران: ٣٩، النساء: ١٧١، آل عمران: ٤٥).

الافق الرابع:

﴿فتلقى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه﴾

﴿واذا أبتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمّهن﴾

﴿انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم﴾

﴿وكلّم الله موسى تكليما﴾

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه﴾.

﴿أني أصطفيك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق...﴾

﴿وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾

﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته﴾

الأفق الخامس:

﴿ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرُنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾. الانعام، ٣٤.

﴿... وتمت كلمة ربّك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا...﴾ الاعراف: ١٢٧.

الافق السادس:

﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾. النساء: ٤٦.

﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾. المائدة: ٤١.

﴿...يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾ البقرة: ٧٥.

الافق السابع:

﴿...يبشرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من الله﴾ آل عمران: ٢٩.

﴿انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم﴾ النساء: ١٧١.

﴿ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾ آل عمران: ٤٥.

﴿ويكلم الناسَ في المهد...﴾.

الأفق الثامن:

﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين﴾؟

﴿آيتك الاّ تكلم الناس ثلاثة أيام الاّ رمزا﴾

﴿أني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم أنسياً﴾ مريم: ٢٦.

﴿تكلم الناسَ في المهد وكهلا﴾ المائدة: ١١٠.

ملاحظة: يمكن للباحث ان يستوحي من مطالعته للآيات آفاقاً خاصة به وذلك على ضوء دراسته المعمقة للآيات.

الفصل الرابع

ذكر الله في القرآن

مداخل سريعة

مدخل رقم (١)

ذكرتُ الشيء خلاف نسيته، ثم حُمل عليه الذكر باللّسان. التذكير: الوعظ، والذكر أيضاً: الشيء يجري على اللّسان.

قال الفراء: الذكر: ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والتذكّر بالقلب. الذكر: العلاء والشرف وان تذكر شيئاً: تنطق به او تتحدّث عنه او تستحضره. وقد يطلق الذكر ويراد به الحديث أو القصة واحيانا الكتب السماوية كالقرآن وغيره. الذكرى: استحضار الشيء في القلب والعلم به.

هذا هو الذكر في اللغة. ولكن استعراض استعمالات المادّة، والمقارنة بينها يفيد ان الذكر هو: (الاستحضار، الوعي، الحفظ) وذلك في قبال (الغياب، النسيان، الغفلة).

نتحدّث عن الذكر في القرآن الكريم بلحاظ هذه الآفاق من المعنى، اي الاستحضار، وبذلك يتضاد مع الغياب، والوعي وبذلك يتنافى مع الجهل والغفلة والحفظ وبذلك يتقاطع مع النسيان.

مدخل رقم (٢)

ذكرُ الله تعالى: استحضارهُ في الفكر، في الذهن، واذا قيل ان معناه:

استحضاره في القلب فهو لا يخرج عن دائرة (الفكر ـ الذهن)، باعتباره عمليّة فكريّة، والقلب في القرآن كثيراً ما يعني العقل في حالة تفكر او العقل في حالة وظيفة !! وسواء كان الذكر هذا مع اللفظ او بدونه.

ذكر الله: استحضاره عقليّاً، ذهنيّاً، باعتباره جلّ وعلا خالقاً، رازقاً، رحيماً... الخ والسؤال المطروح، كيف تتم عمليّة الذكر هذه؟

الطريقة الأولى:

يتم استحضار الله تبارك وتعالى عن طريق او بواسطة استحضار نعمه التي يزخر بها الوجود العظيم، فهذا الاستحضار يقود بالتالي الى الوعي بالله جلّ وعلا.

قال تعالى: ﴿يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾: ﴿أو لا يذكر الانسان انّا خلقناه من قبل ولم يك شيئا﴾: ﴿واذكروا اذ كنتم قليلاً فكثركم﴾.

فالامر هنا، استحضار نعم الله، اي وعي عظمتها وجمالها ونفعها واهميتها. ومن ثم معرفة خالقها وبارئها جلّ وعلا. وقد يُشفع هذا الوعي بذكر لساني خاشع من تسبيح وتحميد وتكبير.

الطريقة الثانية:

يتم استحضار الله تعالى في الذهن والفكر بواسطة استحضار آياته الكونية المبثوثة في هذا العالم المدهش. اي ان التفكر في الآيات يؤدي الى استشعار الوجود الالهي عن وعي وعلم، وكل ذلك مصحوب بالخشوع والخضوع والإنابة.

قال تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكـرون﴾.: ﴿وما ذرأ لكم في الارض مختلفاً الوانه إنّ في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾. ان الاستحضار هنا عمليّة فكرية جادّة، تستهدف التعرف على الله، خالق هذا الكون ومسيّره.

مدخل رقم (٣)

قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾.: ﴿واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد﴾.: ﴿واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولي الايدي والابصار﴾.

هذا النوع من (الذكر) موجّه الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويتلخص في ضرورة استحضار الجوانب المشرقة في جهاد الانبياء عليهم السلام الذين قادوا التجربة الانسانية عبر مسيرتها الطويلة الشاقة. ذلك من اجل تقوية قلب الرسول من خلال استيعابه للدروس الرائعة التي افرزتها حياة هؤلاء العباد الصالحين.

مدخل رقم (٤)

قال تعالى: ﴿ولا تَنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم اولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلّهم يتذكرون﴾.

ان الآيات المبيّنة هنا عبارة عن (أحكام شرعيّة) تتعلّق ببعض جوانب الحياة الاجتماعية للانسان، وقد بيّنها الله للناس: ﴿لعلّهم يتذكرون﴾، اي

يستحضرونها مع التبصر والتفكر والتدبر لما فيها من خير وصلاح. وكل آيات الله تعالى التشريعية تهدف بناء الحياة الانسانية الطيبة. قال تعالى: ﴿ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾.

وبناءً على هدفيّة الاحكام الشرعيّة وغائيتها البناءة، فهي جديرة بالتبصر على ان تكون النظرة اليها شموليّة، مترابطة، متفاعلة.

مدخل رقم (٥)

قال تعالى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾.: ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾.: ﴿فذكر ان نفعت الذكرى﴾.

الذكر هنا يفيد (الموعظة) التي من شأنها احياء القلوب والضمائر والنفوس، وقد ورد الذكر بهذا المعنى كثيراً في القرآن الكريم (الحجر ٦، ٩ ـ النحل ٤٢،٤٤ ـ القلم٥١ ـ القمر ٢٥).

مدخل رقم (٦)

يأتي الذكر بمعنى الحكاية والقصّة والحديث عن موضوع ما. قال تعالى: ﴿حتى احدث لك منه ذكرا﴾. اي قصّة وخبراً.: ﴿ويسالونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا﴾اي قصّة وخبرا.

مدخل رقم (٧)

ويأتي الذكر بمعنى الشرف. قال تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾.

مدخل رقم (٨)

العلاقة بين الصلاة والذكر صميميّة جوهريّة، والقرآن الكريم يعرضها في ثلاث صور:

الاولى: تسمّى الصلاة ذكراً لاشتمالها علــى الاذكـار القوليّـة، كالتكبـير والتسبيح والتهليل والاستغفار وغيرها.

الثانية: انها من مصاديق الذكر. لانها بمجموعها تمثل العبوديّة الكاملـة لله تعالى.

الثالثة: ان تكون مقدمة للذكر.

قال تعالى: ﴿**واقم الصلاة لذكري**﴾.

مدخل رقم (٩)

ويُسمّى القرآن ذكراً. قال تعالى: ﴿وقد آتيناك من لدنــا ذكـرا﴾.: ﴿ذلـك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾.: ﴿أو عجبتـم ان جـاءكم ذكـر مـن ربكم﴾.

وقد امر الله تعالى نبيه الكريم بالذكر في اكثر من آية. قال تعالى: ﴿فذكـر انما انت مذكر﴾. جاء في هذا المعنى في الانعــام (٧٠) وق (٤٥) والذاريـات (٥٥) والطور (٢٩)... وقد اختلف في المقصود... وفي البين ثلاثة اراء:

الاول: تبليغ الوحي.

الثاني: الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثالث: تكليف مخصوص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والظاهر هو الثاني بدليل: ﴿فذكر ان نفعت الذكـرى﴾ و: ﴿سـيذّكر مـن يخشى ويتجنبها الاشقى﴾.

من السرد السابق يمكننا ان ندرج المقتربات التالية:

اولاً: ان المعنى الجوهري للذكر هو الاستحضار الذهني، واذا كان هنـاك ذكر لساني فلا بُدَّ ان تصاحبه عملية تفكر ـ كما سنرى.

ثانياً: يطرح القرآن الكريم طريقتين لذكر الله جلَّ وعلا، التفكر في الآلاء والآيات.

ثالثاً: يطلق الذكر في القرآن ويراد به احياناً:

١ ـ الموعظة الحسنة. ٢ ـ الأحكام الشرعيَّة. ٣ ـ الصلاة. ٤ ـ القرآن الكريم. ٥ ـ الشرف.

وفي الحقيقة ما يعنينا في الموضوع الذي نحن في صدده هو (المقترب الثاني)، اي استحضار الله في العقل / الذهن. واكثر المداخل الاخرى هي في خدمة هذا المقترب الأساسي، فان هذا الاستحضار هو الغاية من الصلاة والدعاء والقرآن والموعظة الحسنة، ولذا سوف ينصبُّ البحث عليه بالذات.

الذكر بهذا المعنى مشروع قرآني فكري مَعمَّق، وليس هو نحواً من أنحاء الوعظ العابر، اي مشروع بنائي، مدرسة. ولم يكن اشارة ذات بعد وعظي ونمطي تكراري، والوعظ لم يكن سوى احد المضامين الداخلة في تأسيس المشروع المذكور.

المداخل السالفة مجرَّد اشارات توضيحيَّة للدخول في صميم الموضوع، ولكن هناك ملاحظات اخرى يُستحسن تجليتها مُسبَّقاً، تُعد هي الاخرى اشارات منهجيَّة ضروريَّة من اجل استيعاب الذكر في مفهومه الجوهري المطروح.

اولاً: أنواع الذكر

قالوا ان الذكر على نوعين:

الاول: استحضار الله في القلب / اي العقل، ويُسمّى عند البعض بـ (الذكر القلبي) او الذكر (الذهني)، ومن الواضح ان عمليّة التفكر غالبة على هذا النوع من الذكر.

الثاني: استحضار الله في اللسان، ويُسمّى عند البعض بـ (الذكر اللساني). ويذهب المفسرون إلى ان علامة هذا النوع من الذكر تعلقه بالاسم. قال تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتَّل اليه تبتيلاً﴾: ﴿واذكر اسم ربك بكرة واصيلاً﴾.

وقد تعدَّدت آراء المفسرين في معنى او بالاحرى في صيغ هذا الذكر وهويته، ومما يذكر في هذا الخصوص:

١ ـ مطلق الذكر اللّساني مثل التسبيح والتهليل والحسن والثناء.

٢ ـ الدعاء.

٣ ـ بعض الاذكار المخصوصة كالتسبيحات الاربع.

ويرجّح كثير من المفسّرين الرأي الاول، ونحن اذا راجعنا مواطن الذكر اللّساني في القرآن الكريم، سنجد انه ذو مكانه عباديّة سامية، وذلك من خلال الملاحظات السريعة التالية:

اولاً: الامر المتكرر به، فان هذا التكرار دليل على الاهتمام والعناية، وانه من الشواهد الرئيسيّة على ضرورته العباديّة الربانية.

ثانياً: اقترانه ببعض الممارسات التعبُديّة الاساسية في الاسلام وذلك مثل

التسبيح والتبتل وغيرهما.

ثالثاً: التوكيد على الاكثار منه. فقد ورد في هذا نص قرآني صريح. قال تعالى: ﴿يا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا...﴾: ﴿واذكر ربك كثيرا...﴾: ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾: ﴿وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً﴾.

ولكن من المعروف في الأدبيات الاسلامية ان ذكر الله على اللسان دونما تدبر بعظمته وقدرته يعد مجرّد كلام فارغ. اي لابد ان يصاحب هذا الذكر استحضار ذهني عميق بآلاء الله ونعمه. والا فبماذا يتعلق هذا الذكر؟! وبهذا التقرير لا يختلف الذكر اللساني عن القلبي إلاّ بهذا الاعلان الصريح، وهذا التقييم ليس جوهرياً؛ لانه لا يمتلك اصالة الإثبات أبداً. انه تقسيم منهجي مؤقت، فالذكر بالنتيجة، وعلى ضوء الخطاب الاسلامي استحضار ذهني، قلبي، فكري لله سبحانه عبر التفكر بآياته الكونية ونعمه العظيمة، والتمجيد والتسبيح والتكبير والتهليل والاستغفار، إنما هو تعبير مادّي محسوس عن هذه العملية العقلية الداخليَّة، وتُسمى ذكراً على النحو المجازي، انها اشارة الى عملية اعمق منها وأدق.

الذكر: معرفة الله بخشوع وخضوع وإنابة، واحياناً يُعبر عن ذلك بصيغ لغوية معيَّنة، ذات قابلية على الاشارة الى تلكم المعرفة الفذَّة، وهي بلا ريب تعزّز الذكر وتؤكده وتعطيه المزيد من الحيويَّة والقوة. ان الذكر اللّساني انما هو ذكر عقلي (مُعلن).

ينتظم مشروع الذكر في القرآن الكريم مجموعة معادلات رئيسيَّة، والتدقيق في هذه المعادلات يكشف عن أساس وقاعدة، كما يشكل بالإنسان

على قضاءات ونتائج والمطلوب هو الظفر بهذه المعادلات في بنيتها الجاهزة، كما ان الاحاطة الدقيقة بعناصر الاتساق والتجاذب بين المعادلة وقاعدتها وقضاءاتها يؤكد اعجاز هذا الكتاب المقدس.

الذكر ممارسة عباديَّة عميقة، مشروع عبادي يجسّدُ وعياً ومسؤولية ويترسم هدفاً مركزيا في حياة الانسان، ولهذا تتجاذبه عوامل رفع وطرد. والقرآن استعرض هذه العوامل. ولكن ليس بشكل خاطف، وانما ضمن مسلسل من المستويات والدرجات، لان مثل هذه الممارسة من الصعب جداً ان تدخل ميدان الحياة الانسانية من دون صراع، وهذا الصراع انما يكون في مستواها، والمطلوب استجلاء هذه العوامل ولو بشيء من السعة حيث سنلتقي بمنطق قرآني تترافد قوته الذاتية بشواهد المتانة الفكريَّة والعقليَّة.

شيء آخر نجده في مطاوي القرآن وهو يعرض مشروعه العبادي الفكري (الذكر)، ذلك هو الموقف السلبي من الذكر، ضمن سُلَّم متعانق المصير، فليس هو الموقف الواحد بل هو الموقف المتعدّد المواقع في درجاته وامكاناته.

وبناءً على كل هذا....

سنطرق موضوع الذكر في عدة مجالات ومن اهمها:

الاول: معادلات الذكر (ثلاث معادلات نموذجيًة).

الثاني: عوامل الجذب والطرد.

الثالث: الموقف السلبي.

ثانياً: ثلاث معادلات رئيسية

المعادلة الأولى

بُنية المعادلة: الذكر يؤدي او يصوغ مجموعة نتائج مهمّة على الصعيد النفسي والوجداني والعقلي بالنسبة للانسان الذي يمارسه بوعي وادراك، منها:

١ ـ الاطمئنان ﴿الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

٢ ـ الوجل ﴿الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾.

٣ ـ السجود ﴿انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خرُّوا سُجَّدا﴾.

٤ ـ الرقة ﴿ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم الى ذكر الله﴾.

هذه آثار يؤدي اليها الذكر، ذكر الله، انها الاطمئنان والخوف والسجود والرقة... ترى هل هي معاني متعدّدة، متنوّعة؟!

وهناك اكثر من تصور يطرح في هذا الصدد:

أولاً: ان آثار (الذكر) تتباين باختلاف الحيثية التي يتعلق بها، فالانسان المؤمن اذا استحضر في ذهنه/قلبه الله الرحمن الرحيم الرزاق، اي بصفاته الايجابيّة الجماليّة، يشعر بالاطمئنان والثقة والرعاية والقوة. اما اذا استحضر الله تعالى ذا القوة الشديد العقاب، فانه سوف يستشعر الخوف والرهبة في الحضرة الالهيّة. وهكذا، مع العلم ان الخوف من الله ليس مثل الخوف من السلطان، لانه يتسم بالمردود الايجابي الفاعل في مجال الحياة والتاريخ.

ثانياً: انَّ (الاطمئنان، الخوف، الرقة، السجود) تعبّر عن مستويات

متفاوتة من انعكاسات الذكر على الانسان، ذلك ان الذكر درجات، وكلما كان اعمق وابصر وارقى، ترك اثراً بمستواه ودرجة رقيه وتطوره، فنحن هنا بين يدي معاني مختلفة ليس فقط بالمحتوى والمضمون من الناحية الدلاليّة، بل كذلك على متعبد الجوهر والصميم، فالسجود الذي يعبّر عن الخضوع التام ارقى من الخوف ـ مثلاً.

ثالثاً: ان هذه الآثار متطابقة بالمعنى بالتحليل الاخير، فالسجود في جوهره البعيد خوف، والخوف، في حدود او نطاق الحضرة الالهيّة المقدّسة ـ في حقيقته رق وعطف، وكل ذلك يولد الاطمئنان برحمة الله.

والذي اميل اليه هو التقريب الاول. ومهما يكن من امر فان المعادلة التي يطرحها القرآن تؤكد ان الذكر يؤدي الى نتائج ضخمة في حياة الانسان.

هذه المعادلة العريضة الواسعة تنبثق من قاعدة قرآنية عميقة، تمتلك قابلية تفسيرها وتحليلها وبيان سرها.

جذر المعادلة: معادلة الذكر السابقة ترتكز على اسّ قرآني مهم، ذلك هو قوله تعالى: ﴿فاذكروني اذكركم﴾.

ان الانسان الذي يستحضر الله في عقله وقلبه يستحضره الله في رحمته وعنايته، فيطمئن قلبه وترق عاطفته، ويزداد خوفه من الله الذي هو المؤمن زيادة في الالتحام بالله... هذا هو المنبع الحقيقي لمعادلة الذكر السابقة بكل حركتها الهائلة المعطاءة. وفي الحقيقة على ضوء هذا الأس او الجذر القرآني يمكننا ان نفهم العديد من المعادلات القرآنية الكريمة. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾. وقوله تعالى: ﴿ادعوني استجب لكم﴾.

تعزيز المعادلة: ولكي تستكمل المعادلة اجواءها الاثباتية الصارمة، دعونا

نتصوَّر العكس تماماً، اي ماذا لو ان الانسان اغفل عن ذكر الله سبحانه وتعالى.

١ ـ القلق والهم والاضطراب: ﴿ومن اعرض عن ذكري فـان لـه معيشـة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى﴾.

٢ ـ النفور من الحقيقة العظمى: ﴿واذا ذكر الله وحده اشمأزَّت قلوب﴾.

٣ ـ العذاب: ﴿ومن يعرض عن ذكر ربّه يسلكه عذابا صعدا﴾.

ولا اريد ان ادخل في رحاب المعنى اللغوي لهذه الآثار، الا انها تماماً على تضاد من آثار الذكر التي مرَّت بنا سابقاً، وذلك بشكل او آخر.

هذه هي المعادلة الاولى، بنية وجذراً وتعزيزاً. ومن اروع ما فيها هذا التطابق الفذ.

المعادلة الثانية

يعقد القرآن الكريم معادلة اساسيّة بين ذكر الله سبحانه وتعالى من جهة وبين مسألتين أساسيتين من جهة اخرى، هما:

١ ـ البيان.

٢ ـ التفصيل.

قال تعالى: **﴿ويضرب الله الامثال للناس لعلّهم يتذكرون﴾.: ﴿ويبين الله آياته للناس لعلّهم يتذكرون﴾.: ﴿ قد فصّلنا الآيات لقوم يذكرون﴾.: ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾.: ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾.: ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلّهم يتذكرون﴾.**

والبيان هو التوضيح المسبوق او القائم على الشرح والتفريع والتحليل، كذلك هو التفصيل، فانه لا يختلف عن هذا المعنى بالشيء الكثير. والايصال

بالقول يندرج في اطاري البيان والتفصيل، كذلك ضرب الامثال والانذار. والذي اعتقده ان من السهل ان تدرك العلاقة بين الذكر الذي هو الاستحضار الذهني المتوقد من جهة وبين كل من البيان والتفصيل من جهة اخرى.

اذ بماذا يتعلق الذكر؟ لابد ان تكون هناك (مادّة) يتعلّق بها الذكر، والمادّة هنا هي الآيات والامثال والقول (وهي مادّة اولى حيث الغرض الاخير معرفة الله)، ثم لابد ان تكون هذه المادّة واضحة بيّنة، والا فان الذكر لا يتعلّق بالفراغ ولا بالموضوع المبهم الغامض. هذه هي المعادلة في بنيتها الرئيسية.

المعادلة الثالثة

وفي صدد (الذكر اللّساني) بالذات اي الذكر باللّسان هناك معادلة قرآنية رائعة جميلة، تصور لنا ثلاثة مواقف متضاربة.

قال تعالى: ﴿ يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم... ربّنا ما خلقت هذا باطلاً... ﴾: ﴿واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا﴾: ﴿واذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾.

هذه الآيات تجدّد لنا ثلاثة مواقف إزاء ذكر الله سبحانه، وهو هنا ذكر لساني اي ذكر علني:

الموقف الاول: الجديّة والإصرار والحيويّة.

الموقف الثاني: التراخي والتثاقل والتكاسل.

الموقف الثالث: النفور والاشمئزاز.

هذه هي المواقف، وهي ـ كما يظهر بوضوح ـ تتناقض في جوهرها وصميمها. فالاصرار على الذكر ينبع من الايمان. وعليه فهو يجسّد موقف

اهل اليقين، فيما هامشيّة الموقف وتراخيه يترجم حال المنافقين، والعدائية النفسيّة المشحونة بالحقد على الذكر تخبرنا عن اولئك الذين كفروا بالآخرة. وبهذا تكتمل دائرة المعادلة باحكام، فالانسان امّا مؤمن وإما منافق وإما كافر. ولكل موقفه المحدّد من الذكر في قضاء العلن. فهو امّا اصالةً واعتقاداً وإمّا مداراة وتملُّقاً وإمّا جحوداً وانكاراً.

هذه المعادلة الرئيسيّة تنطوي على اشارات ضمنيّة في القرآن الكريم... لنقرأ الآيات التالية: قال تعالى: **﴿ولكل امّة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام﴾**.: **﴿ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق﴾**.

هذا هو موقف الانسان المؤمن من بهيمة الانعام. ينبغي ان يذكر اسم الله عليها. ولا يجوز له اكلها اذا لم يتحقق الشرط المذكور.

اذن لننظر الموقف الآخر: قال تعالى: **﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه﴾**.: **﴿وما لكم ألا تأكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه ﴾**.

انها معادلة اخرى ضمن الاطار الكبير الذي بيناه قبل قليل، ان هؤلاء تشمئز قلوبهم من ذكر الله تعالى ولا تطاوعهم نفوسهم ان يذكروا اسم الله على بهيمة الانعام، بل قد لا يأكلون منها اذا حققت هذا الشرط.

ان اي نظرة بسيطة على المعادلة السابقة ولاحقتها تكشف عن وحدة الفكر والسلوك. هذا التجانس والتطابق الفذ بين النظرية والممارسة من علامات البيان الحق في القرآن الكريم.

هذه نماذج سريعة من معادلات الذكر في القرآن. استعرضناها كنماذج، وفي المقام امثله اخرى لا مجال لعرضها في هذه العجالة.

ثالثاً: عوامل الجذب والطرد

الذكر (مشروع) عبادي ضخم، ينطوي على فكر بل رؤية عميقة في الكون، ثم هو ممارسة عريضة، ولذا يحتاج الى قناعة مُسبَّقة وارادة ماضية، وتأسيساً على ذلك. يمكن ان نقول ان هناك عوامل دافعة مشجعة لاداء هذه الممارسة، كما ان هناك عوامل مثبطة مانعة، وقد تعرض القرآن الكريم لكلا النوعين.

القرآن في حديثه عن كلا القسمين من العوامل المذكورة يطرح صورة دقيقة، مشحونة بالاسباب والنتائج والآفاق، لان طرحه ليس تقريرياً وعظياً اخلاقياً، وانما طرح تفسير وبيان. قال تعالى: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء..**﴾.

في عجالة نحاول ان نستقرئ عوامل الدفع والجذب لممارسة الذكر، كما ينبئنا الكتاب الكريم في جمل كثيرة من آياته الشريفة.

عوامل الطرد

العامل الاول: هو الانهماك غير المعقول او الزائد عن الحد المنطقي في تحصيل الثروة، واللهاث المحموم على الكسب المادّي، اضافة الى الافتتان في سحر القوة العائليّة !! عبادة المال والقوة والجاه. وقد طرح القرآن هذا العامل على ثلاث مراحل:

المرحلة الاولى: تصوير للواقع المؤمن في صدد هذا الامتحان، وذلك في قوله تعالى: ﴿**رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار**﴾.

نحن هنا امام عمليّة تصوريّة لحالة نمط من الناس ازاء قضيّة حسّاسة في تقرير المصير، هذا النمط هم المؤمنون، وتلكم القضية هي الانغماس في التجارة والبيع. هذا التقرير يتخذ صفة اوسع في قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما اموالكم واولادكم فتنة وأن الله عنده اجر عظيم﴾.

وهي فتنة ابهة وتفاخر وتباهي، مما يدعو الى الاستزادة منها، وبالتالي فان ذلك سوف يلهي عن ذكر الله.

المرحلة الثانية: الاشارة الى المحذور في هذا المجال، وذلك في قوله تعالى: **﴿يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون﴾**.

فالذي نخرج فيه من هذه الآية ان المؤمنين لا تلهيهم تجارتهم واولادهم عن ذكر الله، والذي ينساق مع هذا الاتجاه السلبي ستكون عاقبته غير محمودة، اشارة الى المحذور...

المرحلة الثالثة: تجسّد الوقوع في المحذور فعلاً، اذ القرآن يعرض لنا موقفا عملياً يجسّمُ المحذور كواقع على الارض، وتعتبر قصة صاحبي القرية نموذجاً حياً على هذه النتيجة الخائبة التي سبق وان المح اليها على مرحلتين، فقد كان احدهما متمرداً على الله ساخراً من امره وقدرته وارادته، لا لشيء الا لانه: **﴿أنا أكثر منك مالاً واعز نفرا﴾**. قال تعالى: **﴿وقالوا نحن اكثر اموالاً واولاداً وما نحن بمعذّبين﴾**.

ويبدو من استعراض هذه الآيات، ان الاموال والاولاد يُغريان بالاستزادة، والاغراء يدعو الى مزيد من الطلب، وهذا بدوره يؤدي الى (الإلهاء) عن (ذكر الله) تعالى، وبالتالي الى الطغيان بل الى انكار ابسط

الحقائق !! فصاحب القرية لا يتصور ان هناك بعثاً واذا كان هناك بعث فان العذاب لن يصيب اصحاب الاموال الكثيرة والعوائل الكبيرة !!

وفي الحقيقة هذا احد المداخل المهمّة في تفسير الآيات، يمكننا ان نطلق عليه (التفسير الاطرادي في القرآن الكريم). سوف نلتقي ببعض نماذجه في فرصة قادمة ان شاء الله تعالى.

الخلاصة المهمة والجوهريّة في المجال الذي نحن فيه هي:

انّ الانغماس المحموم في الاستزادة من (الحال) المعبَّر عنها بالتجارة والبيع والانهماك المفرط في استزادة وتضخيماً واعلاءً.. ان هذا المرتب يؤدي او يسبّب (الإلهاء) عن ذكر الله وقد يقود الى نتائج اكثر خطورة.

العامل الثاني: وهذا اخطر من سابقه واكثر امضاءً في صنع الموقف السلبي من الذكر، انه (اتباع الهوى). والهوى كما يقولون الشهوات!! وفي الحقيقة ليس الامر بهذه البساطة، الهوى هو الشهوة في حالة مُعيّنة، الشهوة في حالة سيطرتها على الحقيقة، اي الشهوة في حالة سلطانها الذي يقود الى اصدار الأحكام المخالفة للمنطق والعدل والحق، الشهوة العمياء، اي التي تحذف او تقلب او تشوّه او تعطل الحقيقة. لنقرأ الآيات التالية: ﴿ولا تتبع اهواءهم عمّا جاءك من الحق﴾.. ﴿وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم﴾.. ﴿فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون اهواءَهم﴾.. ﴿واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءَهم﴾.

فالملحوظ هنا هو الشهوة العمياء، الشهوة المتسلّطة على العقل، ولا اريد ان اواصل الحديث في هذه القضية، لانها قد تفوت علينا الموضوع الذي نحن في صدده. قال تعالى: ﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله﴾.

وفي الحقيقة ان هناك علاقة عضويَّة او جوهرية بين الذكر بمحيطه الواسع العريض و (سبيل الله)، فان الذكر لا يخرج عن سبيل الله ابداً، والضلال تعبير عن شدَّة الحيود والانحراف. والمضمون المجمل للآية، ان طاعة الشهوة العمياء تضل الانسان او تحرفه عن ذكر الله عزَّ وجل. قال تعالى: ﴿فلذلك فادعُ واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب وأُمرتُ لأعدل بينكم الله ربنا وربُكم...﴾.

وببساطة يمكننا ان نقرر على ضوء الآية ان اتباع الهوى يسبِّب الحيود عما انزل الله، اي الذكر بكل معانيه المتصلة بالله ورسالاته وأنبيائه. قال تعالى: ﴿انني انا الله لا اله الاَّ انا فاعبدُني واقم الصلاة لذكري * إنَّ السَّاعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى،* فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾.

وفي الحقيقة وسواء المقصود بقوله تعالى: ﴿فلا يصدنك عنها﴾ الصلاة او الساعة ـ انما كان هذا الموقف السلبي يسبب عدم الإيمان واتباع الهوى.

والصلاة ذكر، كما ان الساعة او بالاحرى الإيمان بالساعة يتضمن الذكر بشكل وآخر. والمعنى الذي نريد ان نثبته هنا هو، أن اتباع الهوى يُضلُّ ويصدُّ عن ذكر الله تبارك وتعالى. (قال تعالى:: ﴿أفكلَّما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتلون﴾.

فالهوى يدعو صاحبه الى تكذيب الحقيقة، بل الى قتل صاحبها، عمليَّة مضادَّة للذكر بكل مصاديقه الجميلة البيضاء. قال تعالى: ﴿ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهنَّ﴾.

هذا هو الهوى، او بالأحرى اتباع الهوى. انه يقود الى الحيود عن الذكر

والى الصدّ عنه والى تكذيبه انه اخطر في تأثيره وأشد في مضاعفاته من ذلك الانغماس في التجارة ومن ذلك اللهاث وراء الأبهة العائلية. ان الإضلال والإفساد والتكذيب والصد كممارسات سلبية على صعيد الذكر اخطر من الإلهاء.

العامل الثالث: قال تعالى: ﴿ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذتُ مع الرسول سبيلا * يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا * لقد اضلّني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا﴾. والذكر هو القرآن...

هنا بودي ان اسلط ضوءاً سريعاً على مسألة مُهمّة، قد يتساءل البعض عن موقع الذكر في هذه الآية من مفهوم (الاستحضار) الذي اتفقنا على اعتباره المقصود من الذكر في هذا البحث السريع... فاستحضار الله تعالى في اللسان او الذهن شيء والقرآن ككتاب مقدس شيء آخر. وفي الحقيقة ان مثل هذا التعامل الحرفي مع القرآن يؤول الى تحجيم النص وتجميد الخطاب، فمن انجازات العلم اعتبار النص فضاء، جسماً، اجواء، مناخاً، مجالاً... وكلمة القرآن معنى يشمل مصداقه اللغوي والعرفي الذي تكوّن على اساس اعتباراته المضمونيّة في نفسه ولدى الناس. بل يشمل حتى وظائفه المطروحة بين سطوره، فالقرآن حضور لله تعالى في الذهن والسلوك واللفظ... وليس هو هذا الكتاب المحفوظ بين الدفّتين، والاعراض عنه اعراض عن الذكر بمعنى الاستحضار الذي يدور حوله موضوعنا.

القرآن الكريم في هذه الآية الشريفة يكشف لنا عن عامل جديد في صياغة الموقف السلبي من الذكر، او احد عوامل الطرد. انه الخليل السيئ العقيدة، المنحرف التفكير.

الضلال في الأصل: الغيبوبة وبالتالي يعني النسيان والضياع. ضلَّ الشيء: خفي وغاب، ونحن اذا اخذنا كل هذه المقتربات في التقدير والاعتبار، استطعنا ان نقول: ان هذا الخليل السيّئ ضلَّ صاحبه، غيّبهُ، غيّبه عن الذكر، عن استحضار الله في عقله وضميره عبر التفاعل الحي مع آيات الكون وخيراته العظيمة.

العامل الرابع: قال تعالى: **﴿انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله﴾.**

الصدُّ: الإعراض والصروف، صدَّ: منع وصرف. الشيطان بنص القرآن يمنع الانسان عن ممارسة الذكر، اي استحضار الله تبارك وتعالى، ويبدو ان عمليَّة الصد هذه تشكل حاجزاً كثيفاً بين الانسان وهذه العبادة الحضارية الراقية لانها ـ عمليَّة الصَد ـ من عمل الشيطان الذي يتمتع بقابليَّة معروفة على اغواء الذين لا يستمعون الى نداء العقل والضمير. ان المعنى اللغوي لكلمة (صدَّ) تعزّز هذا التصور، لان الصدَّ ينصرف الى المنع البالغ الشدَّة، ولكن هذا الصد ينعكس بدوره داخل الانسان حيث يوسع من دائرة نفوذ الشيطان، وذلك اذا ما انتبه الانسان الى نفسه وقاوم إغراء هذا المخلوق اللعين. يقول تعالى: **﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾.**

نسي الشيء ينساه نسياً ونسياناً: ذهل عنه، وغاب الشيء عن ذكره وحفظه، ويقال، نسي الشيء: فرَّط في تذكره حتى غاب عن حفظه. ان عمل الشيطان هذا ابلغ من غيره في تحقيق هذه النتيجة. انه النسيان، وانساء الشيطان ادهى من إنساء الإنساء الناتج عن اللهو او الافتتان بالابهة العائلية او

المتولد من اتباع الهوى او اضلال الخليل السيّئ العقيدة.

من العرض السابق نستطيع أن نطرح المختصر السريع التالي: أنّ هناك جملة عوامل تحول بين الانسان وذكر الله تعالى، اهمها:

أولاً: الانغماس المحموم في جحيم الكسب المادّي غير المحدود.

ثانياً: الافتتان بالابهة العائلية.

ان كلا العاملين المذكورين (يُلهي) عن ذكر الله، وقد يتواصل تأثيرهما الخطير فيعطي نتيجة خطيرة للغاية.

ثالثاً: اتباع الهوى، اي الشهوة المجنونة الحاكمة المتسلطة، فان هذا الهوى (يُضلُّ) الانسان عن ذكر الله (ويصدّه) عن ذلك. بل (ويكذّب) حقيقة الذكر في داخل الانسان.

رابعاً: اتباع الخليل السيّئ العقيدة، فهو (يضل) صاحبه عن ممارسة هذه العبادة الحقة.

خامساً: الشيطان بمعناه الميتافيزي القرآني، فإنه (يصدّ) الانسان عن ذكر الله ثم (يُنسيه) هذا الذكر على مديات بعيدة من الزمن والفعل.

هذه العوامل بطبيعة الحال ليست متفاصلة، متعاندة، وآثارها هي الأخرى، فهناك علائق وثيقة بين الهوى والشيطان وعبادة المال والخليل السيّئ العقيدة، وربما هناك تواصل بين آثار هذه العوامل السوداء، وقد تتداخل بشكل وآخر، وتتبادل التأثير والتأسيس.

ولو اخذنا النسيان مقياساً عاماً سارياً في هذه المجالات (اللهو، الصد، الضلال، التكذيب، النسيان الشيطاني) لامكننا القول، ان الموقف المرفوض قرآنياً من الذكر انما هو نسيان الذكر، اي العوامل السالفة انما تسبب

نسيان الذكر، ولكن هذا النسيان درجات، وذلك تبعاً لاسبابه الكامنة وراءه (عبادة المال، الافتتان العائلي، اتباع الهوى، الخليل السيّئ العقيدة، الشيطان الميتافيزي).

ولكن ما معنى النسيان؟ في الحقيقة هناك اكثر من صيغة للنسيان الذي نحن في صدده، فهو قد يعني ذلك (الامحاء) الصوري، فان انساناً ما قد لا يأتي اسم الله على لسانه، ولا يستحضره في غفلته وشعوره، ولكن هناك نسيان من نوع آخر، هو اهمال الله في الحياة والسلوك والتفكير، وقد يذكر احدهم الله تعالى لكن في معرض النفي او الاستهزاء او التكبر... او... والعياذ بالله وهذا هو النسيان المعنوي، أي الذي يتصل بافق الفكر والتصور، وقد يذكر احدهم الله امام الآخرين رياءً وتملقاً، أي لغاية انتهازيّة، وهذا هو الآخر نسيان. اذن هناك نسيان عن علم واصرار!!، فليس كل نسيان يعني غياب الصورة بالمعنى التقليدي المعروف، وعليه فان كثيراً من الناس يذكر الله تعالى، يتحدث عنه ولكن هو ناس، غافل، ضال. قال تعالى: ﴿ نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون﴾: ﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾.

فالنسيان لا ينصرف فقط الى ذلك الغياب الحسي البحت. بل هو يعني الاهمال والازدراء، اي الغياب المعنوي، انه (الإمّحاء) الروحي، الجوهري، الصميمي، ليس هو غياباً زمنياً بالدرجة الاولى. بل هو غياب منطقي في الاعمال والاقوال والتصرفات والسلوك والفكر والعلاقة مع الآخر والتفاعل مع الاشياء.

فعباد المال، قد يذكرون الله على السنتهم، ولكن عرَضاً، وبدون تفكر.

والمنهمكون في لذة محمومة قد يذكرون الله ولكن في معرض اللهو والخفّة، والذي ينكر وجود الله قد يذكره آلاف المرات بلسانه الكليل، ولكن في معرض الانكار!! والمنافق قد يذكر الله بخشوع وخضوع ولكن حضور الله في روحه معدوم. هذا هو النسيان الذي نقصده.

ان اللّهو والصدّ والضلال والتكذيب والنسيان الشيطاني ازاء الذكر... انها جميعاً نسيان، ولكن بمعنى الإهمال وعدم الجديّة، غياب منطقي وفعلي لله في الحياة.

الآن ماذا ينتظرنا؟ لابد ان نعود الى التفسير بالتناظر...

لقد استمعنا الى عوامل الطرد، فما هي عوامل الجذب؟!

وباختصار شديد، ان الفعل الراجح، اي الذي يقدر مسؤولية هذا الكون، والذي يتعامل مع الاشياء بجدية ومنطق، هذا العقل من اهم عوامل الجذب في هذا المجال، يدعو الى ممارسة الذكر، كحق عبادي اصيل. قال تعالى: ﴿الم تر ان الله انزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

هذا هو العقل الراجح، يستنطق دلالة الكون، فيخشى الله تعالى، وذلك هو الذكر، اي استحضار الله في الذهن مع الخشية، بلفظ او دونه، والقرآن يعقد تناظراً فذاً بين ذلك النفر من الناس، العابث في طاقة الحياة، الساهي عن حركة هذا الوجود، وبين ذلك النفر الذي يقدّر ويثمّن امانة الكون وضخامة دلالته، اولئك لا يذكرون الله فيما هؤلاء مغرمون بهذه العبادة الراقية السامية. قال تعالى: ﴿الم تر انهم في كل واد يهيمون، وانهم يقولون

ما لا يفعلون، الاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا...﴾.

واذا كان العقل الراجح من اهم عوامل الجذب، فان تزكية الذات وتنمية قواها الخيّرة من عوامل الجذب الاخرى في هذا المجال الحي من السلوك الانساني الجميل. قال تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾.

واعتقد ان مركب (العقل ـ الذات) يشكل معادلة واضحة متكاملة في بيان عوامل الجذب بالنسبة للذكر، العقل في وعيد الذات بطهارتها.

رابعاً: الموقف السلبي من الذكر

الموقف السلبي من الذكر حيثيات وابعاد والوان، والقرآن الكريم تطــرق بدقة الى مصاديق هذا الموقف، وارى من المفيد جداً جــرد تلكـم المصــاديق لاستكناه حقيقتها وهويتها.

١ ـ الاعراض: الاعراض موضوع قائم بذاته في القرآن الكريم، ونحن هنا نتحدث في مجال واحد، هو الأعراض عن الذكر. قال تعالى: ﴿بل هم عن ذكر ربّهم مُعرضون﴾.: ﴿ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربّه فاعرض عنها﴾.

عَرض: ولّى مبدياً عَرضه. فالانسان الذي يعرض عن شيء انما يعطيـه ظهره كناية عن الرفض او عدم الرغبة او غياب التفاعل وفي اغلب الأحيــان انما يعرض الانسان عن شيء أو امر... بفعل الاسباب الآنفة.

القرآن يقدم لنا صورة واضحة جليّة لإعراض بعض الناس عن الذكــر، فهو على مستويين رئيسين:

المستوى الأول: اعراض عن الذكر بالذات، فهو لا يطيق ذكر الله سبحانه، شكراً او مدحاً او استغفاراً او تعظيماً، فهو لا يستحضر هذه الصيغ ابــداً، اولا يتحمل سماعها او الحديث فيها وعنها. وقد مرّت اكثر من آية على هذا الصعيد.

المستوى الثاني: اعراض عن آيات الله تعالى التي تستدعي الذكــر، ســواء مع اللفظ او بدونه، انه على خصام ذهني منحرف مع هذه الآيات البينــات، عندما تطرح او تعرض عليه يُولي مُبدياً عرضه، يصمّ اذنيه، يعطـل عقلـه، يتهرب !! او ان هذا الانسان لا يكلف عقله أبداً في استجلاء عظمة هذا الكون

ومعرفة دلالة هذه النعم. قال تعالى: ﴿وان يروا آية يعرضوا...﴾: ﴿وكأين من آية في السماوات والارض يمرون عليها وهم عنها مُعرضون...﴾: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها مُعرضون...﴾.

فالمعرضون، امّا أن يضعوا اصابعهم في آذانهم، او يعطلون عقولهم، او كلا الامرين معاً وهو الغالب. وكم بودي ان اسرد أنواع الاعراض، ولكن المجال غير مناسب.

٢ ـ المجانبة: قال تعالى: ﴿سيذكر من يخشى * ويتجنبها الاشقى﴾.

المجانبة: الميل. والمعنى: ان (الاشقى) عندما تلقى عليه (الذكرى) يجعلها خارج مسيره، خارج محيطه، خارج فكره واهتمامه، يتماشاها، يجعلها على طرف منه، يميل عنها. انه (يتجنّبها). ولكن ما معنى الذكرى هنا؟ قالوا: الموعظة.

وفي الحقيقة، ينبغي ان لا نفهم الموعظة هنا ضمن ذلك الإطار التقليدي، اي المضمون الارشادي الخلقي، ايجاباً او سلباً، فان الفكر الذي يستوحي دلالات هذا الكون وهذه النعم، هو الآخر (موعظة)، ان عرض الآيات على العقل الدالة على التوحيد والحكمة والقصد هي وعظ من الدرجة الراقية، خاصة وانها قد تؤول الى الالتحام بالله تعالى.

اذن هناك طائفة من الناس، تتحاشا عن ذكر الله جلّ وعلا، بالمعنى السابق، وربما الإعراض اشد من المجانبة كما يبدو من الإيحاء اللغوي، ولكن في النتيجة ان كليهما من مصاديق الموقف السلبي من هذه العبادة الطيبة.

٣ ـ التولّي: قال تعالى: ﴿فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد الاّ الحياة الدنيا﴾.

وتولّى: انصرف وأدبر. ويبدو: ان هـذا الانصـراف هنـا اوسـع مـدى وأعمق خطورة ودلالة من المجانبة والاعراض. ومما يعطي للتولي هذا البعد القاسي او هذه الدلالة الاكثر كثافة وظلامية مـن الذكـر، ان طالما يقـترن بمواد لغويّة تتصل صراحة وعلناً بالجحود والانكار والتعطيـل ـ والعيـاذ بالله ـ قال تعالى: ﴿لست عليهم بمسـيطر * الاّ مـن تولّـى وكفـر﴾.: ﴿فـلا صدق ولا صلّى * ولكن كذب وتولى﴾.

انه موقف سلبي اشد مما عليه المجانبة والإعراض.

٤ ـ **العشو**: قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض لـه شـيطاناً فهو له قرين﴾. ﴿وانّهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون﴾.

العشو: اصله النظر ببصر ضعيف، يقال: عشى يعشو عشواً وعشواً اذا ضعف بصره واظلمت عينه كأن عليها غشاوة.

ومن العجيب ان يفسر بعضهم (يعش) هنا بـ (يعـرض)، فيمـا هـي في الحقيقة (يتعامى) او (يتغافل)، حيث ينطوي المعنى علـى محاولـة تجـاوز الحقيقة على نحو العناد الخفي. والشيطان في الآية امّـا بمعنـاه الميتـافيزي المعروف وإما ذو السلطان الغاشم كما جاء في مجمع البيـان. وفي اعتقـادي ان الاول اكثر ظهوراً. ومهما يكن، يسجل القرآن الكريم، في هذه الآية احـد مصاديق الموقف السلبي من الذكر، انه التعامي، أي الهروب المصطنـع. وفي الآية نكتة رائعة يؤجل الحديث عنها الى السطور التالية باذن الله.

٥ ـ **النسيان**: قال تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون﴾. نوع آخر من أنواع الموقف السلبي من ذكر الله سبحانه، وقد نوهت سـابقاً ان هؤلاء لم ينسوا الله لساناً، بل هم قد يذكرون الله دائماً ولكن في معرض

التعطيل او الانكار او الاستهزاء، وسوف نتطرق بالتفصيل الى حيثيات هذا الموضوع ان شاء الله. ولكن هذا الموقف اكثر ايغالاً بالسلبيّة والجحود على صعيد الذكر، فهو يتعدى حدود المجانبة والاعـراض والعشـو بـل وحتـى التولي، وانه يعبر عن مرحلة سوداء قاتمة في حياة وسلوك نفر من النـاس، انحدروا اليها عبر ممارسات منحرفة بالغة الخطورة والتجني على الحقيقة والعلم.

٦ ـ **اللهو:** وقد المحنا اليه سابقاً، واللهو عن ذكـر الله لـه اسـبابه الـتي افصح عنها الكتاب المجيد، الا وهي عبادة المال والتفـاني في سـبيل الابهـة العائلية، والانغماس في هذا العالم ذي النزعة الاستهلاكية المتعالية.

٧ ـ **الضلال:** وقد اشرنا اليه قبل قليل ايضاً. والضـلال يعـني الغيـاب، وتبين لنا من استعراض الآيات، ان الحيود عن ذكر الله في هذا النطاق يكون بسبب الشيطان او الخليل السيّئ العقيدة، وهـو بـلا ريـب مرحلـة بالغـة الانحدار، ولعلها اسوأ موقف مما مرّ علينا.

٨ ـ **الاشمئزاز:** قال تعالى: ﴿واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذيـن لا يؤمنون...﴾.

الشمز: التقبض ونفور النفس مما تكره. تشمّز وجهه: تقبض.

اشمأزّ اشمئزازاً: تقبّض واجتمع بعضه الى بعض.

هذا هو معنى الاشمئزاز في اللغة، وهو تعبير دقيـق علـى حالـة الكـره والنفور الذاتية من شيء ما، وهؤلاء بلغت بهم مواقفهم السلبيّة مـن ذكـر الله ان تشمئز قلوبهم من ذلك!! ومما لا ريب فيه ان هذا الاشمئزاز لم يأت من فراغ، بل لابد من ممارسة عمليّة لانواع الموقف السلبي لفترة من زمـن

وعلى مساحة عريضة من تصرفاتهم حتى انحـــدروا الى هـذا الـدرك مــن الفكر المشوش الحاقد.

٩ ـ **الصد:** ثم نصل الى الذروة من السلب في خصوص ذكر الله وآياتـــه، اننا مع مرحلة في غاية الخطورة، اذ هنا تتجسّد على شكل وظيفة، رســالة، مهنة، ليس تصرفا شخصياً بحتاً، ولا موقفاً سلبيًا عارضـــا. انـها مرحلـة الصد عن ذكر الله. اي: المنع !!

فكأن تلكم المواقف تطورت وتقادمت حتى تحولت الى وظيفة: الشــيطان هو البطل الاول في اداء هــذه الممارســة المظلمـة. قـال تعـالى: ﴿**إنمـا يريـد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عـن ذكر الله**﴾.

ولكن للشيطان جنوده العاملين على هذا الطريـق الموحـي. قـال تعـالى: ﴿**أرأيت الذي ينهى عبداً اذا صلّى**﴾ وكم لذلك من نظير!

واذا اردنا ان ندرج عناوين الموقف السلبي من ذكــر الله تبـارك وتعـالى كما جاءت في القرآن الكريم، وذلك حسب السرد الآنف، فان منها:

* «اللهو» باسبابه السالفة: وهو كل من يشغلك عن الذكر وبالاخص ما بيّنه القرآن.

* «المجانبة»: الميل.

* «الاعراض»: الانصراف / اعطاء الظهر.

* «التولي»: الهروب.

* «العشو»: التعامي والتغافل.

* «الاشمئزاز»: التقبض.

* «الضلال»: الغياب.

* «النسيان».

* «الصد»: المنع والنهي.

ولا اريد القول ان هذه الحالات متسلسلة منطقياً وان كانت لا تعدم سيراً تصاعدياً في درجة الموقف وشدته وكثافته، ولكنها بلا ريب تعبير عن حالات محتملة كثيرة، ذلك ان الموقف السلبي من ذكر الله يتباين بالقسوة والغلاظة من شخص لآخر، تبعاً للخلفيات الفكريّة والظروف البيئية والممارسات والسلوك والاحداث والغايات، وهذه المجموعة (اللهو، المجانبة، الإعراض، التولي،العشو، الاشمئزاز، الضلال، النسيان، الصد)، تصوّر الموقف حال السماع اوالرؤية وحال البحث والنظر عن نيّة مسبقة واصرار اوّلي. والذي لاريب فيه ان هذه الحالات يمكن التحرر من اسارها وانحلالها، وذلك اذا توفرت النية الصادقة والارادة الحرة، وهذه المعادلة كثيراً ما يطرحها القرآن في صميم خطابه، بصورة واخرى، فالحالات المذكورة وعلى كافة مستوياتها ليست قدراً ازليا، بل هي مواقف، يمكن ان تحصل ويمكن ان تزول ويمكن ان تشتد ويمكن ان تضعف، والكلمة النهائية في كل ذلك بيد الله سبحانه. قال تعالى: ﴿انا هديناه السبيل امّا شاكرا وامّا كفورا﴾.

مضى بنا ان فضاءات الذكر الطاهرة ومعادلاته ترجع الى جذر قرآني اساسي، ذلك هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فاذكروني اذكركم﴾.

والسؤال المطروح الآن، هل هناك ضابطة لهذه المجموعة من الموقف السلبي ازاء الذكر؟

في الحقيقة ان كل هذه المواقف تنبع من (نسيان) الله تعالى. والقرآن يصور لنا ذلك وفق منطق مخصوص صارم:

١ ـ قال تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون﴾.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم انفسهم﴾.

الانسان عندما ينسى الله، يخرج من عهدة الله، ثم ينسى نفسه، وعندها تضيع كل دلالات الكون والحياة في معادلته الذهنية، ومن ذلك ينشأ الموقف السلبي من الذكر بكل الوانه واشكاله وحالاته...

ومرّة اخرى نقول: ان النسيان هنا ليس (الامحاء الضروري) بل هو هذا الاهمال او هذا الجحود او هذا التعامي. الانسان يلهو عن ذكر الله او يعرض او يجانب او يتولى او تشمئز نفسه او يضل او يصد لأنه نسي الله في الاساس، عن سابق اصرار وعناد.

لنقرأ على سبيل المفارقة الكثيرة.: ﴿فاذكروني اذكركم﴾: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾. فالاولى تستوعب كل ممارسات الذكر الطيب وتفسيرها. والثانية تستوعب كل المواقف السلبية عن الذكر وتفسرها...

وفي قبال هذا الموقف السلبي نجد التفاعل الحي مع الذكر من قبل الانسان المؤمن، وهناك صور متعاظمة من درجات الذكر. يقول تعالى: ﴿فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشد ذكرا﴾.

وفي هذا التوجيه الرباني الكريم نفهم ان استحضار الله درجات، تختلف او بالأحرى تتفاضل بالوضوح والسعة والعمق، ويذهب بعض المفسرين الى ان الاشارة هنا تكمن في قوله تعالى: ﴿الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ وقوله: ﴿واذكر ربّك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول﴾

وقوله: ﴿الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ وقوله: ﴿انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا﴾ وقوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله﴾وقوله: ﴿ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله﴾.

وفي الحقيقة: مهما يكن من امر، فان قوله سبحانه: ﴿أو اشد ذكرا﴾ تلميح واضح، بل تصريح اكبر على مراتبيَّة الذكر، ومن الطبيعي ان هذا التنوع بلوازمه وآثاره وعطاءاته، انما هو دليل على وجود مراتب متفاوتة في افق الذكر وحقيقة هويتها.

خامساً: الذكر الكثير

من امضاءات الخطاب القرآني تأسيس الذكر الكثير، ممارسة هذه العبادة على الدوام، فنحن نقرأ في كتاب الله عزَّ وجل: ﴿يا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾، ﴿واشركه في أمري * كي نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا﴾.

فالقرآن اذن يحث المؤمنين على الذكر الكثير. لكن ما معنى الذكر الكثير هنا؟

الاقرب الى الاحتمال في مثل هذه الموارد هو الذكر اللساني، ولكن كتعبير عن الحضور الذهني الذي هو الاساس في هذه العبادة، على ان الكثرة لم تأت اعتباطاً، ولا هي تصعيد عددي رقمي للممارسة العبادية المذكورة، بل هي عملية توكيد وتجذير وتمكين للحضور بلحاظ موجبات معينة.

ان الانسان يعيش وسط حياة زاخرة بالحركة والفعل، وهو يعمل في اجواء متقلّبة متغيرة، تجتاحه ملابسات واحداث متوقعة وغير متوقعة، ولذا فهو تارة معافى نشيط، واخرى مريض متهاوي، مرَّة آمن مستقر، واخرى مشرَّد مضطرب، مرّة في تقوى الله وحبه، واخرى في عصيان وتمرّد. صور وحالات لا تهدأ ولا تفتر ولا تستقر. من هنا يأتي سرّ الكثرة بالذكر الذي يلح عليه القرآن، اي انَّ الكثرة مرتبطة بحياة الانسان العريضة المتشعبة، فهو على ضوء هذه السعة:

* يشكر عند الغنى.
* يرجو عند الفقر.

* يحمد عند البلاء.

* يستغفر عند المعصية.

* يكبر عندما يرى الآيات العظيمة.

وهكذا مع كل حالة واقعة او محتملة، ولعل ما يؤيد هذا التوجيه، ان الله يطلب من الانسان ذكره في السراء والضراء، ولذا، قيل: الشكر على النعم والحمد على الامتحان، وعلى هذا المنوال يطرح الخطاب الاسلامي سلسلة من المقتربات المركبة من طرفين، احدهما حالة والاخرى نوع من الذكر المناسب، والقرآن مليء بهذا التوجيه من خلال تشخيص علتين لكلا الامرين، اي المادة والذكر المخصص بازائها، على ان تجديد الذكر من شأنه تجديد الروح الانساني بالتقوى، وتحذير للاتجاه الديني السليم في ضميره وعقله، والانسان الذي يذكر الله كثيراً يذكره الله كثيراً. قال تعالى: ﴿فاذكروني اذكركم﴾. وفي المقام رأيان في تفسير ذكر الله للانسان:

الاول: ان ذكر الله للانسان هو هذا الاطمئنان والزيادة في معرفة الله تعالى وغيرها من الآثار الايجابية التي تصب في النتيجة لصالح هذا المخلوق، سواء في الدنيا والآخرة.

الثاني: ان المعنى في اتجاه: اذكروني بالشكر اذكركم بالزيادة، واذكروني بالتوبة اذكركم بالمغفرة واذكروني بالدعاء اذكركم بالاستجابة. القرآن الكريم يحوي كلا الاتجاهين: قال تعالى: ﴿الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾. وقال تعالى: ﴿ادعوني استجب لكم﴾. وفي الحقيقة لا يوجد فارق بين الاتجاهين، فاستجابة الدعاء اضافة الى الانسان بشكل من الاشكال، وعليه يكون الاتجاهان منسجمين متعاضدين.

الذكر، اي ذكر الله كما تبيّن أعلاه لا ينحصر في حالة من الحالات، ولا في مجال من المجالات، وامكان كثرته او بعض حيثيات هذه الكثرة قابلية امتداده لمصاديق تتكثر بتكثر الظروف والملابسات، ولكن رغم ذلك هناك بعض المواطن اشار اليها القرآن الكريم، ويبدو ان سبب الاشارة هو اهمية الموطن وخطورته... منها:

١ ـ **النعم الالهية:** قال تعالى: ﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين﴾. وقال تعالى: ﴿واذكروا اذ كنتم قليلاً فكثركم﴾. وقال تعالى: ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء﴾.

وذكر النعم شكر الله والثناء عليه سبحانه، وليس تلك الصورة الذهنية العاكسة للنعمة كما يتصور البعض، والكتاب يشير الى هذه النعم سواء كانت مادية او معنوية، فردية او جماعية، في السلم او الحرب، وآيات القرآن في هذا الموضوع كثيرة.

٢ ـ **في المحن:** قال تعالى: ﴿يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً﴾.

والحرب محنة، وفي ضوء هذه الآية يمكننا ان نقول ان من مبتنيات التربية الاسلامية ذكر الله تعالى عند الشدائد والمصاعب والمحن، ذلك ان الحرب هنا مثال، او نموذج، حيث نلتقي هنا بمدخل جديد للتفسير يعتمد على قاعدة توسيع الدلالة لاستيعابها مصاديق نظيرة او مشابهة او مشاركة. اي نجعل من الحرب هنا سبباً لتوسيع الفكرة كي تشمل نظائرها من الشدائد والابتلاءات والمصاعب. حيث تكون الحرب مجرّد مثال

توضيحي اشاري، وهذه الفكرة مستلة من بعض موجبات علم الالسنية الحديث. وذكر الله هنا ينصرف الى صيغ الاستعانة بالله والتقوي به والاتكال عليه والاستمداد منه.

٣ ـ عند الخطيئة: قال تعالى: ﴿والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله﴾.

ذلك ان الذكر الحقيقي استعادة حقيقية لتوازن الذات الذي يختل بارتكاب الفاحشة او ارتكاب ما حرّم الله تعالى، بل الذكر هنا تجديد الارتباط بالله على اساس حياة جديدة بريئة من التلوث والانحراف. واعتقد ان حقيقة الذكر هنا تشي الى دائرة التوبة والندم والاستغفار.

وهناك مواطن اخرى، لعل اهمها رؤية آيات الله المبثوثة في كل انحاء الوجود الرحيب. وهو امر طبيعي في خصوص المؤمنين اصحاب العقول الفطنة التي تعطي اهمية كبيرة لوعي دلالة الكون وعجائبه.

سادسا: حوليات النص والمادة

(١)

يربط القرآن الكريم بين الذكر لمشروع عبادي متقاوم في مصاديقه وآثاره وبين مفاهيم كبيرة في صناعة الانسان وبناء الحياة وتحريك التاريخ. قال تعالى: ﴿إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا﴾.: ﴿قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلَّى﴾. ﴿واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا﴾.

فالايمان والعمل الصالح وتزكية النفس والتبتل عوالم ضخمة في حياة الانسان والمجتمعات، ولذلك فان مجيء الذكر في هذه السياقات على نحو التصاف والتعاضد هو دليل صارخ على موقع هذه العبادة من هذه العوالم الشاخصة في مسيرة الايمان الطويلة. وفي أحيان كثيرة يعطف على الذكر احد مصاديقه، او بالعكس. قال تعالى: ﴿فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾.: ﴿... كي نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا﴾.

وهذا اللون من النصوص ينطوي على توكيد وتلاحم بين المفهوم في افقه العريض ومصاديقه التي يدل عليها، بل هو اسلوب تأسيسي يشير الى اهمية الجانب العملي والممارساتي للنظرية المبتناة، وربما لغرض التوكيد على مرتكز متميز (الشكر، التسبيح...) لمناسبة خاصة.

(٢)

نصوص الذكر في القرآن الكريم تمتلك صلاحية الحركة، فهي ليست

طروحات نصيّة جامدة، ولذلك تتصل بالايمان والعمل الصالح وغيرها من مقتربات التأسيس العقيدي والسلوكي، ومن جماليات هذه النصوص انها تتضمن مشروعيتها ومسوّغها بذاتها. فالذكر سبب الاطمئنان وداعية الثبات على الحق وقد يؤدي الى الفلاح في الدنيا والآخرة، وعليه فهو في نصه القرآني بنية مكتملة الذات، وعلاقتها بالبنيات الاخرى علاقة مسؤولية في توجيه التاريخ.

(٣)

والذكر ومن خلال نصوصه القرآنية حاد في عطائه مرن في مصاديقه !! (الشكر، التسبيح، الحمد، الاستغفار، التهليل،....)، سلسلة طويلة من المفردات، وهذه الكثرة دلالة غنى في المضمون، لانها على كل حال ذات معاني متعددة، ومما يثري الذكر، انه الى جانب هذه الكثرة في المعاني هناك آثار حادة في صيرورتها وتحققها، تترتب على تلكم المفردات حال ممارستها، فالمعنى متأتي من كلا الجانبين.

(٤)

تتجاذب الذكر من خلال نصوصه القرآنية معادلات متطابقة، ومعادلات متناظرة، وكل معادلة لها جذرها الذي تنبثق منه. الامر الذي يتيح للعقل حرية السياحة الثريّة بين هذه النصوص. يستخلص المفاهيم والافكار، فنصوص الذكر تؤسس هيكلاً فكرياً قائماً على التوازي والتناظر والتضاد، وعليه فان اللغة هنا ليست فاعلية وصفيّة، وانما هي عمل فكري ناظم ومنظوم. قال تعالى: ﴿فاذكروني اذكركم....﴾ وقال تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم...﴾.

(٥)

والذكر في القرآن الكريم، اي على ضوء نصوصه، مسيرة وتطلـع، فـان نصوصه تأخذ بيدك لتطل بك على لواحق تودع مسبوقاتها كضرورات او مقدمات، وهذا بطبيعة الحال يستدرج العقـل وفيـه غريـزة التواصل مـع الحدث كي يصل الى ذروته، حيويَّة متدفقة باسرارها الفكريَّة.

(٦)

﴿ولذكر الله اكبر...﴾. دليـل مدهـش علـى موضوعيَّـة الذكـر في النـص القرآني، موضوعيَّة تؤثر الامل، وتنقذ العقل من الوهم، وتنتشـل الانسـان من الغرور، وتضـيء الذات بحقيقتها.

المحتويات

الفصل الاول

نظرية العلم في القرآن الكريم

القسم الاول

من طرق المعرفة في القرآن

القسم الثاني

ما هو العلم

الفصل الثاني

التفسير المعادلاتي

الفصل الثالث

الكلمة في القرآن

مقاربات في المجال الدلالي والوظيفي

الفصل الرابع

ذكر الله في القرآن

غالب حسن

* من مواليد بغداد عام ١٩٤٤.

* ليسانس لغة عربية وعلوم قرآن من كلية اصول الدين في بغداد.

* دبلوم تربية وعلم نفس من جامعة بغداد.

آثاره

- الوجود في القرآن الكريم.
- الفكر العميق في الازمة الحضارية.
- الفلسفة الماركسية: عرض والنقد.
- نحو وعي سياسي عربي.
- الشهيد الصدر مفجر الثورة الاسلامية في العراق.
- مشكلة تدوين الحديث في العصر النبوي.
- الوجود الحي.
- أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم.
- نظرية العلم في القرآن(هذا الكتاب).

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تصدرها مجلة قضايا اسلامية معاصرة

رئيس التحرير: عبدالجبار الرفاعي

• اشراقات الفلسفة السياسية	كامل الهاشمي
• الاجتهاد والتجديد	ابراهيم العبادي
• منهج الامام في التفسير	عبدالسلام زين العابدين
• علم الكلام الجديد	محمد مجتهد شبستري
• المدرسة التفكيكية	محمد رضا حكيمي
• اشكالية الاسلام والحداثة	عادل عبدالمهدي
• اسلامية المعرفة	اسماعيل الفاروقي
• اصلاح الفكر الاسلامي	طه جابر العلواني
• جداليات الفكر الاسلامي	ابراهيم العبادي
• فقه التحيز	عبدالوهاب المسيري
• اسلمة الذات	كامل الهاشمي
• نظرية العلم في القرآن	غالب حسن
• القسط والعدل	لمحمد رضا حكيمي واخويه
• مقدمة في اسلامية المعرفة	طه جابر العلواني
• تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية	عبدالجبار الرفاعي
• قضايا التجديد	حسن الترابي
• نزعة التغريب	جلال آل احمد
• الدستور والبرلمان	جعفر عبدالرزاق
• الفكر الاسلامي: تطوراته ومساراته	زكي الميلاد
• علم الاستغراب	حسن حنفي
• الاجتهاد التحقيقي	محمد رضا حكيمي
• المستنيرون: خدمات وخيانات	جلال آل أحمد
• أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم	غالب حسن
• اشكاليات التجديد	ماجد الغرباوي
• مقاصد الشريعة	طه جابر العلواني